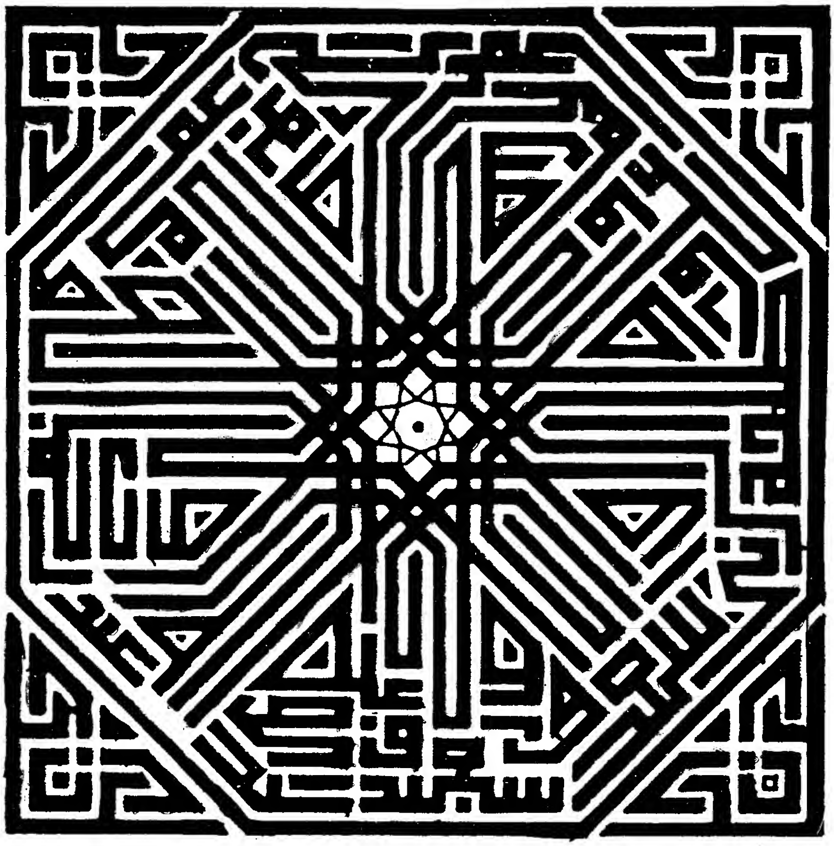
أنور الرفاعي

النظم الإسلامية

دار الفكر



بين يدي الكتاب

هـل للاسلام ، وهو دين ، نظم ادارية وقضائية وعسكرية ومالية واجتماعية ينفرد بها ؟ وإذا كان له ذلك فما علاقة الدين ، بالنظم التي يتبعها المؤمنون به ، في اختيار شكل الحكم الذي يرتضونه ، والقانون الذي يتخذونه ، واسلوب التعامل التجاري والعلاقات الاجتماعية التي تصح لمعاشهم ... ؟

الواقع ، ان الاسلام ، جاء بنظام متكامل ، يشمل **الدين** وما فيه من ايمان وعبادات ، **والدولة** وما فيها من أنظمة ومعاملات وقوانين وسياسة عامة ، **والحضارة** وما يسعد الانسانية ويعمل على تقدمها وازدهارها .

والاسلام ، مع تحديده شكل الايمان وأنواع العبادات ، وضع الاطار العام للمعاملات المالية والاجتماعية والفكرية بين اتباعه ؛ ودعا ، ضمن هذا الاطار ، إلى استخدام العقل السليم ، وما ينتهي إليه من معرفة و كشف فكري وعلمي وتقني ... والعقل السليم ، لا يمكن الا أن يؤدي إلى الخير والحقيقة .. وترك الاسلام لاتباعه التصرف حسب مقتضيات الأحوال في أمورهم الدنيوية ، فيما لا يخالف الاسس التي نص عليها والتوجيهات العامة التي أوحى بها ... فالرسول العربي حين قال : « إنما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .. قصد جميع الاخلاق الحميدة ، التي يتصف فيها جميع العاقلين

من بني البشر على اختلاف لونهم وعقيدتهم وموطنهم . والقرآن الكريم حين نزلت آيته : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » ضمنها قوانين العقوبات جميعها ، التي يتخذها المشرعون . والاسلام حين دعا أتباعه إلى « الصدقات » جعلها شاملة لكل عمل برّ وخير واحسان وتعاون وتعاطف ، وان فرض « الزكاة » وحدد قيمتها وبين أوجه صرفها ، وكان بهذا الفرض وضع « قاعدة » الضرائب ، التي توسع المسلمون فيها فيما بعد ، حسب حاجات دولهم واماراتهم وشعوبهم ... وحين فرض « الجهاد » جعل الخدمة العسكرية وخدمة العلم ، واجباً قومياً ودينياً ...والاسلام نفسه حين سمح ببعض الأمور ، التي تصلح لعصر ولا تصلح لآخر ، وتفيد في عصر ، ولا تفيد في آخر ، وضع بجانب هذا السماح ، تحذيراً ، وجعل الترهيب إلى جانب الترغيب ، فسمح « بالرق » وشجع على تحريره حتى لتكاد أوجه تحريره التي دعا اليها ، لو نفذت ، كافية لالغائه ، وسمح « بالطلاق » لكنه حدّده ووضع له أصوله وقواعده ، وأمر الناس أن يتقوا الله به ، « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » وقال عليه السلام : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وسمح بتعدد الزوجات لكنه تعالى قال : « وان خفتم الا تعدلوا فواحدة ، ولن تعدلوا » ، ونظم العلاقات الزوجية والاسرية والاجتماعية ، وحدّد انصبة الإرث ، والوصية وما إلى ذلك من امورَ مالية ... وهكذا رسم الخطوط العامة للنظم الاسلامية .

وبعد ، فهل وجب على المسلمين « الجمود » واتباع ما جاء نصاً في القرآن والحديث ، وما حدث عملياً من أمور تصرف بها الرسول عليه السلام . وان يقف المسلمون دون ذلك من امور مستحدثة ، لم يرد فيها نص ، ولم يجر لها ذكر في حياة الرسول ؟ ام سمح الدين لاتباعه بالقياس والاجتهاد ؟

وهل الاجتهاد مقصوراً على الصحابة والتابعين الأولين ، اغلق بابه بعدهم ، أم باب الاجتهاد مفتوح للمسلمين على مر الزمان وتتابع العصور ؟ وهل ندرس النظم الاسلامية التي وردت نصاً في القرآن والحديث والسنة أم ندرسها كما اتبعها المسلمون في مختلف حالاتهم ؟

لو ضيقنا على أنفسنا بدراسة النظم التي نص عليها الاسلام لاقتصر بحثنا على دراسة الفقه الاسلامي ، وتفسير القرآن والحديث ، ولكن المسلمين ، لم يجمدوا ، بعد أن انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى وانقطع الوحي ، وأعملوا عقولهم ، واقتبسوا ، وناقشوا ، وقاسوا واجتهدوا وابتدعوا وعدلوا واتبعوا نظماً مختلفة حسب مقتضيات الحال ، ضمن اطار تعاليم الدين الحنيف التي تدعو إلى العمل للمصلحة العامة .

الم يتغلب الصحابة على أول مشكلة واجهتهم يوم وفاة الرسول عليه السلام ، حين اجتمعوا في السقيفة واختاروا نظاماً للحكم لم يرد فيه نص مباشر ، ولكنه لا يخالف تعاليم الدين ؟ ألم يتصرف الخلفاء فيما عرضت لهم من أمور ، لم يسبق لها مثال يحتذى ؟ ألم يتناقش الخليفة عمر وصحابته في كثير من أحداث الفتوح ، وتوزيع الغنائم والفيء ، ألم يمتنع الخليفة عمر ابن الخطاب عن إعطاء « المؤلفة قلوبهم » نصيباً من الصدقات مع ورود نص في القرآن يعطيهم حقهم في هذا النصيب ، ذلك لأن الدين الجديد الذي أصبحت له دولة قوية تحميه لم يعد بحاجة إلى مؤلفة قلوبهم يأتلفهم .. ولم يقل أحد أن عمر بن الخطاب خالف أوامر الدين ونواهيه فيما ذهب إليه من تصرفات .. ألم يختلف أهل السنة والجماعة وشيعة الامام علي ، والخوارج والمرجئة والعباسيون والتابعون ... في امر الخلافة ؟ ألم تلغ الخلافة في الربع الأول من هذا القرن ولا نسمع مسلماً واحداً يقول إن المسلمين اليوم

مخالفون للشرع فيما يتبعون من أنظمة ، ويسكتون عن إحياء الخلافة ؟ ألم يحارب أبو بكر المرتدين الذين امتنعوا عن دفـــع الزكاة للحكومة الاسلامية ، فيأتي خليفة بعده يترك الزكاة إلى الناس يؤدونها على ذمتهم ، لا تتدخل السلطة في محاسبتهم ؟ ألم يقتبس الراشدون والأمويون والعباسيون وغيرهم الدواوين وأنظمة الحكم المختلفة ، ممن أسلم من غير العرب أو ممن جاورهم أو جاوروه ، أو اتصلوا بـــه ؟ ألم تعرب الدواوين ، وينقط المصحف ، وتمتزج الأفكار والثقافة والعادات وأساليب الحيـاة في المجتمع الاسلامي جميعه ، حتى غدا مجتمعاً جديداً ، لا هو عربي أصيل ، ولا هو اعجمي كامل العجمة ، ولا هو اسلامي بحت كاسلام عهـد النبوة ، ولا هو خارج عن روح الاسلام ، فيـه المسلم التقي الورع المجتهد ، وفيـه المسلم التابع ، وفيه اتباع الديانات الاخرى ، كما فيه اجناس من شعوب شتى مختلفة التقاليد والمفاهيم ، متنوعة أساليب الحياة والتفكير ، تعيش جميعها في دولة الاسلام ... ولم يقل أحد أن هذا الاختلاف مخالف للدين .

فالنظم الاسلامية اذن ، هي النظم التي اتبعها المسلمون في مختلف اشكال حكوماتهم ومجتمعاتهم ، سواء مـا ورد بهـا نص ، أو اقتبس ، أو وصل إليه الناس باجتهاد ورأي او تجربة وصدفة ، وإن كانت في بلاد اسلامية ، ولمجتمعات يدين اكثريتها بالاسلام ، وتخضع في اطارها العام لتعاليم الاسلام .

وحين نؤرخ لهـذه النظم ، انمـا نستعرض ، في الواقع ، جانباً من حضارة المسلمين ، عرباً وعجماً ، ونصور حياتهم ، منـذ جـاء الاسلام ، بلوحة تبعث الروح في هذه الحياة ، في الادارة السياسية والجيش والتعامل الاقتصـادي والاجتماع ، تزدان بكثير من الزخارف التي تأتي على ذكر

صانعي هذه اللوحة الحقيقيين دون التفصيل في سير حياتهم وأعمالهم ، فتضفي عليها مسحة الجمال ودفق الحياة .

وإذ أقدم هذه الدراسة المقتضبة . . أرجو الله العلي القدير أن يجعل منها خيراً للدارسين ، ومتعة مفيدة للقارئين ، وقوة لي ولغيري على متابعة العمل والبحث والتنقيب واحياء تراثنا القومي الذي يجب أن يبقى نبراساً لنا نهتدي بهديه ، وغـــذاء يجري في أنفسنا مجرى الدم فينقيه ، ويربطه بماض خالد تليد ، ويحيي حاضراً قلقاً ، وينبت مستقبلاً مزهراً ، كما كان .. ان لم يفضل .

والله ولي التوفيق

دمشق ١٩٧٣/١/٢٥ م الموافق ١٣٩٢/١٢/٢١

انور الرفاعي

* * *



الفصل الأول

أنظمة الحكم في الاسلام

الجاهلية والاسلام : تعتبر البعثة النبوية الحد الفاصل في تاريخ العرب من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية ... ويسمى العهد الذي سبق البعثة بالعصر الجاهلي ، كما ذكرنا ، والذي تلاه بالعصر الاسلامي . وليست كلمة الجاهلية مأخوذة من الجهل بمعناه المعروف وهو ضد العلم ، وإنما المقصود منها جهل العرب السبيل الحقيقي لمعرفة الله وعبادته ، واتصافهم بكثير من العادات التي يجب أن لا توجد في مجتمع راق متمدن ، وقد أبطلها الاسلام بتعاليمه ، كالسفه والأنفة والغضب والحمية ، والمفاخرة بالنسب لا بالعمل الطيب ، وقد أطلقت كلمة الجاهلية على جميع ما يمت بصلة إلى الفترة التي سبقت العهد الاسلامي .

وكلمة الاسلام جاءت من السلم وهي تؤدي معنى السلام والأمن والمسالمة وعدم الخصام ، ثم أدت إلى معنى الخضوع والانقياد لأوامر الله ورسوله ، وأطلقت أخيراً كلمة مسلم ، على كل من اتبع ديانة محمد عليه السلام ، وأصبحت كلمة اسلام تدل مع الزمن على معان ثلاثة هي :

دين – دولة – ثقافة : إذ يقصد بالاسلام الدين الاسلامي بجميع تعاليمه وعقائده ، ويقصد به الدولة الاسلامية التي أنشأها العرب بعد إيمانهم بالدين الجديد ، إذ بقي كثير من سكان البلاد التي فتحت في الشام والعراقين ومصر على دينه الاصلي ، مع خضوعه للدولة العربية الجديدة التي اتخذت الاسلام دينها الرسمي ، وكثير منهم دخل الدين الاسلامي لغاية سياسية بحتة وهي تخلصه من دفع الجزية التي تفرض على الذميين ، وليتقرب من الطبقة العربية الحاكمة . كما يقصد بكلمة اسلام ، الثقافة الاسلامية التي تطورت مع الزمن وأصبحت تمثل مزاجاً من ثقافات الأمم القديمة كالفرس واليونان والهند والسريان والآراميين ، فقد أحيت الثقافة الاسلامية بحق ثقافات الشرق الأدنى المندثرة وخلقت من تمازجها ثقافة جديدة ، ساهم بها العرب والعجم على السواء ، وكان انتصار العرب فيها من ناحيتي اللغة والدين ، وانتصار العجم فيها من النواحي العلمية والفنية التي اتخذت الطابع العربي – الاسلامي.

والواقع كان الاسلام عامل وحدة عربية بين العرب في الجزيرة والاطراف ، وعامل وحدة روحية بين اتباعه على اختلاف الوانهم ولغاتهم وتباعد ديارهم ، وعامل وحدة قومية لجميع الذين اصبحوا يتكلمون العربية مسلمهم ومسيحيهم ، فبفضل القرآن حفظت اللغة العربية الفصحى ، وبفضل القرآن والحديث نشأت علوم دينية ولغوية وادبية ونتاج فكري عام ، وصار الاسلام فيما بعد ، منذ بعث محمد ، حتى اليوم ، لا ينفصل عن الثقافة العربية ، وصارت الحضارة العربية ، حضارة الاسلام ، سواء ساهم فيها المسلمون او غير المسلمين ، عرب او عجم ، واصبح الاسلام بنظر المسلمين عقيدة وشريعة وحضارة ومثلا عالية ، وبنظر العرب المسلمين والمسيحيين معا ثقافة وحضارة وتراثا روحياً وامجاداً مشتركة[1] .

---

(١) نكتفي هنا ان نورد قولا واحدا لكاتب مسلم ، واقوال بعض كتاب النصارى في القومية العربية او في الحضارة العربية يؤيدون هذا الرأي :

تعاليم الاسلام : تقسم تعاليم الاسلام إلى قسمين : عقائد وأعمال :

العقائد : ويقصد بها الإيمان القلبي ومنهـــا قوله تعالى : « آمن

قال طه حسين في مؤتمر الادباء الثالث عام ١٩٥٨ م : « اذا اردنا ان نعرف متى تكونت القومية العربية ، فينبغي ان نردها الى ظهور الاسلام . فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع انواعها وفروعها ــ الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية ايضا ــ انما هو النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذي جاء بالقرآن ودعا الى الحق ، حتى كانت الهجرة ، وحتى اسست اولى مدينة اسلامية ، او بعبارة ادق ، اولى مدينة عربية منظمة عرفها التاريخ ، تكونت فيها النواة الاسلامية للقومية العربية ، وهي مدينة يثرب ، ولم ينتقل النبي الى جوار ربه الا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها هو القرآن ، ولها نظامها السياسي الذي يقوم على ما دعا اليه القرآن في العدل والانصاف والمساواة بين الناس . ولها حكامها المنظمون والمنظمون ايضا .

وبعد ان اتم النبي توحيد الامة العربية ونهض خلفاؤه من بعده ، جعلت هذه القومية العربية تتجاوز الجزيرة العربية الى الاقطار الاخرى .. ولم يكد القرن الثاني ينتهي حتى ننظر الى القومية العربية فنجدها ليست في الجزيرة وحدها ، وانما هي قبل كل شيء في هذه البلاد التي فتحت والتي امتزج فيها العرب بغيرهم من سكان البلاد الاصليين .

اذن هناك قومية عربية جديدة انشاها ، لم تتالف من عنصر عربي خالص ، وانما تتألف من جميع العناصر التي كانت تسكن هذه البلاد ، فانشأ الاسلام اذن أمة جديدة ، وجعل هذه الامة عربية ، عربية اللغة وعربية التفكير والشعور ، وعربية الحضارة وعربية الادب .. » .

واعلن امين نخلة ان للأسلام اعتبارين : احدهما العقيدة وهي خاصة بالمسلمين ، وثانيهما الثقافة واللغة والتاريخ ، حتى لكأن العرب جميعا مسلمون بهذا الاعتبار فقال : « ان ملة القرآن والانجيل تتلاقيان ، حتى كأن الاسلام اسلامان ، واحد بالديانة ، وواحد بالقومية واللغة ، او كأن العرب جميعا مسلمون حين يكون الاسلام اهتداء بمحمد وتمسكا بقوميته وكلفا بلغته .. » وأكد « أن محمدا صاحب رسالة عامة للبشر جميعا وهو في الوقت نفسه مفخرة للعرب كلهم » ، وايده فيما ذهب اليه الياس خليل بقوله : « محمد هو لنصارى العرب كما هو لمسلميهم . ايها المسلمون ليس محمد لكم وحدكم ، ولكنه لنا ولكم ، هو نبي دينكم وهو شهادة حق مقدسة في ديننا ودينكم . ومحمد للقومي منا عربي عظيم من قريش .. مولد ابن عبد الله القرشي مولد للقوة ، وتحرز للجهاد لاخوة عربية مقدسة هي انقى اخوة عرفها بشري في عين بشري .. » .

الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله .. »

فالإعتقاد بالله ، أول ركن من العقائد الاسلامية ، وإذا كان الاعتقاد بوجود إله للعالم يكاد يكون عاماً بين الشعوب المتمدنة بعد اضمحلال عبادة الأوثان ، ونبذ فكرة تعدد الآلهة ، فان مفهوم الاله يختلف من اتباع ديانة إلى أخرى ، ويدعو الاسلام لعبادة إله واحد لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ، رب السماوات والارض ورب العالمين خالق العالم ومدبر أمره ، أحاط بكل شيء علما . ومن العقائد الايمان بوجود ملائكته ، وكتبه المرسلة ، ورسل يختارهم الله من البشر فيبعثهم لهداية النـــاس ، وخاتم هؤلاء الأنبياء هو محمد عبده ورسوله أي هو بشير ، بعثه الله ، وبلغه أوامره كما بلغ من سبقه من الأنبياء بواسطة الوحي الذي لم يكن أبداً عبارة عن تجسد الله وإنما من طريق روحي لم نعلمه حق العلم ، وقد أنزل القرآن على محمد فصار كتاب المسلمين المقدس والمرجع الأساسي لهم في جميع أمورهم الدينيـة ، كما أن من العقائد أيضاً الايمان باليوم الآخر أي يوم القيامة ، وبالحساب ، وبالجنة والنار ، وبالشياطين ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى .

الاعمال : وتتناول شتى أنواع الاعمال التي يقوم بها المسلم وهي :

١ــ عبادات : وهي ما يقوم بها المسلم لعبادة ربه كالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج لمن استطاع إليه سبيلا .

٢ــ اخلاق : ولم يكتف الاسلام أن يؤمن اتباعه بمعتقداته ويؤدوا فرائضه بل وضع لهم أسساً أخلاقية ، وطلب اليهم أن يعيشوا في الحياة معيشة دنيوية أساسها الفضائل وحسن المعاملة والتعاون على الخير ، فهدم

كثيراً من العادات الجاهلية كالوحدة القبلية والوحدة الجنسية وأحل محلها الرابطة الدينية ، وكان التفاضل بشرف القبيلة أو الجنس فأحل محلها العمل الصالح والتقوى ، ومنع شرب الخمور ، ولعب الميسر ، والربى ، والكذب والغش والخداع ، والتجسس ، كما دعا إلى مكارم الاخلاق كالصدق ، والعفو عند المقدرة ، والوفاء بالوعد ، وما إلى ذلك من الاخلاق الحميدة وقد قال عليه السلام : « إنما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

٣- اجتماع : وضع الاسلام أسس كثير من الامور الاجتماعية ، كقواعد الإرث ، والزكاة ، وغنائم الحروب ، وأصول المبايعات والمفاوضات ، وحدد نظم الأسرة وتكوينها ، والزواج والطلاق ، وبين علاقة الفرد بالمجتمع ومعاملة الأفراد ، وما يتعلق بالقصاص وحدوده ، كما هدى إلى الآداب العامة كبدء التحية والسلام واحترام المسنين والنساء ..

٤- سياسة : وحتم على اتباعه إطاعة الله ورسوله ، وأولي الأمر في الامة ما أطاع أولو الامر أوامر الله . وأمر بالجهـــاد ، والاستعداد للحروب ضد الاعداء والدعوة للدين .

٥- انسانية حضارية : صحيح ان دعوة الاسلام انصبت فيما انصبت فيه إلى محاربة الوثنية والتأكيد على عبادة الله ، الاحد ، الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولكنها في نفس الوقت نقلت مثالية العرب من صعيد الصحراء ، إلى صعيد البشرية جمعاء ، ومن إطار القبيلة إلى إطار الانسانية فوحدت بين القبائل في العمل وفي الهدف ، وألقت في روع العربي انه إنسان في هذه الحياة ينضم إلى الاسرة الانسانية ، يسهم معها في رفاه الانسان وتقدمه ، وتنظيم حياته واستثماراته لقوى الطبيعـــة ، وحولت غريزته وحيويته من الغزو والصراع القبلي المحلي في سبيل بعير يغنمه ، أو متاع يسلبه ، أو ارض يرعى فيها سوائمه ومورد ماء يقيم حوله ، أو

من قتال في سبيل انفة جاهلية او تفاخر في النسب ، إلى الجهاد في سبيل تحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، وتحريرهم من مختلف انواع العبوديات : تحرير الرقيق من عبودية الرق ، وتحرير المرأة من الظلم الاجتماعي الذي سلبها حقوقها ، وتحرير الطبقات الكادحة من عبث الحكام ، ومنع الغش والفساد والخيانة والغدر والاستثمار ، وأكل الاموال بالباطل وما إلى ذلك من أمور ، كما حثت دعوة الاسلام على استخدام العقل البشري في البحث والتجربة وتتبع العلم ودراسة آلاء الله ، ومخلوقاته ، وما في الطبيعة من اسرار ، واستجلاء غوامضها والافادة من طاقاتها .

ومرجع تعاليم الاسلام الاساسي هو القرآن ، ثم ما أثر عن الرسول من حديث ، ثم أخذ المسلمون فيما بعد يقيسون على ما ورد في هذين المصدرين او بجمع علماؤهم على صحة أمر أو بطلانه. وهو ما عرف بالاجماع .

القرآن : وهو كما ذكر في بعض آياته « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وقد نزل على رسول الله منجماً في نحو عشرين سنة ، حسب مقتضى الحال ، وتطور الحوادث وتبعاً للمناسبات، وكان رسول الله ﷺ ينقل لأصحابه ما ينزل عليه من سوره وآياته ، فيحفظونها عن ظهر قلب ، ويكتبونها على عسب النخل (جويدة النخل) أو ألواح اللخاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) أو قطع العظم ، وهو بلغة عربية جذلة ، ومن السهل الممتنع ، حتى ان بلاغته سحرت العرب وآمنوا به لعجزهم عن مجاراته ، وكان بلغة قريش ، واستعمل بعض كلمات من لغات القبائل الاخرى ، كما عربت فيه بعض الكلمات الاعجمية ، وأوجدت فيه كلمات جديدة ذات معان جديدة . وتقسم سوره إلى مكية

وهي التي نزلت بمكة من البعث حتى الهجرة ، وتشمل معظم القرآن ، وتمتاز بقصرها وايجازها ، وأسلوبها المتين ، وهي تدعو إلى وحدانية الله ورفض عبادة الأوثان ، وتبين صفات الله تعالى ، وتثبت اليوم الآخر والحساب والجنة والنار ، وتبين ما يستطيع الانسان أن يتقرب به إلى الله تعالى من اخلاق فاضلة ومعاملة حسنة ، كما ذكر فيها بعض العبادات العملية التي تربط الانسان بالله وتوجهه نحو الخير كالصلاة ، وفيها أمر الرسول بالجهاد في سبيل نشر دعوته . أما السور المدنية وهي التي نزلت بعد الهجرة فتمتاز بقلة عددها وطولها وتبلغ ثلث القرآن ، وتمتاز بما فيها من قصص تاريخية للأقوام الغابرة لتكون عبرة للمعتبرين ، وكثير من هذه القصص موجود في الكتب المقدسة للديانتين الموسوية والمسيحية ، وقد تناولت الشرائع الاجتماعية والمدنية التي تكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض والقيام بالأعمال الدينية فذكرت فيها احكام الصلاة والصوم والحج والزكاة ، وفيهـــا تحريم الخمر والميسر ولحم الخنزير ، وذكر الاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والمهر والميراث ، وذكرت ايضاً كثيراً من القوانين المدنية والجزائية كالقصاص ، والقتل ، والثأر ، والسرقة ، والقذف والزنا ، وعتق الرقبة ، وكانت آخر آياته تلك التي نزلت على الرسول عليه السلام في حجة الوداع قبل وفاته بثلاثة اشهر : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وبعد وفاة الرسول ﷺ رأى أبو بكر ان كثيراً من الحفاظ قد قتلوا في حروب الردة فخاف على القرآن من الضياع ، وأشار عليه عمر بجمعه في كتاب واحد ، فجمع القرآن وسجل في نسخة واحدة بقيت عند ابي بكر ثم عند عمر من بعده ، ثم عند ابنته حفصة إحدى زوجات الرسول عليه السلام ، ولما كان عهد عثمان نقلت منه ست نسخ ، وارسلت اربع

منها إلى مكة والبصرة والكوفة والشام وابقيت واحدة لأهل المدينة ، واحتفظ عثمان بالنسخة السادسة ، ومن هذه النسخ الاصلية نقلت النسخ التي وصلت إلى ايدينا ، والقرآن هو الكتاب الوحيد في العالم الذي لا يوجد فيه اختلاف في نصه أو تشكيله او روايته مهما تعددت طبعاته وتنوعت وقد قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

لا جدال في أن القرآن الكريم معجزة النبوة وآية رسالة محمد ﷺ وقد تحدى القرآن العرب حين نزوله على ان يأتوا بمثله او بعشر سور من مثله او بسورة من مثله فعجزوا .

والتحدي بالبيان والبلاغة والاسلوب والايجاز وبالأخبار الصادقة عن الامور المستقبلة .. ولهذا قال بعض الباحثين المعاصرين ان القرآن ليس شعراً ولا يوصف بأنه نثر . فقسم الكلام إلى ثلاثة اقسام : شعر ونثر وقرآن ...

وقد عدّ القرطبي في القرن السابع الهجري (المتوفي ٦٧١ هـ) اوجه اعجاز القرآن في عشرة اوجه ، ومنها تشريعاته ... وشرح الامام محمد عبده (المتوفي سنة ١٩٠٥ م) هذه الاوجه العشرة ... ان تشريعات الكتاب الكريم منها ما هو تنظيم اجتماعي ومنها ما هو خاص بالسياسة والحكم ، ومنها ما هو خاص بالنظام المالي والانظمة المدنية ، ومنها ماهو خاص بأمن الجماعة وسلامتها ، ومنها ما هو خاص بنظام الحرب والسلم ، وعلاقة غير المسلمين بالدولة الاسلامية ، ومنها ما هو خاص بمقاومة الرق والقضاء عليه تدريجياً ..

اذا ادركنا هذا بدقة ووعيناه وفهمناه ، يتبين لنا ان تشريعات القرآن الكريم هي باب عظيم من ابواب اعجازه للبشر وتحديهم[١] .

---

(١) من مقال للدكتور احمد عبد المنعم البهي الاستاذ بجامعة الكويت العربي عدد ١٢٨ .

الحديث : والحديث أو السنة هو ماورد عن الرسول عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير ، فلقد روي عن الرسول كثير من الاقوال التي قالها في مناسبات كثيرة ، وأجاب عن كثير من أسئلة صحابته يفسر لهم ما غمض عليهم من آي الذكر الحكيم ، أو يشرح لهم المجمل منها أو المطلق أو العام كأوقات الصلاة وعددها وكيفيتها ، وما يبطلها .. (إذ فرض القرآن الصلاة ولم يبين تفاصيلها) ، كما قام الرسول بكثير من الاعمال الدنيوية الثانوية التي لم يرد ذكرها في القرآن . فجميع ما أثر عن الرسول ، وما نقله صحابته عنه من بعده يعرف بالحديث ، وللحديث قيمة كبرى في الدين الاسلامي تلي رتبة القرآن مباشرة ويعتبر متمماً لتعاليم القرآن وسنتعرض في كلامنا عن الحياة الفكرية إلى القرآن وتفسيره وأصول الفقه المستنبطة منه ، وإلى الحديث وجمعه وتدوينه وتفسيره .

أثر الاسلام في حياة العرب : كان طبيعياً أن يؤثر الاسلام بتعاليمه ومعتقداته الجديدة بالعرب تأثيراً واضحاً ، حتى لقد خلقهم خلقاً جديداً ، وجعلهم في مدة لا تتجاوز نصف قرن من الزمان يوحدون شملهم في الجزيرة العربية ويخرجون منها ليرثوا ملك دولتي الأكاسرة والقياصرة ، وليؤسسوا دولة قوية متماسكة تصل حدودها إلى المحيطين الاطلسي والهندي ، وتتاخم في الشمال الدولة البيزنطية وتقف في الجنوب عند الصحراء ، ولا يذكر التاريخ عاملاً دينياً واقتصادياً وسياسياً أثر في أمة ما ، تأثير الاسلام بالعرب ، فاذا استطاع موسى أن يخرج بني اسرائيل من مصر ويرفع عنهم نير العبودية ، وإذا دفع الجدب والجفاف الأقوام الآسيوية إلى الهجرة نحو الغرب ، وإذا نقل بطرس الاكبر الروس من شعب شرقي إلى أمة أوربية ، فان جميع هؤلاء لم يستطيعوا

أن يتركوا الأثر الذي تركه الاسلام في العرب ، وكان تأثير التعاليم الاسلامية متدرجاً ولكن سريعاً ، وكان أول ما فعل بالعربي أن رفع مستواه العقلي وجعله يفكر بوجوده وبالله وبآلاء الله ، فنقله من عبادة نصب وأوثان لاتضر ولاتنفع إلى عبادة رب العالمين ، ووضع له مثلا أعلى يختلف عن مثله الاعلى في الجاهلية الذي كان يتمثل في التمتع بملذات الحياة ولذائذها والانغماس في اللهو والشراب ومعاقرة بنت الحان ولعب القمار وعدم التفكير سوى بالحياة الدنيا ، وأصبح مثله الأعلى الخلق الفاضل ، وعبادة الله والتقوى والصلاح والعمل للسعادة في الحياتين : الدنيا والآخرة ، والتمسك بكثير من العادات الاجتماعية والاخلاقية .

« ويروى أن جعفر بن أبي طالب الذي هاجر إلى الحبشة بعداً عن اضطهاد المشركين أجاب النجاشي عندما سأله عن حال المسلمين وتعليمات الدين الجديد بقوله: « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانه وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . وأمرنا أن نعبد الله وحده ولانشرك به شيئاً . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً ... » (ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥) وفي هذا القول مقارنة لطيفة لحال العرب في جاهليتهم وأثر الاسلام في أتباعه منهم » .

ولم تؤثر تعاليم الاسلام تأثيراً وبدرجة واحدة على جميع أتباعه العرب

وغيرهم ، إذ نلاحظ نزاعا محتدما بين النزعات الجاهلية والنزعات الاسلامية ، بين العادات والتقاليد القديمة ، وبين التعاليم والديانة الجديدة . وظهر هذا النزاع في كثير من الحوادث سواء في عهد الرسول أو الخلفاء الراشدين أو العصر الاموي . وكان الدين الجديد ينتصر بالتدريج على ما يمت بصلة إلى الجاهلية ، وكان هنالك أناس لازالوا ينزعون الى شيء من التسامح أو عدم التقيد بأوامر الدين ونواهيه ، كشرب الخمور ، والانغماس في الترف ، وترك الصلاة ، أو عدم دفع الزكاة ؛ كما كان هناك أناس آخرون ، دخل الاسلام إلى قلبهم فملأ عليهم جوانحهم وصرفهم عن كل شيء الا عن اتباع تعاليمه والتقيد بها ... واذا لم يستطع الاسلام أن يجعل من العرب أفراداً متساوين في ايمانهم وعقيدتهم وأعمالهم الفردية ، فانه استطاع أن يجعل من العرب كمجموع ، أمة جديدة ، ذات خلق جديد وأهداف جديدة ، فانسابوا مدفوعين بعامل نشر الدين الجديد ورفع راية الاسلام ، آملين بالفوز في الحياة الدنيا ، أو بجنات النعيم في الآخرة ، الى البلاد المجاورة لجزيرتهم وتزعموا الحضارة العالمية في عصور كانت فيها بقية انحاء العالم تتخبط في دياجير الجهل والتعصب والانحطاط .

تطور نظام الحكم في الاسلام

نظام الحكم في عهد الرسول : أخذ الرسول عليه السلام بعد البعثة في في الدعوة لدينه الجديد ، وما لبث أصحابه ان ازدادوا ، ولما كانت بيعة « العقبة الثانية » التي اجتمع فيها ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من أهل يثرب وبايعوا الرسول عليه السلام فيها « على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وبناتهم » ، انتخب الرسول منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وقال لهم « انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وانا كفيل على قومي » فكان ذلك أول تنظيم حكومي للرسول ، وعندما هاجر الرسول من مكة الى يثرب واستقبله أهلها وأحلوه المحل الأول في مدينتهم ، واستغنوا عن تتويج عبد الله بن أبي ، أصبح الرسول الرئيس الأعلى لحكومة يثرب ، وقد نزلت عليه سور التشريع المختلفة وهو في يثرب ، وكانت هذه الآيات تساعده على إيجاد دستور حكومي عام منتظم ، وأخذ المسلمون يرجعون الى الرسول لحل جميع مشاكلهم ، وهكذا جمع الرسول السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وكان يحكم بوحي من الله ، أو باجتهاد يراه مناسباً ، وكان حكمه في كلا الحالين قاطعاً غير قابل للتمييز . واخذت صورة الجهاز الحكومي بالظهور ، إذا كان الرسول يجلس في مسجد المدينة المنورة ويقبل عليه الناس يسألونه حل قضاياهم ، أو يتعلمون منه تعاليم الدين الجديد ، أو يقدمون طاعتهم وإيمانهم به وبدينه ، وكثيراً ما كان الرسول يستشير أصحابه وخاصة أبابكر قبل أن يقطع بأمر لم ينزل فيه نص شرعي ، حتى ان بعض الاعاجم

اعتبروا أبا بكر وزيراً للرسول تشبيهاً له بوزراء أكاسرتهم أو قادتهم . ولم يكن الرسول يصر على رأيه الخاص ، فيما اذا اقتنع بوجود رأي أحسن منه كما روي مرة انه « نزل منزلاً للحروب فقيل له : إن كان بوحي فسمعاً وطاعة ، وإن كان باجتهاد ورأي فليس منزل مكيدة ، فقال : باجتهاد ورأي ، ورحل » ولكن من المتفق أن الرسول لا يقر على خطأ .

وكانت آيات التشريع تنزل حسب تطور جماعة المسلمين ، وانتقلت بهم بالتدريج من العادات والتقاليد الجاهلية الى التعاليم الاسلامية الجديدة ، وهذا هو سبب وجود آيات الناسخ والمنسوخ في القرآن ، إذ لابد للقوانين الالهية من مراعاة الحال التي تطبق عليها الاحكام ، ومن قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . وقد تعرض التشريع الجديد الذي أصبح أساساً لنظام الحكم الاسلامي الى جميع مايصدر عن الانسان من أعمال ، سواء من عبادات كما ذكرنا ، أو من أمور مدنية كالبيع والشراء ، والقروض والايجار ، أو أمور جنائية كالقتل والسرقة وقطع الطرق ، أو تنظيم للأسرة ، كالزواج والميراث .أو أمور سياسية دولية كالقتال ، ومعاملة أهل البلاد المفتوحة ، والذميين ، وتقسيم الغنائم . وكانت أعمال الرسول ﷺ هي المفسر لكثير من هذه الآيات التي جاءت بجملة عامة ، كما أنه قام بوظيفة رئيس الحكومة المدني بتعيين كتّاب الوحي وإرسال الصحابة في تفقيه القبائل في الدين ،وأئمة المسلمين في الصلاة ، وجباية الزكاة ، وإرسال الكتب الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام ، وقاد بنفسه كثيراً من الحروب ، وعين القواد ، ورسم لهم خطط القتال الى غير ذلك من الأمور الدنيوية ، إلى جانب قيامه برسالته الأساسية وهي الدعوة الدينية .

نظام الحكم بعد الرسول : ترك الرسول (ﷺ) من بعده مصدرين أساسيين للتشريع ولأنظمة الحكم هما : القرآن وما فيه من آيات للتشريع ، واعماله التي قام بها واحاديثه التي فاه بها وهو ما عرف بالحديث والسنة ، وقد واجه المسلمون من بعده كثيراً من المشكلات أخذوا يحلونها بالقياس بما حدث في عهد الرسول ، كما أخذوا بالتدريج يقتبسون انظمة الحكم التي كانت سائدة عند غيرهم من الممالك كالفرس والبيزنطيين والاغريق . وقد وضع عمر بن الخطاب أسس نظام الدولة الاسلامية ، إذ قسم دولته إلى أقسام ادارية كبيرة ، وولى عليها الولاة ، وعيّن القضاة وعمال الخراج ، وبين لهم وظائفهم وأعمالهم ، وأمر قادته باتخاذ مدن جديدة ليقيم فيها الجند حتى لا يختلطوا مع السكان ويميلوا الى الحياة الزراعية والاستقرار ، فتضعف فيهم روح الجندية والجهـــاد ، وكثيراً ماغادر عاصمته المدينة الى الولايات ليتفقد حال رعيته وسيرة ولاته ، وليشرف على أمور دولته ، كما أوجد ديوان الجند لترتيب اعطيات المحاربين . وزاد معاوية وعبد الملك بن مروان في أقسام الجهاز الحكومي ، فأوجد الأول نظام البريد والعسس ، وعرّب الثاني الدواوين وسك نقوداً عربية . وتطورت أنظمة الحكم من بعدهما وخاصة في العصر العباسي حيث أوجدت الوزارة واستحدثت كثير من الدواوين الجديدة . ويمكن القول بأنّ نظام الحكم كان في عهد الخلفاء الراشدين نظاماً دستورياً أساسه الآية الكريمة « وشاورهم في الأمر » ، كالنظام الجمهوري الدستوري ، وانقلب إلى نظام ملكي في العهد الاموي وصارت تؤخذ البيعة لابن الخليفة قبل وفاة أبيه ، كما أدخلت فكرة حق الملوك الالهي المقدس التي يؤمن بها الفرس على الخلافة في العصر العباسي ، وسنلاحظ تطور نظام الحكم الاسلامي في كثير من الظواهر التي سنذكرها فيما يأتي من أبحاث في عهد الخلافه الاسلامية ، من نظام شوري إلى نظام ولاية العهد والبيعة

إلى تطوير الدواوين وتنظيمات الشرطة والقضاء وبيت المال ووسائل الدفاع وغيرها .

الشورى والبيعة : آمن المسلمون بالرسول (ﷺ) واتبعوا أوامره وانتهوا عن نواهيه ، واعتبروه مصدر جميع السلطات ، ولم يكن لهم الخيار في ذلك لأن الله قد اختاره هادياً وبشيراً ، وبعثه بالرسالة ، وأوحى اليه ، وقد قال تعالى : « والنجم إذا هوى ، ماضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى » (سورة النجم) .

ولما انتقل الرسول عليه السلام الى جوار ربه ، شده الناس لهذه الفاجعة المفاجئة واتجهوا في آرائهم وجهات مختلفة ، فبعضهم رأى أن الرسول الذي بلغهم أوامر الله ونواهيه قد فارقهم إلى ربه ، ولا يوجد انسان آخر من البشر يخلفه ويتصف بصفاته ، فأخذوا يفكرون في من يلي أمورهم من زعمائهم حتى لا يخضعوا لشخص آخر غريب عن قبائلهم أو بطونهم ، وتداعوا للاجتماع في سقيفة بني ساعدة للتشاور في أمر خلفه ، وقد افضى اجتماعهم إلى إنتخاب أبي بكر الصديق ، خلفاً للرسول ، وكان انتخابه بطريقة شورية ، إذ رشح الأنصار للأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وبعد نقاش طويل بين الأنصار والمهاجرين ، ومجيء أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، وإدلاء كل فريق بحججه بأنه هو الأحق بخلافة الرسول ﷺ ، وبعد خطبة أبي بكر في هذا الصدد ، تقدم عمر وبايع أبا بكر وتبعه أبوعبيدة ثم زعماء المجتمعين ، ودعيت بيعة أبي بكر هذه بالبيعة الخاصة ، إذا لم يبايعه سوى الحاضرون في السقيفة . ثم أقرت عامة مسلمي المدينة هذه البيعة في مجلس عام عقد بمسجد الرسول ﷺ في المدينة ، وعرفت بيعتهم بالبيعة العامة ، ووافق مسلمو الجزيرة بعد ذلك على هذه البيعة . ولما شعر أبو بكر

بدنو أجله أوصى لعمر من بعده ، بعد أن استعمل فكره في اختيار أليق شخص لهذا المنصب الجليل ، وبعد أن استشار أصحابه ووافقوا على ذلك. أما عمر فانتخب ستة من الصحابة فوّض لهم اختيار خلفه ، ووضع لهم نظاماً يتبعونه في المشاورة والاختيار ، وحدد لهم المدة الكافية لذلك ؛ وأمر بضرب عنق من يخالف رأي الجماعة والاغلبية . ولما قتل عثمان انتخب أهل المدينة علياً وبايعوه .. وإذا نظرنا إلى انتخاب هؤلاء الراشدين الأربعة رأينا أن انتخابهم كان شورياً ، فليسوا من قبيلة واحدة ، وكان المسلمون يوافقون على هذا الاختيار ، وكانوا لا يجبرون أحداً بالقوة على مبايعتهم ، وإذا كان بعض الناس يظن أن في انتخاب أبي بكر شيئاً من المفاجأة أو عدم الاجماع لأن عدد المجتمعين في سقيفة بني ساعدة كان قليلا ، فان ذلك ليس من الحقيقة في شيء ، لأن انتخابه كان فيه نقاش طويل ، وكان المجتمعون هم وجوه الصحابة من المهاجرين والانصار .

هذا ما كان من انتخاب خلفاء الرسول عن طريق شوري ، أما في العهد الذي تلا عهد الراشدين فلم تكن هناك شورى في اختيار أمراء المسلمين ؛ وهناك نوع آخر من الشورى ، ويقصد به المشاورة في الأمر « وشاورهم في الأمر » ، وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ نفسه كان يستشير أصحابه في كثير من المسائل ، كما أن خلفاءه كانوا يجمعون مجلساً من وجوه الصحابة لاستشارتهم في ما يعرض لهم من الأمور .

أما البيعة ، فيقصد بها مبايعة الخليفة على أنه رئيس للمسلمين ينظر في أمورهم الدنيوية ويتولى إدارة زمامهم ، وكانت بيعة أبي بكر أن تقدم منه الناس وجعلوا أيديهم في يده وصافحوه وبايعوه على أن يسير بهم على سنة رسول الله ﷺ ، وصارت مصافحة اليدين بعد ذلك عامة في المبايعة ، وبايع الناس عمر على أن يسير على سنة الرسول وأبي بكر ،

ويقال إنه عندما اتفق الستة الذين انتخبهم عمر للتشاور فيما بينهم لانتخاب خليفة ، كلفوا عبد الرحمن بن عوف أن يشاور في الامر ، ويختار من بينهم ؛ واحداً فلما كان بالمسجد ، وكان يفكر في أحد شخصين هما : عثمان وعلي ، قال لعلي : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ، قال علي : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، وسيرة الخليفتين من بعده ، ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قاله لعلي ، فقال عثمان نعم وكرر جملة عبد الرحمن ، وكان ذلك وحده كافياً لترجيحه على علي ومبايعته ، أي أنه فضل عثمان على علي لأن الأخير لم يرض أن يعد بالعمل بسنة الرسول ومن خلفه ، بل وعد بأن يعمل بحسب علمه ومقدرته..

وكانت البيعة تؤخذ في مسجد المدينة المنورة من وجوه أهلها ، ثم يرسل الخبر إلى الأمصار فيوافقون على ذلك ويبايعون ولاتهم باسم الخليفة. ولما اختلف الناس في عهد علي ومعاوية ، صاروا يبايعون من شاؤوا ، وبعد أن استقر الامر لمعاوية وأوجد فكرة ولاية العهد ، بايع الناس يزيداً في حياة معاوية ، ثم جددوا له البيعة بعد وفاته ، وهكذا أصبحت البيعة تعطى للخليفة قبل توليته ، ثم تجدد ثانية عند توليته منصبه ، وتطورت فيما بعد عندما صار الخليفة يختار وليين لعهده ، كما تطور شكل البيعة ، فنرى قادة بني أمية مثلاً لا يكتفون من أهل الحجاز بمبايعة الخليفة كما جرى في بقية الاقطار الاسلامية ، بل أصروا على أن يعترف كل منهم أثناء بيعته على أنه خول للخليفة يزيد ، كما صارت هناك نصوص خاصة تقال عند البيعة وخاصة في العصر العباسي ، وأصبحت في بدء القرن التاسع الهجري في عصر ابن خلدون كما يصفها هو تشبه : « تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض أو اليد أو الرجل أو الذيل .. واستغني بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل ، لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة وصون المنصب الملوكي ... »

الفصل الثاني

الخلافة الاسلامية

« الخليفة موظف سياسي قبل ان يكون موظفا دينيا ، وان الواجبات الدينية الملقاة على عاتقه ، لا تعطيه حقوقا دينية او روحية تجعله يمتاز عن غيره من المسلمين » .

« ارنولد »

الخلافـة : ما كاد مسلمو المدينة المنورة يستفيقون من الصدمة التي فاجأتهم بوفاة الرسول ﷺ حتى فكروا فيمن يخلفه ، واجتمع بعضهم - كما ذكرنا - في سقيفة بني ساعدة ، وبعد نقاش حاد ، التفت عمر إلى أبي بكر وقال : « ألم يأمر النبي ﷺ بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فانت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » (ابن هشام) ثم قال : « ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعه ، وبايعه المهاجرون والأنصار » .

وقد لقب أبو بكر بلقب «خليفة رسول الله» ، ومعنى ذلك أنه إذا انقطعت النبوة بموت الرسول ، فلقد خلفه أحد أتباعه في رئاسة أمور المسلمين الدنيوية ، فمنزلته من المسلمين من الناحية الدنيوية كمنزلة الرسول

منهم ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق تنفيذ شرائع الدين باقامة الحدود ومعاقبة المرتدين ، وهو يجمع بين السلطتين الدينية والروحية ...

معنى كلمة خلافة: الخلافة لغة مصدر خلف . يقال : خلفه خلافة ، كان خلفته وبقي بعده ، والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء وقد سمي من يخلف رسول الله ﷺ في اجراء الاحكام الشرعية خليفة .
أما الخلافة في الاصطلاح : فهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ، يقول ابن خلدون في ذلك : والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

القرآن والسنة ونظام الحكم : يحاول الفقهاء أن يلتمسوا للخلافة سنداً من القرآن والسنة ، ويدللون على صحة دعواهم بما نزل في القرآن الكريم من الآيات التي وردت فيها كلمة خلافة : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم .. » (س .النور) . « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم » (س . الانعام) « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين » (س . الاعراف)

نلاحظ من هذه الآيات ان الكلمة هنا ذات معنى عام وليست خاصة بشخص واحد له السلطة والزعامة . ولكن ورد في القرآن آيتان فيهما معنى فرديا لشخص مميز وهما : « ياداود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين

الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (س . ص) « وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » (س . البقرة) .

ويقول بعض الفقهاء معلقين انه عندما أعلن الله عن نيته في خلق آدم دعاه خليفة ، لان آدم كان خليفة الملائكة الذين اعتادوا أن يعيشوا على الارض قبل خلق الانسان . ويفسر بعضهم الآخر كلمة خليفة بمعنى وكيل ونائب وبديل وخلف بمعنى الذي يفوز بمنصب سام وهكذا فانهم يشرحون أن آدم وداود سميا باسم خليفة اذ كان كل منهما على الارض نائباً عن الله في هداية الناس وانذارهم بما أمر الله . وهذا التفسير يزيد في هيبة وسلطة الخليفة . انما الملاحظ ان كلمة خليفة في هاتين الآيتين لا يقصد منها معنى الحكم والنفوذ السياسي .

فالقرآن كما رأينا لم يشر الى نظام الحكم الذي يجب أن يتبعه المسلمون بعد النبي ﷺ ولكن آياته تحض على طاعة أولي الأمر : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

واذا ما لجأنا الى الحديث النبوي لمعرفة ما لم نعثر عليه في القرآن عن وضع المسلمين السياسي ، نجد بعض الاحاديث تذكر كلمتي الخلافة والامامة مثل ما روي عنه عليه السلام قوله : (الخلافة في قريش والحكم في الانصار والدعوة في الحبشة) . (الخلافة بعدي أربعون سنة ثم تصير ملكاً عضوضاً) . (الائمة من قريش) . (يا أيها الناس اتقوا الله وان أمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا) . الا أنها أحاديث يشك في صحتها بعض المؤرخين ، لان المسلمين لم يسمعوا بها الا بعد وفاة النبي ﷺ . ولو كانت معروفة او سمعها الناس لما اختلفوا فيما بينهم حين اختيار من يخلف النبي ﷺ .

ويعتقد بعض المؤرخين ان معظم الاحاديث التي تبحث في شؤون الحكم قد دست على النبي من قبل بعض الجماعات والفرق الدينية ذات النزعات السياسية لتأييد وجهة نظرها فيما يتعلق بالحكم . ونحن نعلم أن الخلافة كانت أول مسألة اشتد فيهـا الخلاف بين المسلمين ، وتشعبت آراؤهم ، وتكون حولها أهم الفرق الاسلامية كالخوارج والشيعة والمرجئة .

آراء الفرق الاسلامية والمؤرخين حول اختيار الخليفة :

لم ير المسلمون بدأ من إقامة خليفة للنبي بعد وفاته يقوم بنشر الدين ويدبر شؤون المسلمين ؛ وبما أنه لم يوص بالزعامة لاحد من أصحابه أو أهله الا ما روي عن لسانه فيما بعد أثناء بيعة أبي بكر ، فقد اتجهت كل فئة منهم تريد أن يكون الخليفة منها ، وبذلك قام النزاع واشتد الخلاف بينهم لخوفهم أن يحكم من يحل محل الرسول هواه وعشيرته في رقاب الناس ومصالحهم ، كما لا يبعد أن يعلي هذا المركز من شأن القبيلة التي ينتمي اليها الخليفة . وكانت أهم الآراء التي ظهرت حول اختيار الخليفة هي :

١ ـ راي المهاجرين : وحجتهم أنهم أول من آمن بالنبي ﷺ وصبروا على الاذى ولم يستوحشوا لقلة عددهم ، وهم قومه وعشيرته ، وهم من قريش ، والعرب لا تدين إلا لهم . ولو انتخب الخليفة من قبيلة أخرى لقامت القبائل ينافس بعضها بعضا وانتشرت الفتن الداخلية .

٢ ـ راي الانصار : وحجتهم أن النبي ﷺ لبث في قومه في مكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام فما آمن الا قليل ، ولا منعوا رسول الله من الاذى ، ولا أعزوا الدين ، فلما هاجر من مكة الى المدينة نصره الانصار وآمنوا به وأعزوا دينه ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ، وتوفي ﷺ وهو عنهم راض وبهم قرير عين فهم أولى الناس أن يخلفوه .

٣ - راي الشيعـة : وهم أنصار أهل البيت، لا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة، ويرون أن تكون الخلافة في بيت النبي (يشبههم البعض باصحاب النظرية الالهية) وأقرب الناس اليه عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه علي بن أبي طالب . ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الاسلام، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين . فأولى الناس من قرابة النبي علي . فهو أول الناس اسلاما، وزوج فاطمة بنت النبي، وجهاده وفضله وعلمه لاينكر .

ويقول الشهرستاني ان الامامية وهي احدى فرق الشيعة يعتقد أصحابها أن النبي عين علياً خلفاً له تصريحاًوتعريضاً.أماالتصريحافقوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله . . .» . أما تعريضاً فهي أن النبي ﷺ مثلا أمّر في كثير من البعوث أناساً على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة، ولكنه ما أمّر على علي أحداً قط .

٤ - راي الخوارج : وهو أن الخلافة يجب أن تكون باختيار عربي حر من المسلمين، واذا اختير مسلم، فلا يصح أن يتنازل او يحكم، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً . واذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين، ويجب ان يخضع خضوعاً تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله . وقد أدخلوا بعض التعديل على رأيهم فشرطوا الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية . لهذا دعاهم فان فلوتن بالجمهوريين لمبادئهم الديمقراطية المتطرفة . وقد خالفوا نظرية الشيعة القائلة بانحصار الخلافة في بيت النبي ونظرية أهل السنة القائلة بان الخلافة في في قريش . وهذا ما دعاهم الى الخروج على خلفاء بني أمية ثم على العباسيين لاعتقادهم أنهم جائرون غير عادلين، لم تنطبق عليهم شروط الخلافة في نظرهم.

٥ - راي المرجئة : وهم محايدون ، لا ضد الدولة ولا معها، نظرتهم واحدة نحو جميع الذين أدلوا بنظرياتهم في الخلافة . فكلهم مصدق بالله ورسله وكلهم مؤمن . فهم لا يكفرون أحداً من الذين تقاتلوا في سبيل الحكم كالامويين والشيعة والخوارج وغيرهم . وهم يرون مهادنة بني أمية صحيحة ، وأن خلفاءهم مؤمنون لا يصح الخروج عليهم وقالوا لسنا نستطيع أن نعين المصيب فلنترك امرهم جميعاً الى الله . من هذا نلاحظ ان موقفهم ازاء حكم الأمويين موقف تأيد ولكنه تأيد سلبي لا ايجابي .

٦ - راي المعتزلة : يقولون بحرية ارادة الانسان ، وان الامة تختار إمامها ، إذ ان القرآن لم ينص على الصفات التي يجب أن تتوفر في حاكم المسلمين . إلا أنهم لم يتفقوا فيما بينهم في اشتراط ان يكون الامام من قريش . وقالوا : ان حديث (الائمة من قريش) لم يكن متواتراً ، إذ لو تواتر لما ادعت الانصار مشاركة المهاجرين في الخلافة ، بل ان عمر بن الخطاب كان يجوّز إمامة المولى فقد قال : لو كان سالم (مولى حذيفة) حياً لوليته .

كما قالوا بصحة خلافة الراشدين . وقد اختلفوا في أيهم أفضل، إلا أن معظمهم يجعلون ترتيب الاربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة . اما في الحرب بين علي ومعاوية فانهم يؤيدون وجهة نظر علي . وبناء على ذلك تكون نظرتهم الى خلافة بني امية على انها غير صحيحة ، وكان موقفهم منهم موقف كراهية وان لم يثوروا ثورة الخوارج . ويجب ألا يغرب عن بالنا أنهم أيدوا بعض الخلفاء : من أمويين (يزيد بن عبد الملك) وعباسيين (المأمون والمعتصم والواثق) لما اعتنق هؤلاء مبادىء المعتزلة الدينية .

٧ - راي ابن خلدون : رأى في السياسة الدينية الخير للبشر . لأن هذه السياسة تؤدي إلى إسعاد المجتمع في جميع أحوالهم من عبادة أو معاملة

حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني ، أي أن الحكومة الدينية هي خير أنواع الحكومات . والخلافة في نظره وكالة عن النبي ، والخليفة يمثل النبي في السلطة السياسية والدينية ولا يمتاز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين . ولم ير بأساً من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أياً كانت جنسيتهم : « وليس الملك لكل عصبية ، وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة ، فمن قصرت به عصبيته عن بعضها فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته ... واشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية » .

ويرى ابن خلدون ضرورة وجود الخلافة في قريش بعد وفاة النبي للأسباب التي ذكرناها سابقاً كما يقول أيضاً : (ان قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم ، وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك) . فهو يرى أن اختيار الخليفة من قريش كان لأنها أكثر القبائل كفاية لها ، وليس للنسب وعراقة الأصل سبباً في هذا الاختيار . ويرى المؤرخ آرنولد انه روعي في اختيار الخلفاء الراشدين طريقة اختيار شيخ القبيلة ، مع مراعاة الحال والجاه والاحترام بسبب السن أو المكانة والنفوذ ، أوبالنسبة للعلم والتفقه ، أو ما أدى من خدمة المصلحة العامة . وهذا ما يؤيد رأي ابن خلدون .

نشاة الخلافة وتطورها في زمن الراشدين والامويين والعباسيين

الخلافة زمن الراشدين :

مات النبي ﷺ ولم يخلف ذكراً ولا أوصى بالخلافة لأحد (إذا استثنينا

رأي الشيعة في ذلك ، فاختلف المسلمون عند موته من مهاجرين وأنصار وغيرهم فيمن يخلفه كما مر معنا . وكان الأنصار أول من فكر في ضرورة الاسراع لانتخاب خلف للرسول كي لا تدب الفوضى وتتشعب الآراء إذا ظل المسلمون بدون رئيس . لهذا تداعوا للاجتماع في سقيفة بني ساعدة ليتشاوروا في الأمر ويختاروا من بينهم خليفة . فاتفقت كلمتهم على ترشيح سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج . فسمع بذلك المهاجرون فعجل إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . وقام بين الطرفين نقاش طويل وأدلى كل فريق منهم بالحجة على أن هذا الأمر له دون غيره . وقال أحد الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » ، فرد عليه عمر مبيناً أن هذا الأمر لقريش وقال : « هيهات أن يجتمع اثنان في قرن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ... »

وقد انحازت الأوس إلى صف المهاجرين إذ كرهت أن يكون للخزرج السلطان.

وخاف عمر من انقسام المسلمين وأراد أن ينهي الأمر في ذلك الاجتماع فبادر إلى أبي بكر وبايعه وقال له : « ألم يأمر النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . ثم تبعه أبو عبيدة وباقي الناس . وتعرف هذه البيعة بالبيعة الخاصة . ثم أقر عامة مسلمي المدينة في اليوم التالي هذه البيعة في مسجد الرسول ﷺ وعرفت بيعتهم بالبيعة العامة .

والأسباب التي سهلت انتخاب أبي بكر دون سائر المهاجرين من بيت النبي وغيرهم هي :

١ – تكليف النبي له أثناء مرضه أن يؤم المسلمين في الصلاة .

٢ – كي لا تجمع النبوة والخلافة في بني هاشم، وكان هؤلاء قد اعتبروا بأن النبي منهم. وقد روي عن الحسن بن علي لما تنازل عن الخلافة لمعاوية قوله: «أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا».

٣ – السبق في الاسلام.

٤ – كان رفيق النبي الوحيد في هجرته إلى المدينة وساعده الأيمن، ونزول الآية الكريمة مشيرة إليه «الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار».

انتخاب عمر: لما مرض أبو بكر واحس بدنو أجله خشي أن ينقسم المسلمون على أنفسهم من أجل الخلافة، كما كاد أن يحصل من قبل. فرأى ببعد نظره أن يحتاط لذلك بتعيين خلف له. ولكنه رغب أن لاينفرد برأيه، فاستدعى إليه أصحاب الرأي في الأمة كعبد الرحمن بن عوف وعثمان وأسيد بن حضير وسعيد بن زيد وغيرهم من المهاجرين والأنصار فأثنوا كلهم على عمر وبذلك عينه أبو بكر خلفاً له.[1]

انتخاب عثمان: ألحّ بعض الصحابة على عمر لما طعن وأشرف على الموت أن يعين خلفاً له. وبعد نقاش بينه وبينهم عين سبعة أشخاص هم: علي وعثمان وسعد وابن عوف والزبير وطلحة بن عبيد الله وابنه عبد الله ابن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء. وأوصى أن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار. وقد اجمعت الآراء على تعيين عثمان أو علي. فانتخب آخر الامر عثمان.

(١) راجع: انور الرفاعي: الانسان العربي والتاريخ ص ١٦٧ وما بعدها عن كيفية اختيار الخلفاء الراشدين ومبايعتهم.

انتخاب علي : قامت فتنة أدت إلى قتل عثمان وانتخب علي بعده، إلا أن انتخابه لم يكن عاماً، إذ امتنع عن ذلك بنو أمية وطلحة والزبير والمغيرة وغيرهم . وازداد عدد المستائين منه لما عزل ولاة عثمان ومنهم معاوية، ونقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة مما حذا بالاستاذ نيكلسون إلى القول بانه كان ينقصه حزم الحاكم ودهاؤه وتعوزه الحنكة السياسية .

انتخاب الخلفاء الراشدين : جاء في القرآن الكريم قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ، ويمكننا مع بعض التحفظ ان نقول أن في انتخاب الخلفاء الراشدين الأربعة فكرة الشورى إذ بيعتهم تبعد عن النظام الوراثي . إذ حصل في انتخابهم جميعاً ترشيح ومشاورة وقبول أكثر الزعماء المسلمين ثم موافقة سائر الأمة . فلم يكن هناك اكراه أو ضغط أو استعمال للسلاح في تعينهم ، إنما جرى الانتخاب باتفاق وتأييد الأكثرية . وإذا وجد معارضون ومخالفون ومستنكفون فهو أمر طبيعي إذ نلاحظ في عصرنا هذا مثل ذلك أو أشد منه لما يجري انتخاب رؤساء الجمهوريات . وتذكر المصادر انتخابات تمت بأكثرية ضئيلة جداً .. ورب معترض يقول إن هذه الأكثرية لم تحصل في بعض الأحيان كما جرى لعلي بن أبي طالب إذ لم يبايعه سوى أهل المدينة ولم يؤخذ في انتخابه رأي غيرهم من المسلمين . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته مبني على رأي أهل المدينة .

الخلافة زمن الأمويين : لما انتقلت السلطة الى الأمويين أصبحت الخلافة ملكاً استبدادياً آل إلى أصحابه بقوة السيف والسياسة والمكايد . وبذلك تبدل نظام الخلافة ، فبعد ان كان يعتمد على الشورى ويستند إلى (الدين) أصبح يقوم على أساس التوريث ،ويستند إلى السياسة أولاً والدين ثانية . وادخلت كل مظاهر الابهة التي تمتع بها الملوك والقياصرة .

إلا أنه ينبغي الا يغرب عن أذهاننا أثر البيئة في تطور شكل الحكم. كانت المدينة حاضرة الدولة العربية زمن الراشدين وسكانها من العرب وكانت الخلافة تتلاءم مع العادات والتقاليد العربية، ولكن عندما اصبحت دمشق عاصمة الدولة واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة المتأثرين بالنظم والعادات البيزنطية والفارسية، كان على الأمويين أن ينسجموا والبيئة الجديدة، فتبدل نظام الخلافة وأصبح أشبه شيء بالنظام الملكي أو القيصري. ومن ثم زادت السلطة الزمنية للخليفة. على أن الطبيعة العربية والنفوذ العربي ظلا سائدين. وقد قال سيد أمير علي في ذلك: «كانت الحكومة في العهد الأموي حكومة مطلقة مشبعة بحرية القول التي فطر عليها عرب الصحراء والعلماء ورجال الدين، تلك الحرية التي مكنتهم من تغيير نزعة الخليفة معتمدين في ذلك على آية من القرآن أو بيت من الشعر».

الخلافة زمن العباسيين: حذا العباسيون حذو الامويين في التوريث. وبما أن دولتهم قامت على اكتاف الفرس تأثرت الخلافة بنظم الحكم لدى ملوك الفرس الذين كانوا موضع قداسة الشعب. والذين كانوا يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله، لذلك ازدادت الصفة الروحية في الخليفة لاعتقاد الفرس بنظرية الحق الملكي المقدس وغدا البلاط العباسي اشبه شيء ببلاط الاكاسرة، فصار الخليفة شخصاً مقدساً واصبح ظل الله في الارض كما يبدو ذلك في قول المنصور «إنما انا سلطان الله في أرضه». وهذا يخالف تماماً حال الخلافة في العهود الماضية، ويتجلى ذلك في قول أبي بكر «ان احسنت فشجعوني وان اسأت فقوموني بحد سيوفكم» وقول عمر ابن عبد العزيز «لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً».

سلطة الخليفة ومقارنتها بنظم الحكم الاخرى التي عرفت في القرون الوسطى :

تشمل سلطة الخليفة جميع النواحي المدنية والدينية والحربية ؛ إذ له على الأمة الولاية التامة والطاعة التامة وله حق القيام على دينهم فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه . وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهم أيضاً . بيده وحده زمام الأمة فكل ولاية مستمدة منه وكل خطة دينية أو دنيوية متفرقة عن منصبه فهو الحاكم الزمني والحاكم الديني .

وجمع كل هذه السلطات بيد الخليفة كان سبباً رئيسياً في قوة العرب وازدياد نفوذهم واتساع سلطانهم كما قال غوستاف لوبون : « وقد كانت تلك النظم السياسية سبب عظمة العرب ... ولا شيء أصوب من جمع « محمد » لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت العرب مجزأة ، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور « محمد » .

انما يجب أن لا يغرب عن بالنا ان الخليفة مهما اتسعت سلطته لا يستطيع مخالفة القانون الذي يتألف من القرآن والسنة . مع العلم ان سلطة الخليفة واسلوب الحكم وتطبيق الشرع يختلف زمن الراشدين عنه زمن الامويين والعباسيين . ففي زمن الراشدين كان الخليفة يستعين في تصريف مهام الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف عادة من الصحابة الاولين يجتمعون في مسجد النبي يساعدهم جمع من الأشراف والرؤساء .

أما بعد ذلك فالخليفة كان الحاكم المطلق يستشير ان اراد أو ينفرد بحكمه كما كان يفعل في غالب الأحيان . إلا أن اعتماد الخلفاء على العناصر الأجنبية زمن العباسيين أضعف من سلطتهم وجعلهم آلة بيد الأتراك والسلاجقة والبويهيين وغيرهم حتى قال أبو الريحان البيروني (٤٤٠ هـ) « أنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء اللهم الا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته » .

وكان العثمانيون حريصين جداً على ابراز هذه السلطة الدينية حتى على غير رعاياهم . ففي معاهدة كوتشوك قينارجي بين العثمانيين والروس سنة ١٧٧٤م انتهز العثمانيون فرصة مطالبة الروس بحماية مسيحيي الارثوذكس في في الدولة ليطالبوا بحق مماثل للسلطان العثماني على مسلمي الامبراطورية الروسية . كما أن السلطان عبد الحميد الثاني جعل السلطة الدينية رسمية وقد نص عليها في الدستور الذي أصدره سنة ١٨٧٦م .

وإذا نحن قارنا الخلافة بغيرها من نظم الحكم عند الامم الاخرى في القرون الوسطى ،كما فعل توماس ارنولد، نجد في الغرب حاكمين أحدهما زمني وهو الامبراطور والآخر روحي وهو البابا . أما في الشرق فالخليفة يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية .

فالامبراطورية الغربية لم تكن مستحدثة الوجود بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة حتى أن شارلمان تلقب بالقاب الاباطرة الوثنيين . أما الخلافة فإنها لم تقم على نظام سياسي سابق بل هي نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي نشأت على أثر ظهور الاسلام .

والخلافة تختلف عن البابوية وقد وقع بعض الكتاب والمؤرخين في خطأ تشبيه سلطتها أمثال : ماركو بولو عندما كتب عن بغداد بأنها مدينة عظيمة اعتادت أن تكون كرسي خليفة كل المسلمين في العالم كما هي في روما كرسي البابا لجميع المسيحيين . وياقوت الحموي (١٢٢٩) م الذي قال عن روما أنها المدينة التي يسكن فيها البابا الذي يطيعه الفرنجة وهو لهم بمنزلة الامام متى خالفه أحد منهم كان عاصياً عندهم ومخطئاً يستحق النفي والطرد والقتل ، وابن الجوزي (١٢٥٧) م الذي يدعو البابا خليفة الفرنجة .

فالبابا هو قسيس أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وأن يغير ويلغي القوانين التي وضعها أسلافه . أما الخليفة فلا يستطيع أن يشرع مبدأ دينياً جديداً ولا يعفو عن الخطايا ولا يمارس وظيفة كهنوتية ما . فسلطة الخليفة اذن دينية ولكن ليست روحية ، أي أنه يستطيع باعتباره حامي الدين ان يعلن الحرب ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة .

وبقيت الخلافة قائمة بالرغم من كثير الظروف التي لابستها سواء بشكلها العائلي الملكي في العهد الأموي ،أو بشكلها المقدس في العصر العباسي أو بانقسامها عندما وجد أكثر من خليفة واحد في العالم الاسلامي ، أو بضعفها وانقراضها ثم إحيائها كما حدث عقب غارات التتر على بغداد ، وإعادتها في عهد المماليك في مصر ، وانتقالها إلى غير العرب وهم الأتراك العثمانيون ، حتى كانت الحرب العالمية الاولى ، وانهزام تركيا ، وقيام مصطفى كمال باشا ، وإلغاؤه الخلافة رسمياً في آذار سنة ١٩٢٤م .

وإذا كان الخلفاء الراشدون أشبه برؤساء الجمهورية من حيث طريقة انتخابهم الشورية ، فان سلطتهم كانت تتعدى سلطة رؤساء الجمهورية بمعناها الحديث ، إذ كانوا خلفاء النبي يجمعون كلتى السلطتين الدينية والمدنية ، وبيدهم جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والادارية ، يعينون مساعديهم والموظفين ، ولهم الحق في قبول رأي مجلس الشورى أو عدم التقيد به ، أما الامويون فقد حولوا الخلافة إلى ملكية وراثية ، وبالرغم من سيرهم على سياسة معينة وهي اعتمادهم على العنصر العربي وعلى الاحتفاظ بعرشهم بجميع الوسائل ، واستخدام بيت المال والوظائف الادارية ، والقتل والتهديد والحروب والضرب على كل من تحدثه نفسه في منازعتهم السلطات ، فإنهم

قد تركوا لبعض ولاتهم صلاحيات واسعة في إدارة ولاياتهم ، كما فعل معاوية إذ أعطى ولاية مصر لعمرو بن العاص ، وهبه خراجها طيلة حياته ، كما أعطي زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج سلطات واسعة أيضاً ، وما انتقلت الخلافة إلى العصر العباسي حتى أصبح الخليفة يحكم بحق مقدس ، وعاد إلى جمع السلطات كلها بيده ، وانتقم لذلك العباسيون الأوائل من كل من أوجسوا منه خيفة كأبي سلمة الخلال ، وأبي مسلم الخراساني ، والبرامكة ولما ضعف أمر الخلفاء العباسيين في الدور العباسي الثاني والأخير ، واستقلت كثير من الدويلات بادارة شؤونها ، بقي امراء هذه الدويلات يعترفون بسلطان الخليفة الديني ، ويرسلون إليه الهدايا والأموال مقابل اعتراف الخليفة الشرعي لهم بامارة ما استحوذوا عليه ، ونجد أن أن بعض المتنفذين وخاصة أمراء الأمراء ، والسلاجقة والبويهيين والأتراك من قبلهم ، قد كانوا يضغطون على كثير من الخلفاء ، بل يسومونهم سوء العذاب ، بسمل أعينهم أو تقطيع ألسنتهم ، أو وضعهم في قيظ الشمس دون طعام أو شراب حتى يموتون ، دون أن يجسروا على الغاء الخلافة أو تحويلها اليهم وهم من غير العرب، مما يدلنا على تطور سلطة الخليفة وكيف أصبحت دينية بحتة وليست سياسية ، أي أن الخليفة أصبح يتولى هذا المنصب ، ولا يشرف أبداً على أمور الدولة السياسية وإنما يوافق على تعيين أكبر رجال الدولة ، ويرسل الخلع وشارات الأمارة ، كما أن قيام الخلافة الفاطمية بمصر وجنوبي الشام ، والخلافة الأموية بالاندلس إلى جانب خلافة بغداد ، وكل خلافة تدعي أنها الشرعية في العالم الاسلامي ، وما عداها متعد عليها ؛ يدلنا على ذلك كثير من الوثائق التي تبودلت بين الخلافتين العباسية والفاطمية في ادعاء أحقيته بالخلافة، وكل يدعي نسبه برسول الله ، وإنه يجب أن يرث ولاية المسلمين وخلافتهم

كما يدلنا على ذلك الحروب التي نشأت بين الفاطميين والأمويين ، في الأندلس مثلاً ، أو محاولات العباسيين للقضاء على خلافة الأندلس الأموية واتفاقهم ، مع شارلمان أو غيره من ملوك الفرنجة في سبيل محاربة الخلافة الأموية في الأندلس .

أما في العصر العثماني ، فلقد فضل السلاطين أن يتلقبوا بلقب « خادم الحرمين الشريفين » لما في ذلك من شرف لهم وبأنهم يمثلون الزعامة الدينية في البلاد الاسلامية إلى جانب الزعامة العسكرية التي أخذوها بقوة الفتح؛ ولقد أخذوا لقب الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين الذي كان يقيم في القاهرة، في العصر المملوكي ، وليس له إلا وظيفة الرئيس الديني ، الذي يتوج أو يوافق على مركز السلاطين المماليك ، هذا وإن اختلفت الآراء في أنه هل كان السلطان سليم الأول الذي فتح سوريا ومصر هو أول من تلقب بلقب خليفة المسلمين أو أن ابنه السلطان سليمان هو أول من تلقب بهذا اللقب ، فإنه مما لا شك فيه أن سلاطين آل عثمان وقد كانوا أقوياء ، كانوا يجمعون جميع السلطات العليا بأيديهم ، وكانت إرادتهم هي القانون النافذ في جميع البلاد التي تخضع لهم ، ولما ضعف أمرهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أخذوا يستغلون كلمة (خليفة المسلمين) في غاياتهم السياسية ليظهروا امام الدول الأوروبية بأنهم زعماء البلاد الاسلامية لا التي تخضع لهم فحسب ، بل الخاضعة لغيرهم من الأمم المستقلة ،وأخص من استفاد من هذا اللقب هو السلطان عبد الحميد ، الذي دعا إلى جامعة إسلامية ليكسب عطف الشعوب الاسلامية في الهند واندونوسيا والبلقان وليظهر أمام أوربا بمظهر القوي ، وبعد سقوط عبد الحميد ، حددت سلطة الخليفة أو السلطان العثماني بالوظيفة الدينية وسلب كل سلطة سياسية ، حتى كانت جمهورية مصطفى كمال والغاء الخلافة رسمياً ، ولا يزال بعض المسلمين

يفكرون بضرورة إحياء الخلافة ، كمركز ديني لا سياسي ، ولكن لم يزل الخلاف حول من يتولى هذا المنصب الجليل .

ألقاب الخليفة : لقب أبو بكر بخليفة رسول الله ، ولما ولي عمر ، ارادوا تلقيبه بخليفة خليفة رسول الله ، فاستثقل ذلك على اللفظ ، ولقبوه بأمير المؤمنين بمعنى أنه أمير ، أي قائد المؤمنين ويجمع السلطتين الحربية والاداوية ، ثم أطلق عليه وعلى من أتى خلفه لقب خليفة فقط ، وأراد بعضهم أن يطلق عليه اسم الامام ، وخاصة الشيعة ، بمعنى إمامة المسلمين في الصلاة والأمور الدينية ، وفرقوا بين الامام والخليفة ، وكان للشيعة أئمة خاصون مع وجود الخلافتين الأموية والعباسية ، حتى إذا استطاعوا تأسيس الدولة الفاطمية ، جمع خليفتهم اللقبين في شخصه .

وقد اتخذ الخلفاء المسلمون القاباً بجانب اسمائهم ، ولم يهتم بذلك الامويون بقدر العباسيين ، ويروي القلقشندي نقلاً عن ابن حزم ان لقب معاوية الناصر لحق الله ، ولقب مروان بن محمد القائم بحق الله ، وتذكر مصادر اخرى ان لقب عمر بن عبد العزيز المهدي كما لقب الناس الخليفة هشاماً بالأحول ، ومروان بن محمد بالجعدي والحمار ، ويزيد الثالث الاموي الناقص . . .

ولما قامت دولة بني العباس ، وارادت ان تحكم على اساس ديني ، وتبنت فكرة « الحق الالهي المقدس » عمل خلفاؤها على تثبيت هذه الفكرة بالقاب غلب على اسمائهم ، واول خليفة عباسي هو ابو العباس الذي لقب بالسفاح ، ويظهر انه كان يقصد به الكرم والسخاء ، لا التقتيل والمجازر او كلا المعنيين معاً ، وقد استعمله ابو العباس في خطبته لاهل الكوفة فقال : « انا السفاح المبيح » وذلك في صدد وعدهم بالعطاء الكثير والسخاء

الوفير ، ولم يكن في معرض توعدهم بالقتل والتشريد وان كانت سيرته فيما بعد اثبتت انـه لسفاح بمعنى قاتل او جزار.

واتخذ الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر لقب المنصور بعد قضائـه على الثورتين العلويتين في عهده : ثورة الحجاز بقيادة محمد النفس الزكية (المهدي العلوي)وثورة البصرة بقيادة ابراهيم بن عبد الله المحض.

ويرى فان فلوتن ان القصد من اتخاذ هذا اللقب يعني انه « الشخص الذي اعانه الله تعالى على احراز النصر ».

واتخذ الخليفة الثالث محمد بن عبد الله لقب المهدي وقدلقبه اخوه المنصور بهذا اللقب وذلك لاعلاء شأنه في نظر الرعية . . وهكذا تعاقبت الالقاب مثل: الهادي والرشيد وكلها القاب تضفي على الخلفاء العباسيين الاوائل معنى القوة والسلطة الآلهية .. بينما تحولت الالقاب مع ضعف الخلفاء الى : المتوكل على الله ، والمعتصم بالله والمستنصر بالله والمستعين بالله وغيرها ممن يعتمدون على نصر الله وتأييده.

وفي العهود الاخرى في محاولات انقاذ العالم الاسلامي من الخطر الذي يتهدده عادت الالقاب الى صيغة جديدة .. الناصر لدين الله أو (خادم) او (حامي) الحرمين الشريفين .

الشورى : اعتمد الخلفاء الراشدون على الشورى في البت في الامور الهامة وحل المشاكل العامة ، وكانت الشورى على نوعين : جماعة من كبار الصحابة يعتمدهم الخليفة ويستشيرهم فيما يعرض له من أمر ، قبل البت فيه ، وعامة اهل المدينة وزعماء الوافدين اليها ، كما فعل عمر ، حين كان يأمر المنادي ان ينادي « الصلاة جامعة » وبعد الصـــلاة يخطب عمر بالمصلين ويعرض عليهم الموضوع الذي يريد ان يعرف فيـه رأي سواد الناس ، ومما روي عن عمر انه خطب مرة وقال : « اني لم ازعجكم الا لان تشتركوا معي

فيما حملت من اموركم ، فاني واحد كأحدكم ، وانتم اليوم تقرون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر اريده . ما اريد به الا الحق » .

وبما يروى انه بهذه الطريقة فصل في عدة مسائل خطيرة ، كان ذلك ، حين اثيرت مسألة قسمة اراضي الشام بالعراق بين الجند المحاربين ، وممانع عمر ، فقد استغرق الجدل فيها عدة ايام ، وحين عزم عمر بعد نهاوند قيادة الجيش بنفسه فعارضه عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر في مجالسه هذه في المسجد قد حلّ قضايا رواتب المجاهدين وانشاء الوظائف والدواوين وتعيين العمال وبعض قادة الجيوش .. ويروى ان عمر قال : لا خلافة بدون شورى . ومع تطور الدول الاسلامية نظم امر الشورى واصبح ركناً جوهرياً يرتكز عليه نظام الحكم .

شروط الخلافة وصفات الخليفة : لقد أورد بعض المؤرخين كالماوردي والبيروني وابن خلدون ضرورة توفر صفات في الخليفة والا فالمسلمون في حل من الخضوع له . لذلك نجد أنه في العهد العثماني استفاد البعض من أفراد الاسرة المالكة والسياسيين من ضعف بعض الخلفاء فاستصدروا فتوى من شيخ الاسلام بخلعهم وإقامة غيرهم .

وهذه الصفات هي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي .

١ - **العلم :** أي أن يكون عالماً بشئون الدين والاحكام الشرعية . ويقول ابن خلدون « ولا يكفي من العلم الا أن يكون مجتهداً ، لان التقليد نقص ، والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف والاحوال » .

٢ - **العدالة** : أي أن يكون مستقيما متجنبا للمعاصي معروفاً بحسن السيرة والاخلاق الحمدة بين الناس .

٣ - **الكفاية** : أي قادراً على حماية الحدود بصيراً بالحروب ، كفيلاً بحمل الناس عليها قويا على معاناة السياسة ، كفيئاً على حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وتدبير المصالح .

٤ - **سلامة الحواس والاعضاء** : أي أن يكون سليما من الجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فقده من الاعضاء على العمل كفقد اليدين والرجلين .

٥ - **النسب القرشي** : وقد أجمع عليه الصحابة يوم السقيفة معتمدين لحديث « الائمة من قريش » . ولكن بعد تسلط الاعاجم على الخلفاء شك كثير من المحققين والفقهاء في هذا الشرط حتى ذهبوا الى نفيه . وعولوا في ذلك على أحاديث أخرى كالتي تقول : « اسمعوا وأطيعوا وان ولي عليكم عبد حبشي »

ولابن خلدون رأي خاص هو أن يكون الخليفة من أصحاب العصبية أيا كانت جنسيته . وبما أن الغلبة والنفوذ كانتا لقريش بعد وفاة النبي ﷺ فمن الضروري أن تكون الخلافة فيهم وقتئذ .

ولاية العهد : يقول ابن خلدون : « بما أن الخليفة هو الناظر في مصالح الامة الدينية والدنيوية وهو وليها والامين عليها وقد منحته ثقتها فانه من متممات مهمته أن يؤمن مصلحة المسلمين بعد وفاته ، وأن يعين لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها . » وقد جرى ذلك في عهد الراشدين بشكل شوري فقد عهد أبو بكر لعمر من بعده بمحضر من الصحابة الذين أجازوه وأوجبوا على أنفسهم طاعة عمر . وكذلك عهد عمر الى سبعة أشخاص أمر اختيار خليفة من بينهم ، على أن يستثنى ابنه عبد الله فينتخب ولا ينتخب . فتركزت

الآراء على عثمان وعلي . فحكم عثمان وبعد مقتله تولى الخلافة علي . وهذه الطريقة أيدها كثير من المؤرخين والناقدين لانها تجمــــع بين الجمهورية والملكية المطلقة والشورى . فهي جمهورية لان الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورية لان الانتخاب كان بالشورى؛ وهي ملكية مطلقة لان الخليفة كان مطلق التصرف.

ثم لما آلت الخلافة الى الامويين والعباسيين وأصبحت إرثيــة كان الخلفاء يبايعون لاولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوي قرابتهم .وقد أيد ابن خلدون ذلك التغيير الذي جرى في تعيين ولي العهد بين عهد الراشدين والعهد الاموي والعباسي إذ يقول : ان بعض الخلفاء كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية ، والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ؛ ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك فشأنهم غير شأن اولئك ... لان العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك ، والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطاني ... ».

وكان الخلفاء إذا رأوا غير واحد من أولادهم أو اخوتهم اهلاً للخلافة بايعوا لاحدهم ،وشرطوا أن يخلفه فلان ،أو فلان كما فعل يزيد بن عبد الملك لما بايع أخاه هشاماً على أن يخلفه ابنه الوليد الذي كان صغير السن . كما كان الخلفاء يعرضون عزمهم في تعيـــين خلفهم على أهل الرأي كما فعل المنصور لما أراد البيعة لابنه المهدي وكان جعفر يعترض عليه في ذلك فأمر المنصور باحضار الناس ، وقام الخطبـاء فتكلـموا ، وقامت الشعراء فاكثرت في وصف المهدي فرجحت بذلك كفته .

والعهد كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ، ويختمه بخاتمه وخواتم

اهل بيته ويحفظ في مكان أمين في خزانة او مسجد او في الكعبة كما فعل الرشيد . كما انه يدعى لولي العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة .

البيعة : البيعة هي العهد على الطاعة فاذا بايع الرجل اميراً كأنه عاهده وسلم اليه النظر في امر نفسه لايخالفه في شيء؛ وكان العرب اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري . وصارت البيعة مصافحة الايدي وهو مدلولها بعرف اللغة .

واقدم بيعة في الاسلام بيعة الانصار للنبي ﷺ بالعقبة قالوا : « يارسول الله انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا . فاذا وصلت فانك في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا » .

ولما يبايع الخليفة يأتون له بموكب الخلافة ، وهي افراس مسرجة ، ولكل دابة سائس ، بالالبسة الفاخرة، فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة ويمشي بين يديه رجل يحمل حربة . ويصف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينهما الى دار الحكومة . ثم يرد عليه وفود المهنئين وكانت العادة أن يبدأ كبار الدولة بالمبايعة ثم من يليهم من أصحاب المناصب . وفي الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة قادة الجيش وقضاة بغداد في كثير من المرات .

وكان العرب يميلون في المبايعة الى الاختصار، وكانت البيعة تتلى شفاهاً ثم صارت تكتب وتحفظ . وكانت تتألف من كلمات فصارت صفحات كثيرة بما ادخل فيها من الحشو والاطناب .

علامات الخلافة : وهي ثلاثة أشياء : البردة والخاتم والقضيب تتوارثها الخلفاء عن الرسول عليه السلام . وكان الخليفة الجديد يستلمها من القديم ويورثها لمن بعده .

١ - **البردة :** هي بردة النبي ﷺ التي خلعها على الشاعر كعب بن

زهير لما رجع إلى النبي تائباً مستغفراً ومدحه بقصيدته المشهورة « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » وظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها معاوية اثناء خلافته باربعين الف درهم وتوارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون[1].

٢ – **الخاتم** : اتخذه الخلفاء تشبهاً بالنبي ، وقد استعمل النبي الخاتم لما كتب إلى قيصر و كسرى يدعوهما إلى الاسلام . وخاتمه من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » كل كلمة بسطر . وانتقل هذا الخاتم إلى ابي بكر ثم إلى عمر وعثمان . ويقول البخاري أنه سقط من يد عثمان في بئر ولم يعثر عليه ، فاغتم عثمان وتطير من ذلك وصنع آخر على مثاله .

وكان كل من ولي الخلافة بعده يصنع له خاتماً . ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم اسماءهم بل عبارات فيها مواعظ وحكم مثل « على الله توكلت » و « اعتمادي على الله وهو حسبي » الخ ...

ولما نشأت السلطنات ، جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة وسموها الطغراء ، وهي نقشة فيها ألقاب الملك وسميت كذلك نسبة إلى الحسين ابي اسماعيل الطغرائي وزير السلطان مسعود السلجوقي وكان خطه جميلا ويقال أنه أول من كتبها .

٣ – **القضيب** : هو ثالث علامات الخلافة . لم يشرح المؤرخون المقصود منه لعله قضيب النبي ﷺ توارثه الخلفاء أو قلدوه في حمله .

شارات الخلافة : وهو أيضاً : الخطبة والسكة والطراز .

١ – **الخطبة** : ويقصد بها الدعاء للخليفة على المنابر في جميع مساجد البلاد التابعة له . ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين أو الامراء يشاركون الخلفاء فيذكرون اسماءهم بعدهم . وكان أحياناً يستقلون في الدعاء لأنفسهم .

---

(١) يروي العباسيون قصة طويلة عن وصول البردة والخاتم والقضيب اليهم من الامويين ، لم تؤكد هذه الرواية من جمهرة المؤرخين .

٢ ـ **السكة** : وهي أن يضرب اسم الخليفة على النقود المتعامل بها بين الناس ، وكان العرب قبل الاسلام يتعاملون بالنقود الفارسية والرومية وغيرها من يمانية ونبطية وتدمرية الخ .. ثم لما جاء الاسلام ضرب الخلفاء والامراء النقود مشتركة بينهم وبين الروم والفرس . كما فعل خالد وعمر ومعاوية وعبد الله بن الزبير . ولما آلت الخلافة الى عبد الملك اراد تغيير الطراز الذي يستورد من بلاد الروم فهدده ملكها بان ينقش على دنانيره شتم النبي . فعظم هذا الأمر على عبد الملك فأمر بضرب النقود وهدد بالقتل من يتعامل بغيرها . وكانت الآلة التي تستعمل لضرب النقود تسمى السكة .

٢ ـ **الطراز** : وهو قديم في الدول في عصر الروم والفرس . وذلك ان يرسم الملوك اسماءهم او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة للباسهم ، وكان ملوك العجم يجعلون ذلك الطراز بصورة الملوك واشكالهم او أشكال وصور معينة . وقد اعتاض الخلفاء عن ذلك بكتابة أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو الدعاء . وكان هناك طراز خاص وأشكال معينة لثياب الخليفة ولموظفي البلاط والأمراء والقواد . .

تعدد الخلافة ـ ضعفها وزوالها :.بقيت الخلافة محتفظة بسلطتها وقوتها في عهد الراشدين والامويين وأول عهد العباسيين . ثم بدأ ضعف الخلفاء لتسلط الاعاجم عليهم من ترك وسلاجقة وبويهيين وغيرهم يسومونهم سوء العذاب من خلع وقتل وتمثيل . واقتصرت سلطة الخليفة في عهود الضعف على الامور الدينية فقط .

كما أن العالم الاسلامي قد تجزأ وزالت وحدته . فالاندلس استقلت وتأسست خلافة أموية فيها . وكذلك نشأت خلافة فاطمية في المغرب ومصر . هذا الى جانب الخلافة العباسية في بغداد . وبذا اصبح هنالك ثلاثة خلفاء في وقت واحد .

يضاف الى ذلك انه في منتصف القرن الرابع الهجري اتخذ حاكم سجلماسة لقب أمير المؤمنين . كما ان عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في بلاد المغرب اتخذ لقب خليفة وامير المؤمنين . واخيراً لما سقطت الدولة العباسية ٦٥٦ هـ استقدم الظاهر بيبرس أحد افراد الاسرة العباسية الذين نجوا من المغول وهو الامام احمد بن الخليفة الظاهر . وعقد بيبرس مجلساً من كبار رجال الدولة وبايعوه بالخلافة ولقبوه « المستنصر بالله » وذلك ليقوي بيبرس مركزه في العالم الاسلامي ضد منافسيه .

وجملة القول انه بزوال الخلافة العباسية في بغداد ، اختل نظام الخلافة واصبح في مقدرة كل امير قوي ان يتخذ لنفسه لقب خليفة ، كما حصل في فارس وما وراء النهر ومصر وتونس ومراكش . وبهذا التعدد في نظام الخلافة اصبحت كلمة خليفة لاتدل على الرجل الروحي المتسلط على العالم الاسلامي ، وانما اصبحت تدل على مجرد حاكم .

ثم لما فتح السلطان سليم الشام ومصر (١٥١٧ م) استولى على الخلافة كما يذكر بعض الكتاب من المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس الذي تنازل له عنها . الا ان معظم المؤرخين يميلون الى الشك بصحة هذا الخبر لاسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن . وبعد ان اعلنت الجمهورية برئاسة مصطفى كمال فصلت السلطة السياسية عن الدينية ثم الغيت الخلافة رسمياً سنة ١٩٢٤ م .

الفصل الثالث

الوزارة

تعريف الوزارة : يقول الماوردي في « ادب الوزير » الوزارة اسمها مشتق من معناها ، واختلف فيه على ثلاثة أوجه :

١ ـ من الوِزْر وهو الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله

٢ ـ من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره .

٣ ـ من الوَزَر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى « كلا لا وزر » أي لا ملجأ ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته .

وقد عرف لنا هارون الرشيد الوزير لما عين يحيى بن خالد وزيراً له أنه « نائب مفوض يحكم البلاد كلها باسم الخليفة . وقد اطلقت يده في التولية والعزل والعطاء والحرمان لايشاركه في ذلك أحد » .

وقد وردت كلمة وزير في موضعين من القرآن . في سورة طه حيث يخاطب موسى ربه قائلاً : « ... رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، وأحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ،

اشدد به أزري واشركه في أمري » وفي سورة الفرقان : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيراً . ».

الوزارة قبل العصر العباسي : ليست الوزارة من مستحدثات الاسلام ، فقد عرفها بنو اسرائيل والساسانيون الفرس وربما غيرهم . وإذا أريد بالوزارة المساعدة والمعاونة والاستشارة فإنها عرفت لدى معظم الدول المنظمة ، فإن ملوك العرب قبل الاسلام في اليمن والحيرة والشام كانوا يسمون من يؤازرهم أعباء الملك (الراهن) لأنه مرتهن بالتدبير . (والزعيم) لأنه زعيم بصواب الرأي . و (الكافي) لأنه يكفي الملك مهات الأمور . و (الكامل) لأن المفروض فيه أنه كامل الفضائل .

وفي صدر الاسلام كان النبي ﷺ يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهاته العامة والخاصة ، ويخص أبا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى كان العرب الذين خالطوا الفرس والروم والأحباش يسمون أبا بكر وزيره . ويقول بعض المؤرخين أن الوزارة ظهرت مع الخلافة فكان عمر وزيراً لأبي بكر وكذلك علي وعثمان مع عمر ومروان بن الحكم مع عثمان .

ولما انتقلت الخلافة إلى الأمويين وجعلوها إرثية تعتمد على السياسة والدهاء احتاجوا إلى من يستشيرونهم ويستعينونهم في شؤون القبائل وتدبير أمور الدولة بعد أن تطورت بالنسبة لما كانت زمن الراشدين . فاستخدموا أناساً لذلك يقومون بعمل الوزراء ولكن لم يطلق عليهم هذا اللقب . إلا أن بعض المؤرخين يقولون عن زياد بن أبيه وعمرو بن العاص انهما وزيرا معاوية .

ويذكر المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف : أن بني أمية كانت تنكر أن تخاطب كاتباً لها بالوزارة وتقول : الوزير مشتق من الوزارة . والخليفة أجل من أن يحتاج إلى الموازرة .

الوزارة زمن العباسيين : قال ابن طباطبا أحد الذين ارخوا في الوزارة . « الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس . فاما

قبل ذلك فقد كان الملوك يستشيرون ذوي الحجا والآراء الصائبة من اتباعهم وحاشيتهم فكان الواحد منهم يجري مجرى الوزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » .

ويميل كثير من المؤرخين إلى القول بأن العباسيين قلدوا الفرس واخذوا عنهم بعض نظم حكمهم ومنها الوزارة وما يترتب عنها ، وقد تناقل المؤرخون هذا القول حتى أصبح كأنه حقيقة ثابتة لاجدال فيها .

ولكن إذا نظرنا إلى سنة تطور الدول ونظام رقيها نرى أن العرب كان قد مضى على تأسيسهم دولتهم الكبرى مدة طويلة وانتشر نفوذهم وتنظمت حكوماتهم كما تنظمت غيرها من الدول بفعل الزمن وقوانين التطور . والدولة العربية كانت واسعة الارجاء بعيدة الحدود لا يستطيع الخليفة أن يقوم وحده بأمور السياسة والادارة كلها ، فلابد له من الاستعانة برجال آخرين يؤازرونه ويشاركونه ويتسمون باسماء مختلفة . وقد عرف العرب ذلك قبل الاسلام وبعده . وقديماً قالوا : لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعيان . فمن مجرى الحوادث التاريخية نلاحظ أن العرب عرفوا منصب الوزير كما نلاحظ أيضاً أن علماء اللغة القدامى جعلوا كلمة الوزارة عربية كما مر معنا . نضيف إلى ذلك أن الكلمة وردت في القرآن . كما استعملها أبو بكر في اجتماع السقيفة لما خاطب الأنصار : نحن الأمراء وأنتم الوزراء .

كان أبو سلمة الخلال أول من دعي بالوزير في دولة بني العباس. وقد اغتاله السفاح، ثم استوزر أبا الجهم ومن بعده(٢) خالد بن برمك جد البرامكة

الذين نبغوا وسما نفوذهم في الدولة حتى قضى عليهم الرشيد ، وجرى جميع الخلفاء العباسيين هذا المجرى من اتخاذ الوزراء والاعوان .

ووصف المأمون الوزير الذي يرغب أن يستوزره بقوله : « إني التمست لاموري رجلا جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، واحكمته التجارب ، إن اؤتمن على الاسرار قام بها ، وان قلد مهمات الامور نهض فيها ، يسكته الحلم وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة ، له صولة الامراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء . ان حسن إليه شكر ، وان ابتلي بالاساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه ، وقد جمع أحد الشعراء الصفات التي يجب أن يتحلى بها الوزير بقوله :

بديهته وفكرته سواء إذا اشتبهت على الحال الأمور
واحزم ما يكون الدهر يوماً إذا أعيا المشاور والمشير
وصدر فيه للهم اتساع إذا ضاقت من الهم الصدور

نوعا الوزارة : يقسم علماء التشريع الاسلامي كالماوردي وغيره الوزراة في العهد العباسي إلى نوعين :

١ – وزارة التفويض ٢ – وزارة التنفيذ .

١ – وزارة التفويض : يرأسها شخص يفوض إليه الخليفة تدبير الأمور برأيه ، وامضائها على اجتهاده دون الرجوع إليه . ومن أشهر وزراء التفويض : جعفر البرمكي وزير الرشيد والفضل بن سهل وزير المأمون ، فسلطة التفويض إذاً مطلقة شبيهة بسلطة الخليفة إلا في ثلاثة أمور :

أ ـ ولاية العهد : فالخليفة يولي ولياً للعهد ولا يجوز ذلك للوزير .

ب ـ الاستعفاء : أي ان الخليفة يستعفي الأمة من الخلافة ولايجوز للوزير أن يستقيل .

حـ ـ العزل : أي للخليفة أن يعزل من عينه الوزير وليس للوزير أن يعزل من عينه الخليفة .

٢ ـ **وزارة التنفيذ** : يرأسها شخص لا يحق له تدبير الأمور باجتهاده . وانما يكون عمله قاصراً على تنفيذ أوامر الخليفة . وهو واسطة بين الخليفة وبين الرعية . فيقوم بما يأمره الخليفة به من تعيين الولاة وتجهيز الجيوش وادارة شؤون الدولة .

الفرق بين الوزارتين : ذكر الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية الفرق بين الوزارتين وجملها باربع نقاط يجوز لوزير التفويض القيام بها وليس لوزير التنفيذ مثلها .

١ ـ مباشرة الحروب والنظر في المظالم .
٢ ـ الاستبداد في تقليد الولاة .
٣ ـ الانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب .
٤ ـ التصرف في أموال بيت المال .

كما أنه يمكن إضافة فرق خامس وهو أنه يجب أن يكون وزير التفويض واحد ، بينما يجوز أن يكون وزيران للتنفيذ .

شروط وزير التفويض : يستوجب الماوردي من وزير التفويض أن يكون جامعاً للشروط المطلوبة في الخليفـــة ينقص عنه في واحدة وهي

النسب . ويزيد في واحدة وهي المعرفة بأمري الحرب والخراج ليباشرهما بنفسه أو يختار من يباشرونها تحت إشرافه .

شروط وزير التنفيذ : لا يشترط فيه أن يكون حراً ولا عالماً لأنه ليس له أن ينفرد بعمل . ويراعى فيه ثمانية شروط وهي :

١ – الامانة . ٢ – صدق اللهجة . ٣ – قلة الطمع . ٤ – بعيداً عن عداوة الناس . ٥ – ذكوراً لما يؤديه إلى الخليفة . ٦ – الذكاء والفطنة . ٧ – ألا يكون من أهل الاهواء ٨ – الحنكة والتجربة إذا كان مما يحتاج الخليفة إلى رأيه ومشورته .

عدد الوزراء : يقول الماوردي : إنه يجب ألا يكون في الدولة الا وزير واحد للتفويض ويجوز أن يكون اثنان للتنفيذ كما مر معنا ، ولم يعرف تعدد الوزراء إلا في أواخر العهد العباسي زمن عضد الدولة . ويقول آدم متز « ... أحدث عضد الدولة في منصب الوزارة شيئين لم يكونا قبله . أولهما اتخذ وزيرين معاً ، والثاني أن أحد هذين الوزيرين وهو ابن منصور نصر بن هارون كان نصرانياً أبقاه الخليفة في بلاد فارس وطنه وأخذ الوزير الثاني معه إلى بغداد . » ولما جاء بهاء الدولة جرى على طريقة أبيه فعين وزيرين .

وإذا وجد وزيران في وقت واحد يجب حسب رأي الماوردي ألا ينفذ لهما أمر إلا حين يجتمعان على رأي واحد . إذا انفرد أحدهما برأي فلا يؤخذ به وإذا اختلفا في شيء رُدّ إلى الخليفة فنفذ فيه حكمه . ولاضرر من أن يختص كل وزير بعمل معين أو بلاد معينة . كأن يكون أحدهما

للحروب ، والآخر على الخراج ، او احدهما لبلاد المشرق ، والآخر لبلاد المغرب .

ولما جاء السلاجقة جعلوا لأنفسهم وزيراً وللخليفة وزيراً . وكان وزير الخليفة ضعيف الأمر .

بينما أوجد الترك الذين سيطروا على شرق الدولة العباسية أيام ضعفها وظيفة « الدويدار » وهي وظيفة محصورة في استتباع كاتب السر وصاحب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة كما يقول ابن خلدون في مقدمته . وكان من وظائفه أيضاً الوقوف في مجلس السلطان أو التقدم بين يديه بالوفود ، وتقديم التحية ...

سلطة الوزير : لقد ذكرنا بصورة مجملة سلطة وزيري التفويض والتنفيذ . ولكنا اذا أخذنا بعين الاعتبار حالة الدولة في أدوار قوتها وضعفها ومكانة الخلفاء ومدى نفوذهم نجد أن سلطة الوزير كانت تتأثر إلى حد بعيد بقوة الخلفاء وضعفهم .

ففي العصر العباسي الأول كانت سلطة الخلفاء قوية حتى أن الوزراء كانوا يخافون على أنفسهم من بطشهم . ويبدو هذا الخوف في أنهم كانوا يتجنبون أن يطلق عليهم اسم وزير بعد مقتل أبي سلمة الخلال وأبي الجهم الذي سمّه المنصور ، فلما أحس أبو الجهم بالسم قام لينصرف فقال له المنصور إلى أين ؟ قال : إلى حيث بعثتني يا أمير المؤمنين :

أسوأ العالمين حالاً لديهم من تسمى بكاتب أو وزير[1]

---

(١) من قصيدة للشاعر ابن حبيبات الكوفي .

ثم استوزر المنصور عدداً من كبار الشخصيات كان نصيب البعض منهم القتل ونصيب الآخرين العزل . فالوزراء في عهده لم يكن لهم شأن كبير لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته .

أما في عهد الرشيد فقد بلغ نفوذ الوزير منتهاه . وقد قال الرشيد ليحيى بن خالد البرمكي لما اتخذه وزيراً له « اني قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك ما ترى من الصواب واستعمل من رأيت وامض الأمور على ما ترى » ثم دفع إليه خاتمه الخاص وسلمه خاتم الخلافة ، حتى صار بيده الحل والعقد في كل شؤون الدولة . ولكن الرشيد ماعتم أن نكب البرامكة لما رأى ازدياد سلطانهم واتساع نفوذهم .

ثم في الأدوار التالية لما ضعف شأن الخلفاء ازداد نفوذ الوزراء وقويت المنافسة على الوزارة وتفشى الدس والرشوة . وإذا أظهر أحدهم استعداده لشراء هذا المنصب يدفع مبلغاً كبيراً من المال للخليفة . ثم يرجع ويسترده من أي وجه بعد توليته .

وبلغت الوزارة في مطلع القرن الرابع أي زمن المقتدر في عهد ابن الفرات شأواً بعيداً من حيث الابهة والنفوذ وكثرة المال . حتى قال أحد المؤرخين : ما سمعنا بوزير جلس في الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والاثاث ما يحيط بعشرة آلاف الف غير ابن الفرات . وقد ظهر بمظهر الفخامة التامة فكان يجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم . وكان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين الف درهم رسماً لهم سوى ما يصلهم به متفرقاً وعند مديحهم إياه . وكان فيمن يدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كتاب هم خاصة كتابه

وكان منهم اربعة نصارى . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين .

وفي أسباب تطور نفوذ الوزارة يقول ابن خلدون : « ولما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، واضيف إليه النظر فيه » ثم يشرح ابن خلدون كيف تطورت سلطة الوزير وجعل له النظر في المكاتبات لمعرفته بأسرار الخليفة . فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان في أيام الرشيد ، وذلك اشارة إلى عموم نظره ، وقيامه بالدولة .

ضعف شان الوزارة : أخذت سلطة الوزير منذ القرن الرابع تتسع أو تتقلص حسب حالة الدولة وموقف الخليفة . إلا أنها كانت تضعف وتسوء مما دعا الخلفاء إلى تبديل الوزراء وتغييرهم إلى أن انتهى الأمر في عهد الراضي إلى سيطرة امراء الامراء على الحكم مباشرة كما سيمر معنا فكانوا يعزلون ويولون وينظرون في جميع الامور ، وليس للوزراء من سلطة سوى الاسم . ثم في عهد المستكفي دخل امراء بني بويه بغداد وحجروا على الخلفاء فلم يعد هؤلاء يستوزرون وإنما كانت تولية الوزراء لبني بويه .

القاب الوزراء ورواتبهم : لم يكن للوزراء في العهد العباسي الأول القاب يضيفونها إلى لقب الوزارة وينفردون بها . إنما نجد في المصادر أن جعفر

ابن يحيى البرمكي قد دعي بالسلطان اشارة إلى اتساع نفوذه واستلامه كل مقدرات الدولة .

ولعل المهدي هو أول من أطلق على وزيره لقباً ولكن دون أن يشتهر به . فقد لقب وزيره يعقوب بن داود الاخ في الله . وجاء المأمون فلقب وزيره الفضل بن سهل ذا الكفايتين ولقب الحسن بن سهل ذا الرياستين لأنه جمع له بين السيف والقلم .

وفي أواخر العهد العباسي وفي زمن الدولة الفاطمية ظهرت الألقاب الفخمة . وأول من لقب بالألقاب الكثيرة وزير جلال الدولة (٤١٦) ه إذ لقبه سعد الدولة وأمين الملة وشرف الملك . كما لقب المسترشد (٥١٣) ه أحد وزرائه بهذه الألقاب جلال الدين وسيد الوزراء وصدر الشرق والغرب وظهير امير المؤمنين . ولكن المسترشد قبض عليه وعزله لان وزير السلطان السلجوقي كان يحقد عليه .

ورغم ان وزراء الفاطمين لم تكن سلطتهم تتعدى سلطة وزير التنفيذ فان الخلفاء اطلقوا عليهم القابا فخمة مثل : ظهير الامة وخليل امير المؤمنين.

رواتب الوزراء : كانت الرواتب تختلف باختلاف العصور والاشخاص. ونحن نجهل قيمة رواتب الوزراء في أوائل الحكم العباسي . ويبدو أنها كانت غير محدودة وتتألف من الهبات الكبيرة والهدايا النفيسة والضياع والخلع .

ولا نعلم متى بدأ الخلفاء يخصصون رواتب لوزرائهم . انما تذكر المصادر ان المقتدر بالله العباسي فرض لوزيره علي بن عيسى (٥٠٠٠) دينار في الشهر . هذا الى ما كان يعطى من الرواتب لاهل الوزراء ولاخوتهم واولادهم وحواشيهم .

واقد جاء وقت كان فيه الوزراء يضمنون واردات الدولة ضماناً ،

فيتصرفون بما يفيض عن مبلغ الضمان ويصيبون ثروة عظيمة من الرشوات والمصادرات والهدايا ونحوها. وقد ذكر المؤرخون ان ابن الفرات وزير المقتدر اكل من اموال المصادرات اكثر من مليون دينار في حادثة واحدة. ولما عزل صودر من امواله مليون وستمائة الف دينار سوى الاثاث والعقار والضياع وغير ذلك.

أما مخصصات الوزير الشهرية في العهد الفاطمي وما يلحقه من رواتب اهله واتباعه كانت على النحو التالي:

الوزير (٥٠٠٠) دينار. ولكل واحد من أبنائه واخوته (٢٠٠ —٣٠٠) دينار. ولكل واحد من حواشيهم (٣٠٠ - ٥٠٠) دينار هذا عدا الاقطاعات والهدايا والخلع.

وقد بلغت رواتب بعض وزراء العباسيين والفاطميين مائة الف دينار في السنة

تعيين الوزراء وعزلهم: كان تعيين الوزراء في اول الامر يتم بأسهل طريقة وذلك بأن يدعو الخليفة اليه الرجل الذي وقع عليه اختياره للوزارة ويبلغه ارادته فينطلق هذا الى عمله.

أما فيما بعد فقد بلغت مراسيم التعيين حد الروعة والبهاء. فكان من يستوزره الخليفة يأتي الى القصر بعد ان يصله الكتاب الرسمي الذي كان يحمله اليه أميران من أمراء الدولة، وعند وصوله الى باب الحجرة كان يقدمه الحاجب الى الخليفة، وبعد أن يؤدي الطاعة كان يتحادث معه قليلا، ثم يذهب إلى حجرة أخرى حيث يلبس ثياب التشريف. ثم يعود فيقبل يد الخليفة وينصرف إلى الديوان ممتطياً فرساً مطهماً، وكان يسير بين

يديه كبار الموظفين والجيش والامراء وموظفي البلاط وخدام الخليفة والحجاب ، وعندما يصل إلى ديوانه كان يستقبل استقبالاً حافلا ويقرأ عليه موسوم التعيين .

عزل الوزراء : كان اكثر الوزراء لايعزلون ، وانما يقتلون أو يسجنون وتصادر أموالهم ويعزل معهم كتابهم وأصحابهم . وربما قتلوا معهم أو حبسوا وصودروا . ولا يسلم أولاد الوزير وأقرباؤه أحياناً من أذى الخليفة . وقد ذكر احد المؤرخين حالة اعتبرها شاذة وهي : ان السلطان جلال الدولة ملكشاه طلب من الخليفة المقتدي عزل وزيره ابي شجاع ، فخرج توقيع المقتدي بعزله على حالة جميلة ، لم يصرف بمثلها وزير .

قيل ان ابا أيوب المورياني كان في مجلسه فأتاه رسول الخليفة المنصور فامتقع لونه وتغير . فسأله بعض أصحابه عن خوفه فذكر لهم قصة البازي والديك . وذلك أن البازي كان يعجب من الديك لا يدنو منه أحد حتى يطير يمنة ويسرة ويصيح ويصوت ، بينما يلزم البازي الهدوء . فقال له الديك لو رأيت في سفافيدهم التي يشوي فيها اللحم من البزاة مثل الذي رأيت أنا فيها من الديكة لكنت شراً مني .

واردف المورياني يقول : ولكنكم لو كنتم تعلمون ما اعلمه لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكني .

الوزراء في الانلس : قلدت باقي الدول العربية والاسلامية العباسين في اتخاذ الوزراء كما جرى في الاندلس ومصر .

اما في الاندلس فيقول ابن خلدون ما معناه : « ان مؤسسي دولة بني امية في الاندلس انفوا من اسم الوزير في مدلوله اول عهد الدولة . ثم قسموا عمله اصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً . فجعلوا :

١ – لحسبان المال وزيراً (المالية) .
٢ – وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً (العدلية) .
٣ – وللترسيل وزيراً (الخارجية) .
٤ – وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً (الحربية) .

وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أوامر السلطان هناك كل فيما جعل له . وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم ، فارتفعت وظيفة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها .

الوزارة لدى الفاطميين والمماليك : عرف منصب الوزير زمن الاخشيديين قبل عهد الفاطميين . ولما اقبل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر كان فيها الوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات . وقد ابى جوهر في بادىء الامر أن يلقبه بالوزير إنما اقره في منصبه اذ ان سياسته كانت ترمي الى عدم احلال الشيعيين محل السنيين دفعة واحدة حتى لا يقف دولاب الاعمال الحكومية . ولم يبق لابن الفرات من منصبه الا الاسم فقط .

ثم عهد المعز بالوزارة الى يعقوب بن كلس اليهودي الاصل . الا أن هذا الاخير اولى ابن الفرات ثقته التامة واعتمد عليه وتوثقت أواصر الصداقة بينهما . ولا سيما عندما زوج ابن كلس ابنته إلى ابن صديقه ابن الفرات .

ومن استعراض اسماء وزراء الفاطميين نجد ان الخلفاء لم يتقيدوا في أن يكون الوزير شيعياً اسماعيلياً ، فاستوزروا ابن كلس وابا منصور صدقة بن يوسف الفلاحي وأبا الحسن بن أبي سعد التستري وكانوا يهوداً قبل اسلامهم ، واستوزروا عيسى بن نسطورس ، وأبا العلا فهد بن ابراهيم ، والشافعي زرعة

ابن نسطورس وأبا سعد منصور بن أبي اليم سورس بن مكر واه وبقوا على دينهم المسيحي ، يقال ان الاخير أسلم ، وأنكرت النصارى إسلامه - كما استوزروا اليازوري السني الحنفي وكان وزير تنفيذ .

ويجب أن نلاحظ ان الفاطميين ، كما لم يتقيدوا بمذهب الوزير تقيداً تاماً ، لم يتقيدوا بجنسيته أو ببلد نشأته ، ان صح التعبير ، فجوهر الصقلي مغربي ، وقد جعل الى جانب كل موظف مصري ، موظفاً مغربياً ، وجاء من بعده ابن كلس وهو بغدادي الاصل ، والجرجاني ، عراقي من السواد ، واليازوري فلسطيني .

يضاف الى هذا أن اهم من لعب دوراً في تاريخ الفاطميين من وزراء التفويض كانوا من الارمن مثل بدر الجمالي وابنه وحفيده ، ويانس وزير الحافظ ، وبهرام والصالح طلائع بن زريك . ثم اصبحت الوزارات إرثاً في بعض الأسر ، كعائلة أمير الجيوش .

وكانت سلطة الوزير لدى الفاطميين كسلطة وزير التنفيذ في العصر العباسي . وصار يطلق على للوزارة في عهد الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ هـ) اسم الوساطة .

وضعف شأن الوزراء والخلفاء منذ عهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٧٨) هـ حتى انه قد تعاقب اربعون وزيراً في تسع سنوات ، لذلك استدعى المستنصر بدر الجمالي والي عكا لاصلاح أمور مصر فتمتع بالسلطة المطلقة حتى وفاته ، ثم تولى الوزارة بعده ابنه الافضل بن بدر الجمالي الذي استبد بالحكم حتى اصبح المستنصر في عهده كالمحجور عليه . ودخلت الوزارة في عهده في طور جديد ، اذ أصبح الوزير رب السيف والقلم وفي قبضة يده خراج الدولة . وازدادت سلطة الوزراء وتضخمت ثروتهم واصبح الخلفاء العوبة في ايديهم .

الوزارة في عهد المماليك : استلم الوزارة في أواخر العصر الفاطمي في

عهد العاضد (٥٥٥ – ٥٦٧ هـ) أسد الدين شيركوه . وخلفه في هـذا المنصب ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب الذي لقب نفسه بالملك الناصر وقضى على الدولة الفاطمية وأسس دولة المماليك الايوبية .

وظلت الوزارة قائمة في مصر في عهد المماليك ، إلا أنه وضع إلى جانب الوزير الذي اصبح عمله تنفيذ رغبات سلطان المماليك واسداء النصح له : النائب ؛ وهو الذي يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ، كما اوجد منصب وزير الصحبة ، وهو الذي يصحب السلطان في حروبه واسفاره ليتسنى للوزير الاصلي القيام بامور الدولة .

ثم بعد ذلك ، اضعف المماليك من نفوذ الوزارة واحدثوا وظيفة ناظر الدولة وناظر الخاصة وكان كل منهما يقوم بمهام الوزارة . ولعلهم ارادوا بذلك ألا يتعرضوا للخلع والاضطهاد كما كانت الحال في أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .



الفصل الرابع

امرة الامراء والسلاطين والملوك

أمير الأمراء : يقول ابن خلدون ما معناه : « لما ضعف شأن الخلافة واستبد الاعاجم بالحكم وكان من المتعذر عليهم انتحال لقب خليفة واستنكفوا مشاركة الوزراء في اللقب لانهم دونهم مرتبة ومقاما ، لهذا تسموا بالامارة والسلطان ، وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء أو السلطان او غير ذلك من الالقاب الخاصة بالخليفة التي يمنحهم إياها » .

وفي عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ ﻫ) تعذر على الوزراء ادارة شئون البلاد لازدياد نفوذ كبار القواد الاعاجم وتدخلهم في أمور الدولة . مما دعا الخليفة الى استمالة ابن رائق وكان والياً على واسط والبصرة وسلم إليه مقاليد الامور ولقبه أمير الامراء . وأمر أن يخطب له على المنابر وخلع عليه وأعطاه اللواء وكانوا يسمونه أيضاً ملك بغداد أو سلطان بغداد .

ولم يكن ابن رائق أول من تلقب بأمير الامراء ، فقد ذكر مسكويه: (تجارب الامم) أن المقتدر قلد هرون بن غريب إمرة الامراء سنة (٣١٦) ﻫ . كما قال أيضاً : « انه منذ تولية ابن رائق منصب امارة الأمراء بطل امر الوزراء ولم يكن للوزير سوى اسم الوزارة فقط ، وان يحضر في ايام المواكب

دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكتاً . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الامر كله . وكذلك كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن الامراء فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون ويطلقون لنفقات الخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الاموال.»

وكانت حالة الخلفاء العباسيين في عهد امرة الامراء تشبه في كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنجيين المتأخرين مع نظار السراي : Mayors of Palace اذ لم يكن لهم من الأمر شيء الا ما كان من ظهورهم في الحفلات الرسمية .

وقد وصف المؤرخ اينهارت سكرتير شارلمان ومؤرخ حياته ضعف ملوك الميروفنجيين المتأخرين وصفاً دقيقاً قال : « ولقد ظل البيت الميروفنجي سنين طويلة خلواً من كل قوة ولم يحط بالملك شيء من مظاهر العظمة سوى اللقب الملكي . لان حكام قصرهم قد آلت اليهم ثروة البلاد واصبحوا المتصرفين في مهام الدولة جميعها . ولم يبق للملك من سلطة سوى الرضا بلقبه الملكي وما كان من جلوسه على عرشه بشعره الطويل ولحيته المدلاة . فكنت تراه اذا ماسمع خطب سفراء الدول يرد عليها بكلمات قد لقنها من قبل ... وإذا أراد الملك السفر رحل في عربة مغطاة يجرها ثوران ويسوقها رجل من رجال الريف...». وهكذا كان حال أواخر خلفاء بني العباس في بغداد.

السلطان : اما ظهور لقب سلطان فقد سبق لقب امير الامراء . وقد مر معنا في بحث القاب الوزراء كيف لقب جعفر يحيى البرمكي بالسلطان من قبل الرشيد اشارة الى اتساع نفوذه .

كما ان الواثق لقب قائده اشناس بلقب السلطان ووضع على مفرقه تاجاً مرصعاً وقلده قلادة وسوارين . وبقي هذا المنصب مهملاً حتى تأسست دولة آل بويه فأخذ الخلفاء يعينونهم ويحتفلون بتوليتهم احتفالاً رائعاً .

ولم يكن لقب سلطان مقصوراً على امراء آل بويه فحسب . بل كان

الخليفة يسند هذا اللقب ايضاً الى الغزاة الفاتحين امثال محمود الغزنوي والب ارسلان وملكشاه وصلاح الدين ومن اليهم . وعندما كان الخليفة يمنح هذا اللقب لأحد الامراء كان يغدو وراثياً على شرط أن يقدم اليه الامير عند التولية طلباً رسمياً . وكان الخليفة بطبيعة الحال يوافق على التعيين ويخلع عليه التشريف .

ونلاحظ ايضاً انه في العصر العباسي الثاني صار يطلق اسم السلطان على الخليفة نفسه . ولما كان عصر المماليك في مصر والشام سمي الامير بالسلطان . فقيل السلطان احمد بن قلاوون مثلاً ، والسلطان بيبرس ، لانهم لم يتجاسروا على اتخاذ لقب الخلافة احتراماً لهذا المنصب الديني الجليل . وقد لقب ايضاً ملوك آل عثمان وخلفاؤهم باسم السلاطين . كما أن حكام المغرب الإقصى اتخذوا نفس اللقب فكان يقال سلطان مراكش .

الملك : انشأ الخلفاء لقباً جديداً اطلق عليه اسم الملك وكان يمنح أحياناً لحامل لقب السلطان ويمنح أحياناً اخرى الى غيره . ولكنهم كانوا إذا ما انعموا به على احد قرنوه عادة بعبارة تتناسب وصفات الملك البارزة . واول من انعم عليه بهذا اللقب هو نور الدين محمود زنكي الذي لقب بالملك العادل .

الفصل الخامس

الحجابة

معنى الكلمة : يراد بها حجب الخليفة عن الناس . ويشرف عليها الحاجب الذي يغلق باب الخليفة دون الناس أو يفتحه لهم . ثم تطورت وظيفته وأصبح عمله تنظيم مقابلة المراجعين للخليفة وترتيبهم في الدخول عليه مراعياً في ذلك مركزهم الاجتماعي وأهمية أعمالهم .

الحجابة زمن الراشدين والامويين : لم يمنع الراشدون احداً من مقابلتهم . وقال ابن خلدون في ذلك : (اما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه) .

وكان من الجائز ان يبقى الحال كذلك بعد أن انتقل الحكم إلى الامويين لان التأثر بالأعاجم كان بعد ضعيفاً ، ولا تزال روح البداوة مسيطرة على العرب. حتى قال الجاحظ : (ان دولة بني أمية عربية اعرابية) ، لولا مؤامرة الخوارج على : علي ومعاوية وعمرو بن العاص التي ذهب ضحيتها الامام علي وجرح معاوية . اذ بعد هذه الحادثة اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب خوفاً على أنفسهم .

ونستدل من أخبار عبد الملك بن مروان عن حدوث امرين هامين يتعلقان بالحجابة وهما :

١ – اباحة الدخول لثلاثة في أي وقت شاءوا . فقد قال عبد الملك لما ولى حاجبه « قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه داعي الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد » .

٢ – اتخاذ الحجاب من قبل الولاة . نستدل على ذلك من وصية عبد الملك لأخيه عبد العزيز والي مصر اذ قال له : « ابسط بشرك ، وألن كنفك ، وآثر الرفق في الامور ، فانه ابلغ بك ، وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فانه وجهك ولسانك، ولا يقفن احد ببابك الا أعلمك مكانه لتكون انت الذي تأذن له او ترده » .

الحجابة زمن العباسيين : كانت مرتبة الحاجب لدى العباسيين دون مرتبة الوزير (اي خلاف الحال في الاندلس) وزاد الحجاب في منع الناس عن مقابلة الخلفاء إلا في الامور الهامة . وقد احدثوا دارين بينهم وبين الناس ، دار للخاصة ودار للعامة . كما احدثوا حاجبين : حاجب لكل دار . وكان الخليفة يقابل كل طائفة من الناس في مكانها المعين لها .

وقد علت مرتبة الحاجب مع الزمن في ايام العباسيين . فأصبح يستشار في كثير من امور الدولة . ومن ابرز الحجاب الفضل بن الربيع الذي وقع بالبرامكة في عهد الرشيد والذي كان له اثر بارز في احداث الخلاف بين الامين والمأمون حينما اغرى الأمين بتحويل ولاية العهد لابنه وخلع اخيه المأمون عن ولاية العهد .

وكان الحاجب في بعض الاحيان يستبد بالنفوذ دون الوزير ، وينظر في امور الدواوين ولا يفصل في اعمالها الا بعد موافقته . نستدل على ذلك من قول مسكويه (تجارب الامم) عن حوادث سنة (٣٢٣ هـ) « ... غلب

محمد بن ياقوت على تدبير الامور ونظر في جباية الاموال وحضور اصحاب الدواوين مجلسه وتفرده بما يعمله الوزراء » .

الحجابة في مصر : عرفت الحجابة في مصر زمن الفاطميين والمماليك ، الا ان مرتبة الحاجب هي دون مرتبة النائب كما يذكر ابن خلدون : « وهذه الوظيفة عندهم هي الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليه واجبار من ابى الانقياد للحكم . » اي شبيهة بوظيفة رئيس الشرطة .

الحجابة في الاندلس : لقد ذكرنا في بحث الوزارة في الاندلس أن الخليفة ميز احد الوزراء وجعله صلة الوصل بينه وبينهم يقابله متى شاء ودعي بالحاجب .وارتفعت مرتبة الحاجب على سائر الرتب وخاصة في اواخر عهد الدولة الاموية في الأندلس حتى صار ملوك الطوائف فيما بعد ينتحلون لقبها الى جانب لقب ملك كما يتخذون لقب ذي الوزارتين ويعنون به السيف والقلم .

الحجابة في المغرب : اتخذ بنو ابي حفص في افريقيا الحجاب ولكن مهمتهم كانت تختلف عن مهمة الحجاب في الشرق والاندلس . اذ كان عمل الحاجب عندهم هو الاشراف على قصر السلطان والنظر في امور الطعام والكساء والذخيرة والعطاء الخ . بالاضافة الى عمله الاصلي وهو حجب السلطان عن الناس ؛ وكان يضاف اليه في بعض الاحوال ختم السجلات الرسمية ، ثم جمع له في آخر عهد الدولة السيف والحرب والرأي والمشورة . فصارت مرتبة الحاجب ارفع المراتب واهمها .

الفصل السادس

الولاة وادارة الولايات

معنى الكلمة : كانت البلاد الخاضعة للعرب تقسم الى ولايات أو امارات . وهي تقسيمات ادارية لا بد منها في كل حكومة منظمة . فكان الخليفة يدير الامور في عاصمة ملكه ويعين على كل ولاية عاملا أو واليا يقوم مقامه في ادارة شؤونها . ويدعى أيضاً بالامير وهي مأخوذة من الامارة الحربية ، لان الخليفة كان يعين الرجل على جيش الفتح فاذا انتصر ودخل البلاد فقد يستبقيه عاملاً عليها فيسميه الناس باسمه الذي عرفوه به من قبل .

الولايات وادارتها زمن النبي : كان النبي ينيب عمالاً على القبائل وعلى المدن ، فكان على كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من قبله . وكانت وظيفة هؤلاء العمال هي الامامة في الصلاة وجمع الصدقات اذ لم يكن هناك خراج .

وجاء في طبقات ابن سعد « أن النبي كان يختار الولاة من المنظور اليهم في العرب ومن الذين يحسنون العمل . وكان يفتشهم ويسمع ما ينقل اليه من اخبارهم . ويدقق في محاسبتهم . ويطلع على وارداتهم ونفقاتهم . وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال الرجل : هذا

لكم وهذا أهدي إلي . فقال النبي ﷺ : «ما بالُ الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله ، فيقول : هذا لكم وهذا أهدي الي . فلو قعد في بيته أكان يُهدى اليه شي . »

الولايات وادارتها زمن الراشدين : لما تولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول ﷺ على أعمالهم ، ولم تتجاوز رقعة الدولة العربية في أيامه أكثر من جزيرة العرب التي قسمت إلى اثنتي عشرة ولاية أهمها : مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت ونجران والبحرين .

وجرى أبو بكر على معرفة أحوال العمال واستقصاء أخبارهم . وكان يختار أكثرهم علماً وعملاً .ومن وصايا ابي بكر ليزيدبن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام : « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً عن الحملة فاني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه .. وإذا قدمت عليك وفود العجم فانزلهم معظم عسكرك واسبغ عليهم النفقة وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين » .

ولما اتسعت رقعة الدولة العربية في خلافة عمر بن الخطاب قسمها إلى أقسام إدارية كبرى وهي : ولاية الاهواز والبحرين . وولاية سجستان ومكران وكرمان . وولاية طبرستان ، وولاية خراسان . وجعل العراق قسمين أحدهما حاضرته الكوفة ، والثاني البصرة . وقسم بلاد الشام إلى قسمين أحدهما قاعدته حمص والثاني دمشق . وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته . وقسم إفريقية إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر وصحراء ليبيا .

كانت سياسته ترمي إلى تماسك بلاد العرب وادماج بعضها في بعض لتكون أمة واحدة . ويهدف إلى عدم اختلاط العرب بأهالي البلاد التي فتحوها حتى لا تضيع قوميتهم .

وكان عمر لا يفتأ يوصي ولاته ، فكان يريدهم أن يستعملوا اللين في غير ضعف والقوة في غير عنف ، وألا يأخذوا أنفسهم بأسباب النعيم وأن يكونوا مثله في إيثار الخشونة . وكانت له أساليب عديدة دقيقة في معرفة أحوال الولاة ، منها إرسال أحد الذين يعتمد عليهم فيجمع هذا الناس ويسألهم إن كانت لهم شكوى . فاذا فعل أحدهم اقتص من الوالي أو عزله .

وبقيت السلطة موزعة كما كانت زمن النبي ﷺ أي تعيين عامل خراج للشؤون المالية إلى جانب الوالي وكان بمثابة الرقيب على أعماله .

أما في عهد عثمان فقد ضعفت الادارة في النصف الاخير من حكمه لشيخوخته ، مما أدى إلى تذمر المسلمين بالولايات فشقوا عصا الطاعة وأضرموا نار الفتنة التي انتهت بقتله .

الولايات وادارتها زمن الامويين : بلغت الدولة العربية أقصى اتساعها زمن الامويين وكانت تقسم اداريا إلى خمس ولايات كبرى هي :

١ - الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .

٢ - مصر بقسميها السفلى والعليا .

٣ - العراقان العربي والعجمي . والعجمي يشمل كل المناطق الواقعة شرقي العراق وحاضرته في الكوفة . وكان يعين واليا من قبله على خراسان مركزه مدينة مرو .

٤ - بلاد الجزيرة ويتبعهـا ارمينية واذربيجـان وبعض أراضي آسيا الصغرى .

٥ - افريقية الشمالية حتى غرب مصر وبلاد الاندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار ومركزها القيروان .

وقد سار الامويون على سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة من

العرب ، وبلغ من اهتمامهم باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب إلى أفراد البيت المالك .

الولايات وادارتها زمن العباسيين : في العصر العباسي الاول كان نظام الحكم مركزياً وبذلك تقلص نفوذ العمال . وكان يوجد إلى جانب الوالي موظفون كل حسب اختصاصه ، فهناك صاحب المال وصاحب البريد والقاضي . واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند .

ولم تختلف التقسيمات الادارية اختلافا كبيراً عما كانت عليه زمن الامويين إلا من حيث تجزئة بعض الولايات الكبرى . فكانت المناطق الشرقية من العراق تتألف مثلاً من : اذربيجان ، عراق العجم ، خراسان ، ماوراء النهر ، السند ، البنجاب ، الاهواز ، جنوب فارس . بينما كانت زمن الامويين تشكل ولاية واحدة كبرى . ثم لما جاء الرشيد عدل التقسيمات الادارية وفصل تخوم الشام و كيليكيا عن أمارة الجزيرة وقنسرين وجعلها امارة واحدة واطلق عليها اسم العواصم حاضرتها طرسوس .

وكان الخليفة يختار عمال الاقاليم بنفسه . ولم يكن المنصور يحتفظ بخدمات أي أمير في ولاية واحدة لمدة طويلة . فكان دائب الاشراف على عماله يعزلهم إذا لاحظ منهم ضعفاً أو تهاوناً . كتب اليه عامله على ارمينية يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال . فكتب اليه « اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » .

ثم دب الضعف في الدولة في العصر العباسي الثاني واستبد الولاة وابتكروا الاساليب لجمع المال والاسراف في انفاقه . وكان الوالي يقيم في ولايته كأنه ملك مستقل إلا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج إلى الخليفة والخطبة له وضرب النقود باسمه . فاذا كان الوالي ذا دهاء وآنس من الخليفة ضعفاً جمع أهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله إما استقلالاً

تاماً واما على مال معين . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبة في افريقية وابن طاهر في خراسان وابن طولون في مصر .

انواع الولايات : قال الماوردي : إذا قلد الخليفة أميراً على إقليم أو بلد كانت إمارته على ضربين :

١ – إمارة عامة أي تكون للوالي سلطة شاملة تامة وهي نوعان :

أ – إمارة استكفاء أو تفويض أو استيلاء بعقد عن اختيار . أي يوليه الخليفة باختياره .

ب – إمارة استيلاء بعقد عن اضطرار . أي يوليه الخليفة وهو مكره .

٢ – إمارة خاصة .

إمارة الاستكفاء او التفويض : هي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الاكفاء ، فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع أهله ويجعله عام النظر في كل أموره لا يراجعه إلا في الأمور الهامة جداً ويشتمل نظره على سبعة أمور :

١ – تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم (إلا إذا كان الخليفة قدرها) .

٢ – النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام .

٣ – جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها .

٤ – حماية الدين والدفاع عن الحريم .

٥ – إقامة حدود الشرع .

٦ – الامامة في الصلوات .

٧ – تسيير الحج .

وإذا كان الاقليم متاخماً لعدو ترتب على العامل واجب ثامن هو :

٨ - جهاد ذلك العدو وقسمة الغنائم بين المحاربين .

إمارة الاستكفاء زمن الامويين : وأشهر ولايات الاستكفاء العامة زمن الامويين كانت مصر والعراق وخراسان . وأشهر الولاة زياد بن أبيه ، والحجاج ، ومسلمة بن عبد الملك ، وخالد بن عبد الله القسري . فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف في إمارته تصرف الملوك المستقلين . فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته . ويجبي الأموال فينفق منها على جنده وفي ما تقتضيه العمارة من اصلاح الجسور واحتفار الترع ونحو ذلك ، ويرسل ما يبقى عنده إلى بيت المال في الشام .

إمارات الاستكفاء زمن العباسيين : وفي عهد العباسيين لما تمكن البرامكة من الدولة وازداد نفوذهم ولى الرشيد أحدهم جعفر بن يحيى الغرب كله من الانبار إلى افريقية . وقلد أخاه الفضل بن يحيى الشرق كله حتى أقصى بلاد الترك . وقد جعل جعفر مقامه في مصر وأرسل العمال إلى الشام وافريقية ، أما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل خراسان فأصلح وبدل واستخلف عمالاً وعاد الى العراق .

وكانت امارة الاستكفاء زمن العباسيين من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة لاستبداد الولاة واحتكارهم كل السلطات في ولايتهم ، وكان أشهرهم الاغالبة في افريقية ، وابن طاهر في خراسان ، وابن طولون في مصر .

إمارة الاستيلاء : وهي كما يفهم من معنى الكلمة أن يستولي الوالي بالقوة على اقليم تابع للخليفة ، فيقر الخليفة الحالة الراهنة استصلاحاً للأمور ورغبة في حقن الدماء واستدعاء للطاعة ، ويقلد المتغلب الامارة ويفوض

اليه تدبير الاقاليم التي تغلب عليها ، كل ذلـك حفظاً لمنصب الامامة ولأحكام الدين .

ولأمير الاستيلاء أن يعين الوزراء ويحق له بصورة خاصة أن يستوزر وزير تفويض ولا يحق لأمير الاستكفاء .

ومن أشهر هذه الولايات في العصر العباسي : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، والبويهية في فارس وكرمان ، والغزنوية في الافغان والهند ، والاخشيدية في مصر والشام . وكلها كانت امارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر وتضرب السكة باسمه وترسل اليه مالاً معيناً في السنة يتم الاتفاق عليه ، وهو الذي يثبت امراءها ويكون الحكم متسلسلا في اعقابهم .

الامارة الخاصة : هي التي تكون سلطة الأمير مقصورة فيها على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية السكان والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة . وليس له أن يتعرض للقضاء أو الاحكام أو لجباية الخراج أو الصدقات . حتى الامامة في الصلاة فربما كان القاضي أولى بها منه . والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده . فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي وهم يؤدون اعطيات الجند وغيرها مما يجمعونـه . والامارات الخاصة كانت قليلة في ابان الدولة العباسية كثيرة زمن الامويين.

تعيين الولاة وعزلهم : كان الخليفة اذا ولى أميراً على جهة ما كتب له بذلك كتاباً يسمى التقليد أو العهد يحدد له فيه مهمته ويوصيه بالآداب التي ينبغي له التجمل بها والسياسة التي يلزمه اتباعها.

كان الخلفاء الراشدون يذكرون في كتاب التعيين اسم الوالي والبلد الذي أرسل اليـه وكلمات تلخص سلطته ثم يكثرون من الوصايا . وقد كتب علي بن أبي طالب الى الأشتر : « هذا ما أمر به علي أمير المؤمنين

مالك بن الحارث الاشتر في عهده اليه حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوهـا ، واستصلاح أهلهـا ، وعمارة بلادهـا . أمره بتقوى الله وايثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد الا باتباعها . . . »

وفي العهدين الاموي والعباسي والعصور المتأخرة كانت التقاليد تصدر عن كتاب يتنافسون في عمل التقاليد ويشحنونها بضروب الصناعات البيانيـة والبديعية ويطولون فيها كثيراً . وكانت التقاليد اجمالاً غنية بالتفاصيل التي تظهر فيها سلطات الأمير وأعماله .

إن الوالي اذا قلده الوزير ينعزل بعزله او موته . اما الوالي الذي يقلده الخليفة فلا ينعزل بموته . وكان الخلفاء الجدد يميلون اجمالاً الى تولية بعض اصحابهم وانسبائهم الذين يثقون بهم . وربما كان الخليفة الجديـد له رأي في الولاة غير رأي الخليفة الذي سبق فيبدأ عمله بصرف الولاة كلهم او بعضهم ، وقـد فعل هذا عمر بن الخطـاب على شدة حبـه لأبي بكر وإعجابه به .

وكان العزل يتم احياناً بالكتابة الى الأمير وبلاغه صرفه عن الخدمة او نقله الى مكان آخر ، واحياناً بتولية الأمـير الجديد فـاذا وصل مركز الامارة أظهر كتاب توليته وتسلم الاعمال ، ويعتبر ذلـــك عزلاً ضمنياً للأمير السابق . وربما رافق العزل مصادرة اموال الامير وعماله .

راتب الولاة : : كان عمال النبي ﷺ عمالاً على الصدقات ولهم نصيب مما يجمعون ، أما الأمراء والولاة الذين لا يأخذون من مال الصدقات فلا ندري اذا كان النبي قد فرض لهم رزقاً مخصوصاً ، ويذكر بعض المؤرخين ان النبي لما استعمل عتّـاب بن أسيد والياً على مكة خصص له كل يوم

درهماً فقام يخطب ويقول : « ايها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم . فقد رزقني الله درهماً كل يوم فليست بي حاجة الى احد » . فكان هذا الراتب اول ما وُضع من الرواتب للولاة .

اما عمر بن الخطاب فانه قدر رواتب العمال بعد تدوين الدواوين وتعيين أرزاق الجند ، وأول ما فعل ذلك لما وجّه عمار بن ياسر الى الكوفة فجعل له (٦٠٠) درهم في الشهر ونصف شاة ونصف جريب كل يوم . وعين الرواتب لبقية الولاة والموظفين . ولما ولى معاوية بن ابي سفيان على الشام جعل له الف درهم كل سنة . وكان عمر يشدد في محاسبة العمال فاذا رآهم ربحوا مالاً من شيء قاسمهم وأخذ النصف لبيت المال.

واما بنو امية فقد نال عمال الأقاليم في ايامهم امتيازات كثيرة منحهم إياها معاوية ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم له . فولى زياد بن أبيه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد . وفعل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر . كما اطلق عبد الملك يد الحجاج في العراق .

وجرى العباسيون على نحو ذلك . فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له (٣) ملايين درهم في السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته وأهميته.

الفصل السابع

الدواوين

مفهوم الكلمة : اختلف في أصل كلمة ديوان هل هي عربية أم فارسية . قال البعض ومنهم سيبويه انها عربية ومعناها : الأصل الذي يرجع اليه . وقال آخرون ومنهم الأصمعي : بل هي فارسية معربة ومعناها سجل او دفتر . واطلقت من باب المجاز على المكان الذي تحفظ فيه السجلات الرسمية .

ويقال عن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتّاب ديوانه وهم يرددون بصوت منخفض ما يدونونه كأنهم يتحادثون فقال : (ديوانـه) أي مجانين . فسمى موضعهم بهذا الاسم وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان .

وقيل إن ديوان هو اسم للشياطين بالفارسية . سمي الكتّاب بذلك لسرعة تفهمهم للأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي ، وجمعهم لما شذّ وتفرق . ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم .

ويقول الماوردي : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال . ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

نشاة الدواوين واقسامها زمن الراشدين : أول من أنشأ الديوان عند المسلمين عمر بن الخطاب . أما قبل ذلك فلم يحتج المسلمون إلى أي من التدوين الحكومي سوى كتاب الوحي للرسول عليه السلام والكتاب الذين كتبوا له رسائله إلى ملوك الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الاسلام .

ولما كان عهد عمر اتسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية وكثرت وارداتها فاحتاج إلى ضبط أحوالها فانشأ ديوان العطاء أو الخراج . كما ازداد عدد المحاربين وكثرت الجيوش واتسع نطاق الفتوحات فرأى من الضروري تقدير أعطيات الجند وتسجيل أسمائهم ، فانشأ ديوان الجند .

وذكر المؤرخون رأيين في سبب وضع عمر الديوان وهما :

١ – أن أبا هريرة عامله على البحرين قدم ومعه مال كثير وتعب عمر في قسمه وضبط العطاء ، فأشار عليه خالد بن الوليد (وقيل بل هو هشام بن الوليد بن المغيرة) بتأسيس الديوان وقال : « رأيت ملوك الشام يدونون » فقبل عمر ووضع ديوان العطاء أو الخراج .

٢ – وقيل إن الذي اشار على الخليفة عمر بوضع الديوان هو أحد زعماء الفرس الذين أسلموا إذ كان حاضراً مجلس الخليفة وقد رآه يرسل بعثاً (جيشاً) فقال له : « هذا البعث قد أعطيت أهله الأموال فإن تخلف منهم رجل بمكانه فما يدري صاحبك (قائدك) به » وأشار عليه بوضع الديوان وفسره له وشرحه . فأمر عمر بانشاء ديوان الجند .

تطور الدواوين : أشهر الدواوين التي عرفت زمن الامويين هي : ديوان الجند – ديوان الخراج – ديوان الرسائل – ديوان الخاتم – ديوان الطراز – ديوان الصدقات .

١ – ديوان الجند : بقي هذا الديوان في أول العهد الاموي على ما أنشأه الخليفة عمر ، وهو أكبر ديوان في الدولة ، تحدد فيه مقدار اعطيات جميع العرب ، والجنود المقاتلة من عرب وغير عرب .

ولما خفت حركة الجيوش ، لهدأة الحروب الخارجية ، أبطل الخليفة هشام بن عبد الملك الاعطاءات لمن لا يقوم بالعمل العسكري بنفسه أو من يبعث مكانه نائباً عنه ، والغى اسماء جميع من يستنكفون عن المساهمة في الجندية ولو كان أميراً أموياً ، وبهذا الاصلاح ، تحدد الاشخاص الذين يتناولون اعطيات مقدرة ومقررة من ديوان الجند ، ولم يعد أموال هـذا الديوان حقاً لجميع العرب .. وقد أعجب المنصور العباسي باصلاح الخليفة هشام الاموي وأمر بتنفيذه .

٢ — ديوان الخراج : وواجباته جمع الخراج والانفاق من موارده على شؤون الدولة ، وكان في كل ولاية ديوان اشبه بالادارة المالية المحلية ، يجمع الخراج ، ويحتفظ بما يحتاج اليه الولاة من مصروف ، ويرسل الفائض إلى العاصمة ، حيث يجمع دخل الاراضي الزراعية في ديوان مركزي ، لقاء إيصالات استلام وصرف وتجري عن طريقه محاسبة دواوين الولايات .

٣ — ديوان الرسائل : يقول القلقشندي : ان ديوان الرسائل ويسمى أيضاً ديوان الانشاء هو أول ديوان أنشىء في الاسلام وذلك أن النبي ﷺ استعمل كتاباً يكتبون عنه إلى امرائه وأصحاب سراياه ، وإلى من قرب من ملوك الارض يدعوهم إلى الاسلام ، كما كتبوا له العهود والاقطاعات والمدن والامانات إلى غير ذلك .

فهؤلاء الكتاب وإن لم يطلق عليهم اسم الديوان كانوا يقومون بشيء من متعلقات ديوان الرسائل . فلما جاء العهد الأموي كان كل خليفة يفوض أمر ديوان الرسائل إلى كاتب يختاره .

ثم جاء العهد العباسي فكان الذي يتولى ديوان الرسائل هو الوزير نفسه .

وفي كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري صور للنشرات والرسائل

التي كانت توجه للعمال والرعية .

وقد الف القلقشندي لمن يرشحون أنفسهم لمنصب ديوان الرسائل كتاباً قيماً ذكر فيه تاريخ هذا الديوان وتفاصيل العلوم والمعارف التي ينبغي لصاحبه أن يعلمها . قال : « ليس في منزلة خدم السلطان والمتصرفين في مهماته أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه والافضاء إليه بمهماته واطلاعه على حوادث ديوانه ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ... »

ومن آداب صاحب الرسائل أن يكون صبيح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلا في قومه ، وقوراً حليماً مؤثراً للجد على الهزل ، ملازماً للديوان ليكون قدوة لسائر الموظفين فيه .

وكان هذا المنصب لا يتولاه في عهد الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة ، وله حاجب من الامراء والشيوخ . حتى شبه ديوان الرسائل ، في عهدهم ، بديوان رئاسة مجلس الوزراء في أيامنا هذه .

أما اختصاص صاحب ديوان الرسائل فهي :

١ – التوقيع على الرسائل الموجهة إلى جميع الولايات والموظفين في كل ما يتعلق بشؤون الدولة .

٢ – النظر في الكتب الواردة .

٣ – رد الاجوبة في يومها وعدم تأخيرها .

٤ – النظر في الألقاب التي تكتب على الرسائل حتى لايزاد فيها ولا ينقص .

٥ – الاطلاع على ما يكتب في ديوانه ويوقع عليها إشارة إلى موافقته على مضمونها .

٦ – النظر في أمر البريد ومتعلقاته .

٧ – النظر في أبراج الحمام المستعمل في المخابرات .

٨ – النظر في أمر السعاة الذين يسيرون بالرسائل عند تعذر إيصالها بطرق البريد .

٩ – النظر في أمر المناور والمحروقات وهي أمكنة في رؤوس الجبال توقد فيها النار وتستعمل للمخابرات .

١٠ – النظر في أمر العيون والجواسيس .

١١ – النظر في الأمور العامة أي كل ما يجلب الخير للدولة ويدفع عنها الأذى .

ب – ديوان الخاتم : لم يكن القصد من الختم أن يوضع الخاتم في أدنى الرسالة . وإنما كانت الرسالة تطوى ويلصق طرفها بالشمع أو الطين الأحمر الذي يطبع عليه ، وهو طري ، خاتم الخلافة . ويترك حتى يجف . فاذا فتحت الرسالة من قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك .

وأول من وضع هذا الديوان معاوية ؛ وقد ذكر الصولي في أدب الكاتب ان معاوية حين افرد ديوان الخاتم ولاه عبيد بن أوس النسائي وسلم الخاتم إليه ، وكان منقوشاً على فصه « لكل عمل ثواب » ، وسبب ذلك أنه كتب لعمرو بن الزبير بمائة الف درهم إلى زياد عامله في العراق . ففض عمرو الكتاب وجعلها مئتي الف درهم ، فلما رفع زياد حسابه ، قال معاوية ما كتبت له إلا بمئة الف درهم . وكتب إلى زياد بذلك وأمره أن يأخذ المئة الف

منه ، وان يعتقله بتهمة التزوير ، فدفع عبد الله بن الزبير المبلغ إلى معاوية وحصل على اطلاق سراح عمرو . وصارت العادة أن يحتفظ ديوان الخاتم بنسخة عن كل ما يوقع من رسائل وحسابات ، وكذلك فعل الولاة ، وذلك للرجوع اليها والمطابقة والمقارنة ، وخاصة في العصر العباسي حين نكب عدد كبير من الوزراء بدعوة الرشوة والتلاعب بالقيود والغنى غير المشروع .

وانشأ الأمويون في دمشق داراً خاصة للمحفوظات الرسمية ، وكذلك فعل العباسيون . . وقد ظل هذا الديوان قائماً حتى عهد الامين (٨٠٩ — ٨١٦م) على حد قول الجهشياري ، بينما يرى فون كريمر وسيد أمير علي ومتز أنه حل ديوان التوقيع محل ديوان الخاتم في أول العهد العباسي ، ويروون أن جعفر البرمكي تولى رئاسة ديوان التوقيع في عهد الرشيد (٧٧٦ — ٨٠٩م) وعرفت الأوامر الصادرة عن هذا الديوان باسم التوقيعات . . ولكن المصادر الأخرى تذكر ديوان الخاتم في عهد المأمون . . . مما قد يستنتج أن ديوان الخاتم بقي قائماً مع احداث ديوان التوقيع لمدة من الزمن ثم حل الثاني محل الأول .

ديوان الطراز : يقول ابن خلدون : « الطراز هو أن يرسم أسماء الملوك والسلاطين أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج » .

يضاف إلى هذه الدواوين ديوانا الجند والخراج وقد أحدثها الخليفة عمر كما مر معنا ، وديوان البريد وقد أفردنا له فصلاً خاصاً لاهميته . وعلى كل ليست هذه كل الدواوين التي عرفت في العهد الأموي بل هي أهمها ؛ إذ تفرعت عنها دواوين أخرى كثيرة . وقد ذكر المؤرخون أنه كان في عهد

عمر بن عبد العزيز ديوان يعنى بالمرضى والمقعدين وترتيب الخدمة لهم والانفاق عليهم . وكان في عهد هشام بن عبد الملك ديوان للصدقات . كما كان عندهم دواوين للنفقات والرقيق وغيرها .

تعريب الدواوين : كانت لغة الدواوين حتى زمن عبد الملك في العراق الفارسية وفي الشام الرومية وفي مصر القبطية واليونانية .

كان سرجون بن منصور يتقلد ديوان الشام فأمره عبد الملك يوماً بشيء فتثاقل عنه وتوانى فيه . فعاد لطلبه وحثه فيه ، فرأى منه تفريطاً وتقصيراً ، فقال عبد الملك لسليمان بن سعد وكان يتقلد له ديوان الرسائل : أما ترى إدلال سرجون علينا ، وأحسبه قد رأى ضرورتنا اليه وإلى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب إلى العربية . قال : فافعل ، فحوله ، فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام .

كما حول الحجاج في العراق ديوان الخراج من الفارسية إلى العربية . وذلك أنه كان يتقلده زادان فروخ وكان يكتب معه صالح بن عبد الرحمن . وقال صالح مرة لزادان : إني قد خففت على قلب الحجاج ولست آمن أن أزيلك عن عملك . فأجاب زادان : لا تظن ذلك لأنه لا يمكن أن يجد من يكفيه حسابه غيري . فقال صالح : والله لو شئت أن احول الحساب إلى العربية لحولته . قال : فحول سطراً حتى أرى . ففعل صالح . وبذل له زادان مائة الف درهم كي يظهر العجز عن نقل الديوان إلى العربية فأبى . ولما قتل زادان خلال ثورة ابن الاشعث خلفه صالح وترجم الديوان إلى العربية . وفي رواية للبلاذري والجهشياري أن زادان خشي أن يلحظ الحجاج مهارة صالح فأمره أن يدعي المرض ، فأرسل الحجاج طبيبه الخاص لمعالجته ثم عينه بعد مقتل زادان ، وتقول هذه

الرواية أن الذي عرض على صالح المائة الف درهم ، هم اصحاب المصالح من الفرس بعد تعيينه في عمله الجديد وبعد وفاة زادان .

أما في مصر فقد ظلت الدواوين تدون باليونانية إلى أن انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فسار على سياسة أبيه في تعريب الدواوين فحول ديوان خراجها إلى العربية ؛ وقام بتنفيذ هذه السياسة واليه على مصر عبد الله ابن عبد الملك بن مروان سنة (٨٧) هـ .

وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية . فقد أصبحت لغة الدواوين هي اللغة العربية مما ساعد على تقلص نفوذ غير العرب . أما من الناحية الادبية فقد أصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية واليونانية ، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت . وكان عبد الحميد الكاتب يقول : « لله در صالح بن عبد الرحمن ما أعظم منته على الكتاب » . وكان حري به أن يقول لله در عبد الملك .

الدواوين في العهد العباسي : تأثر العباسيون بالنظم الادارية الفارسية كما أن الأمور تعقدت وتشعبت بعد العصر الأموي فأنشئت دواوين عديدة عدا التي عرفت زمن الراشدين والأمويين . وكان أهمها :

ديوان العزيز : كان مجلس الخليفة يسمى بديوان العزيز كما كانت الحكومة العثمانية تسمي بالباب العالي . وكان يرأس المجلس الوزير الأكبر ولهذا سمي مجلس العزيز (كان رؤساء الدواوين المختلفة يسمون بالوزراء أحياناً ولكنهم كانوا أقل درجة من الوزير الأكبر الذي كان رئيس الادارة) .

٢ ــ **ديوان الازمة** : يقول البلاذري بأن هذا الديوان أحدث زمن

الامويين ؛ بينما سيد أمير علي يقول : انه من ابتكار الخليفة المهدي (١٥٨ – ١٦٨ هـ) وقد سمي ديوان الأزمّة في العاصمة وديوان الزمام في الولايات كما يقول الجهشياري .

وصاحبه يشبه وزير المالية الذي يجمع أنواع الواردات كلها ، وأنواع النفقات كلها ويقيم الموازنة بينها . وقد حوله العباسيون إلى ديوان حسابات عامة لبلاد الخلافة كلها ، وذلك بما يشبه ديوان المحاسبة اليوم أو الجهاز المركزي للرقابة المالية .

٣ – **ديوان النظر في المظالم** : كان الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدون من بعده يستمعون إلى شكاوي الناس وينصفونهم في كل وقت تعرض عليهم هذه الشكاوي ، ولكن بعد مقتل الامام علي ، والاعتداء على معاوية ، احتجب الخلفاء ، وخصصوا أوقاتاً محدودة للنظر في المظالم ، كما فعل عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فلما جاء العباسيون وانشغل الخلفاء بأمور الدولة المتشابكة ، افردوا للمظالم ديواناً منظماً ، كان بمثابة المحكمة العليا الاستئنافية ، تعرض عليها الأمور التي لم يقبل اصحابها بحكم القضاة ، وذكر ان جعفر البرمكي قد تولى رئاسة هذا الديوان في عهد الرشيد ، وأن المأمون قد انفرد من بين سائر خلفاء بني العباس ، وترأس مجلس ديوان المظالم يوم الأحد من أكثر الأسابيع . ويذكر الماوردي أن امرأة تقدمت بشكوى ضد ابن الخليفة المأمون ، فحضر المأمون بنفسه جلسة النظر بالدعوى ، واستمع إلى أقوال الامرأة وابنه ، وأصدر القاضي الحكم ضد الامير ونفذ الحكم .

٤ – **ديوان النفقات** : واختص بمطالب البلاط ، من تأمين الرواتب وبناء واصلاح القصور وملحقاتها ، وشراء المواد الغذائية والخيول ، وما يطلبه

سكان القصور من ملابس وأدوات وأثاث ... وتكاليف الحفلات والمآدب . وما شابه ذلك .

٥ ـ **ديوان الصوافي** : تعني الصوافي أراضي الدولة ، وهذا يعني أيضاً اهتمام هذا الديوان بجميع أملاك الدولة من تأجير واستئجار او شراء وبيع . وهو أشبه بدائرة الاملاك العامة اليوم .

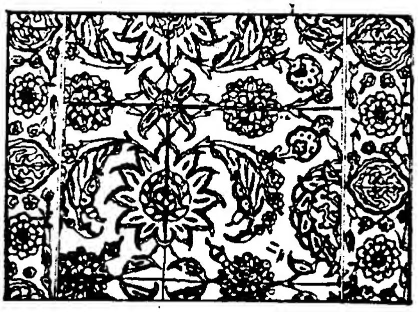
٦ ـ **ديوان الضياع** : ويقصد بها ضياع وقرى وأراضي الخليفة الخاصة ، إذ انفرد لادارتها واستثمارها ديوان خاص ؛ لا علاقة له بالديوان السابق .

٧ ـ **ديوان الموالي والغلمان** : وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده .

٨ ـ **ديوان الجهبذة** : وهو خاص للمحافظة على مصالح غير المسلمين .

يضاف إلى هذه الدواوين دواوين أخرى كثيرة منها : ديوان البريد ، ديوان الشرطة ، ديوان العطاء ، ديوان الدية ، ديوان الري .

وكان يعهد بإدارة كل ديوان إلى مدير يسمى الرئيس أو الصدر . أما التفتيش فكان يقوم به مفتشون يسمون بالمشرفين أو النظار ، وكان مشرف الممتلكات يضطلع من حين لآخر بالتفتيش على دواوين الدولة ويرفع التقارير الوافية عنها إلى الخليفة .



الفصل الثامن

البريـــد

معنى الكلمة وأصلها : البريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثنى عشر ميلًا . وفي الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

وقد اختلف في الكلمة فبعضهم يقول إنها عربية مشتقة من برد أو أبرد بمعنى أرسل فتقول بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه . وذهب آخرون إلى أنها فارسية الاصل (بريده دم) ومعناها مقصوص الذنب وذلك لان الفرس كانوا يقصون ذنب دواب البريد لتمتاز بذلك عن غيرها من الدواب الأخرى . وكان يطلق البريد على الرسول الذي يحمله .

مصلحة البريد وزمن انشائها عند العرب : مصلحة البريد قديمة عرفت عند الفرس والروم . وأول من اتخذه من المسلمين معاوية بن أبي سفيان اقتداء بما كان قبله في الشام أو بما أشار عليه به عماله في العراق .

ورغم أن المصادر لا تذكر شيئاً عن وجود البريد زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، إلا أننا لا نشك بأنه عرف شبيه به في ذلك الوقت . نستنتج ذلك من الاخبار التاريخية التي تذكر ارسال الكتب من قبل النبي عليه السلام إلى من جاوره من الملوك والامراء يدعوهم فيها إلى الاسلام . كما أنه لما اتسعت رقعة الدولة وكثرت الفتوحات زمن الراشدين لابد أن الخلفاء كانوا دائمي الاتصال بالقواد والأمراء والولاة .

وفي عهد عبد الملك ادخلت على البريد تحسينات كثيرة لاهميته في تأمين المواصلات والاخبار بين الخليفة والولاة .

قال عبد الملك مرة لأحد رجاله : « وليتك حجابة بابي إلا عن أربعة : المؤذن فانه داعي الله فلا حجاب عليه . وطارق الليل فشر ما أتى به ولو وجد خيراً لنام . والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة إذا حبس البريد ساعة . والطعام إذا أدرك » .

وفي الازمات ، وخاصة اثناء الحروب ، نظمت برُد حربية خاصة . من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب اثناء فتوح العراق ، من نقل الاخبار بينه وبين جند سعد بن ابي وقاص يوماً بعد يوم ، وتبادل الرسائل والتوجيهات والتعليمات والاخبار بين الطرفين ، وما رواه آدم متز في كتابه الحضارة الاسلامية عن أن علي بن عيسى قد رتب الجمازات (الجمل والجمّال) من مصر الى بغداد عام ٣٠٢هـ/ ٩١٤م لتبلغه اخبار محاربة صاحب القيروان .

كما جعل الخلفاء والامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامات سرية يتفقون عليها ، حتى لا يزور عليهم شيء ، ولو كان مختوماً بخاتمهم ، من ذلك ما فعله ابو مسلم الخراساني حين دخل على المنصور وكان يخشى مغبة هذه المقابلة ، فقد استخلف ابو مسلم على عسكره ابا نصر بن الهيثم وقال له : ان جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو خاتمي ، وان كان مختوماً بكل الخاتم فاعلم انه ليس ختمي . . ولما امر المنصور بقتل ابي مسلم ، اخذ

خاتمه وختم به رسالة الى ابن الهثيم ، فلما اطلع عليه هذا الاخير عرف انه كتب وختم رغم ارادة ابي مسلم ، او دون علمه ..

البريد زمن العباسيين وانشاء ديوان له : ازداد اهتمام العباسيين بالبريد فأنشأوا له ديواناً خاصاً . واعتمد الخلفاء عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم. كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة وهَى . أما أحدهم فقاض لاتأخذه في الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي . والثالث صاحب خراج لا يظلم الرعية . والرابع .. (ثم عض على اصبعه السبابة ثلاث مرات وقال:) صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة » .

وقد كتب اليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد فكتب إلى هذا الوالي : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش ؟ إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلي من عملنا إلى (فلان بن فلان) والحق بأهلك مذموماً مدحوراً » .

مهمة صاحب البريد : نلاحظ في الامثلة السابقة أن البريد كان واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وأخبار الولاة إلى خلفائهم . إلا أن عمل صاحب البريد لم تقتصر على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب بل كان يتعداها إلى موافاة الخليفة بكافة الاخبار والحوادث التي يمده بها أعوانه المنتشرون في أنحاء الاقاليم ، أي أنه كان رقيباً ومفتشاً وعيناً للخليفة يرفع التقارير عن أحوال الجند والمال وأحكام القضاة واسعار الحاجيات من قمح وحبوب ومأكولات وغيرها ؛ فكان عمله يشبه نظام المخابرات والشعبة السياسية كما كان من جملة أعماله أيضاً حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والاعداء والجواسيس .

ومن تقارير صاحب البريد نص مقدم الى الخليفة المتوكل ، وكان خارج بغداد ، فيه شكاية على حاكم بغداد ، لانغماسه في ملذاته واهماله امر المدينة يقول التقرير : بسم الله الرحمن الرحيم : يا أمير المؤمنين إن محمد بن عبد الله اشترى أمة بمقدار ١٠٠ الف درهم ، وهو يسري بها عن نفسه من الظهر الى المساء ويهمل شؤون الدولة . وان أمير المؤمنين لايحب ان يرى بغداد في سخط ، لان امير المؤمنين يجد صعوبة عندئذ في إقرار النظام . وان العبد الخاضع يرفع ذلك الى امير المؤمنين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وقد بالغ العباسيون في استخدام البريد حتى قيل إن بعضهم كان يشرف بنفسه على فض البريد للاطلاع على أحوال الولاة والرعية .

ولقد بلغ من انتظام ادارة البريد في عهد المنصور أن عماله كانوا يوافونه بالأخبار مرتين في اليوم ، فكان يوقف القاضي عند حده اذا ظلم ، ويرجع السعر الى حالته الأولى اذا ارتفع ، وان رأى تقصيراً من أحدهم وبخه ولامه أو عزله عن عمله مهاناً .

وسائل نقل البريد :

١ ـ النقل البري :

كان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى تبلغ أربعين أو خمسين ، وكانوا يعلقون في أعناقها جلاجل أو سلاسل اذا تحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بقعقعة البريد .

وكان الذي ينقل البريد على الخيل في عهد المماليك يسمى بريدي ، ويحمله في خزيطة (اي حقيبة) ، ويضع حول عنقه شرابة من حرير اصفر .. والذي ينقل البريد على الجمال يسمى النجاب .

وفي بعض الأحوال كان يعتمد على السعاة لنقل البريد وهم رجال

خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في مرحلة .وأول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة . انشأهم في بغداد لاعلام أخيه ركن الدولة بالاحوال سريعاً .

ونبغ في أيامه ساعيان هما فضل ومرعوش فاقا سائر السعاة . وعم استخدام السعاة في سائر الدول الاسلامية .

٢ – **النقل الجوي** : كان يعتمد في النقل الجوي على الحمام الزاجل . فيكتب المطلوب بصيغة مقتضبة كالتي تستعمل في البرقيات في وقتنا هذا . وكانت الرسالة تشد تحت جناح الطائر أو في ذيله . وكانت الرسالة يكتب منها صورتان ترسلان مع طائرين يطلقان في أوقات متباعدة قليلاً حتى إذا ضل أحدهما أو قتل أو افترسته الجوارح أمكن الاعتماد على وصول الآخر . وقد جرت العادة الا يطلق الحمام في الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي .

يقال ان استخدام الحمام الزاجل كان معروفاً عند اليونان والرومان . ولم يستعمل لدى العرب إلا في عهد المعتصم عندما طيرت اليه أخبار أسر بابك الخرمي . ثم لم يلبث أن انتشر استعماله في الأمور البريدية العادية . وكان نور الدين محمود يستخدمه للاغراض العسكرية كما أنشأ له في كل محطة حظيرة خاصة .

وقد افردت بعض الدول الاسلامية للحمام ديواناً خاص ، وألف الكتاب في انساب الحمام المستخدم كتباً ، وميز حمام البريد بخلاخيل من الذهب في أرجله ، وألواح خفيفة في أعناقه .. وكان الذي يشرف على ابراج الحمام في القلعة بالقاهرة في عهد المماليك يسمى براج .

وكانت بين الاسكندرونة وبين بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب . على أن العرب لم يعتنوا به العناية الكافية وينشئوا له الادوات

الخاصة إلا منذ القرن الحادي عشر الميلادي ولا سيما في مصر حيث كانت له أبراج في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدده « ١٩٠٠ » طائر لها عمال يناط بهم أمر العناية بها .

٣ ـ **النقل المائي** : وكان يرسل البريد أيضاً على السفن في البحار والانهار وكان الاعتماد على هذا النوع من النقل ضعيفاً إلا اذا كانت الطرق البرية صعبة الاجتياز أو خطرة أو طويلة .

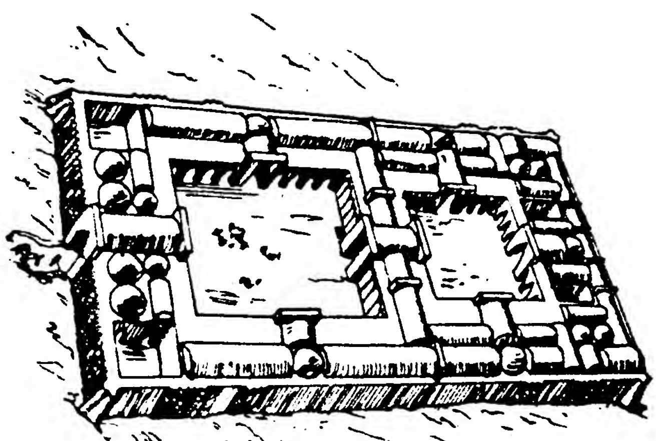
٤ ـ **المخابرات بالنار والدخان** : أنشأ العرب المسلمون أبراجاً عالية بين بعض البلدان كما فعل الحجاج ، والمأمون ، فينشر الدخان نهاراً من أحد الابراج وتوقد فيه النار ليلاً فيراه موظفو البرج التالي فيخبرون بذلك البرج الذي يليهم ... وهكذا دواليك . وكانت هنالك اصطلاحات بينهم تشبه اصطلاحات ملاحي السفن البحرية عندما يتخابرون بالمرايا والانوار والأعلام ، واصطلاحات الكشافين بمخابراتهم بالنور وباعلام « السيمافور » .

ماذا ينقل البريد : إلى جانب تأمين المراسلات والأخبار بين الخليفة وعماله ، كان يستخدم البريد لحمل الناس إلى الخليفة أو الأمير التماساً لسرعة قدومهم ، كما أن الجنود كانوا ينقلون من بلد إلى آخر بواسطة دواب البريد .

ومعظم المصادر تذكر أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة ولا ندري إذا كان يستخدم لنقل مراسلات الجمهور أو لنقل المسافرين كما يذكر سيد أمير علي ، إلا أنه مما لا شك فيه أن الطرق التي أقامتها الحكومة للبريد اعتمد عليها التجار في أسفارهم ونقل سلعهم بسبب الأمن الذي كان يسودها . كما أنها كانت نواة للرحلات الجغرافية والبحوث العلمية .

محطات البريد : انشئت في رأس كل مرحلة ، تستطيع وسائط النقل

الحيوانية أن تجتازها بيسر ، محطة للقوافل ، عبارة عن خان حصين ، فيه غرف لاقامة رجال البريد . وأماكن لدواب البريد ، واصطبلات لتبادل الخيول ، والعناية بها وبيطرتها ، ومطاعم تؤمن حاجة القوافل من الطعام الجاهز أو للمؤونة في الطريق . والتزويد بالمياه اللازمة ... وكان لدى ديوان البريد في كل ولاية تقاويم خاصة فيها ذكر للمسالك في الولاية وأسماء ومراكز محطات البريد ؛ وفي ديوان بريد العاصمة ، نسخة عن كل ما في الولايات ، مع ترتيب وتصنيف بشكل يغطي شبكة المواصلات ومراكز البريد في جميع الامبراطورية . واعتمد كثير من كتاب المسلمين الجغرافيين على هذه التقاويم في أبحاثهم الجغرافية .



شكل — ٣ —

نموذج لخانات البريد التي تؤمن حاجات المسافرين ورجال البريد مأوى وطعام وراحة وخدمات للدواب

الفصل التاسع

الشرطة

مفهوم الكلمة : جاء في القاموس المحيط : « الشرطة ... هم أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت ، وطائفة من أعوان الوالي ، سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها . »

وقال القلقشندي : « صاحب الشرطة بضم الشين وإسكان الراء هو المعبر عنه في زماننا بالوالي ... وفي اشتقاقه قولان : أحدهما أنه مشتق من الشرط بفتح الشين والراء وهي العلامة لأنهم يجعلون لأنفسهم علامات يعرفون بها . ومنه اشتراط الساعة يعني علاماتها . وقيل من الشرط بالفتح أيضاً وهو رذال المال لأنهم يتحدثون في ارذال الناس وسفلتهم ممن لا مال لهم من اللصوص ونحوهم . »

نشاة الشرطة : قال السيوطي : إن أول ، من شرط الشرطة في الاسلام عمرو بن العاص لما ولي امارة مصر . ويميل أكثر المؤرخين إلى القول بأن معاوية هو أول من استعمل الشرطة .

ولكن إذا اعتبرنا العسس نواة للشرطة وهو الطواف ليلا لتتبع اللصوص وطلب أهل الفساد ومن يخشى شرهم ، فإن تأسيس الشرطة يرجع إلى ما قبل عمرو بن العاص ومعاوية ، إلى زمن أبي بكر وعمر . فقد

ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن مسعود كان أميراً على العسس في عهد أبي بكر. وأن عمر بن الخطاب تولى هو نفسه العسس، وكان يصطحب معه، مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف.

وكان الناس يتولون حراسة أنفسهم نهاراً. أما ليلا فكان رجال العسس يتولون أمر السهر عليهم. ثم لما تكاثر المفسدون وظهر أمرهم في وضح النهار أنشأ الخلفاء الشرطة لحفظ الأمن والسهر على النظام.

ويظهر ان الشرطة وجدت في الامصار الاسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين، اذ يذكر الطبري انه وكل الى اربعمائة منهم حراسة بيت المال والسجن في البصرة منذ زمن ابي موسى الاشعري، وقد برهنوا على تمسكهم بواجبهم فقاوموا الزبير عندما جاء مع عائشة يحرض البصريين على الخليفة علي بن ابي طالب، فلم يسلموه المنشآت التي وكلوا بحراستها الا بعد ان اقنعهم بأحقية دعواه؛ مما يدل على ارتباطهم بالمؤسسات دون الأمير شخصياً. وذكر المدائني ان زياد بن ابيه انشأ له حرساً خاصاً عدد افراده خمسمائة رجل واسند قيادتهم الى عبد الله بن حصن وشيبان بن عبد الله وهما من العرب البارزين في البصرة. وقد كلف زياد شرطته بوظيفة حفظ الامن ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق والاشقياء والمتمردين والثوار. فكان عملهم محلياً ولا علاقة لهم في الفتوح او الحملات العسكرية.

وقد جعل لكل حي فرقة من الشرطة مسؤولة عن حفظ النظام وإقرار الأمن فيه ليلا ونهاراً. وكان عدد رجالها يتفاوت حسب الأحوال؛ وقد بلغت في عهد زياد بن أبيه جيشاً كثيفاً، يتسلحون بالعمد والحراب وعليهم رئيس يسمى صاحب الشرطة. وكانت تدفع له ولرجاله رواتب حسنة كي يقوموا بأعمالهم بأمانة وإخلاص.

والشرطة في الأصل تابعة للقضاء لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاة

أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، واقامة التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ، ومساعدة القاضي في اثبات الذنب على مرتكبه، واقامة الحدود كحد الزنا وحد شرب الخمر . ثم تنزيهاً للقضاء ما لبثت أن استقلت وانفصلت عنه ، وأصبح لصاحب الشرطة حق النظر في الجرائم بعد أن كان عمله محصوراً في منع الفتن والجرائم والقبض على القائمين بها . كما كان يسمى صاحب الشرطة احياناً « صاحب الاحداث » ووظيفته حينئذ تصبح نصف حربية ونصف مدنية ، اذ عليه المحافظة على القانون والنظام ، وعليه أيضاً تأديب الثائرين واخماد الفتن بالقتال .

ويقول ابن خلدون في ذلك : « وكان أيضاً ، النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية بالاندلس ، والعبيديين بمصر والمغرب راجعاً الى صاحب الشرطة ، وهي وظيفة اخرى دينية ، كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول ، توسع النظر فيها عن احكام القضاء قليلا ، فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ؛ ويقيم الحدود الثابتة في محالها ، ويحكم في القود والقصاص ، ويقيم التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ..

تطور الشرطة وسلطة صاحبها : كانت الشرطة في العهد الأموي آلة تنفيذ فقط . لا يقوم صاحبها بعمل إلا بأمر الخليفة أو الأمير ؛ ثم لما جاء العهد العباسي ازدادت سلطته وخاصة بعد انفصال الشرطة عن القضاء وأصبح له حق النظر في الجرائم وإيقاع العقوبات .

يقول ابن خلدون : « ولم تكن سلطة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب ، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة ، ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس ونوعت إلى

شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات وعلى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة . ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة » .

وكان رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبة الحاكم أو الوالي . وقد شغل هذه الوظيفة في عهد المأمون طاهر بن الحسين حيناً من الزمن ثم عين عاملاً على خراسان .

اعمال الشرطة : من واجبات الشرطة :

١ً ـ **حفظ النظام :** وذلك بمنع الفوضى والتجمعات في الطرق والسهر على المراكب . ومرافقة الخلفية أو الأمير في تنقلاته .

٢ً ـ **حفظ الامن :** وذلك بمراقبة الأشرار والدعار واللصوص .

٣ً ـ **مراقبة المقاهي والحانات واماكن الشرب واللعب :** ومنع ما يقع فيها من المخالفات . وقد تشارك الشرطة موظفي الحسبة في أخذ الناس بالصلوات ونحوها من أمور الدين ونهيم عن المنكرات وتأديبهم عليها .

٤ً ـ **تنفيذ اوامر السلطات :** من تعزيز وتكريم إلى مقتل أو مضادرة أو حبس .

٥ً ـ **تنفيذ اوامر القضاة كلما احتاجوا اليهم**

٦ ـ **مساعدة عمال الخراج :** باكراه المكلفين على دفع ما يستحق في ذمهم .

٧ ـ **ادارة السجون** : واتخاذ سجل يذكر فيه أمر كل واحد من المساجين وسبب سجنه .

والسجون ظهرت منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولكنها نظمت في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أوجد لها ديواناً يشرف عليها ، وأمر باعطاء المسجونين رزق الصيف والشتاء ، وكسوة الصيف والشتاء ، والعناية بمرضاهم ، وان لا يقيد أحد في المحابس بقيد يمنعه من اقامة الصلاة ، والفصل بين فئات المسجونين ، بين من يسجن في دين ومن يسجن في جريمة ، وجعل للنساء حبساً على حدة ... بينما تذكر سجون الحجاج في العراق بعدم ملاءمتها للصحة العامة ، والقسوة في معاملة المسجونين ؛ وهو أمر تكرر بعد الامويين . فقد ذكر المقريزي في الخطط : ان سجون الفاطميين في مصر كانت أشبه بجهنم الحمراء ، حيث كان السجناء يحشرون في مكان غير مسقف وهم في الحديد ، يؤذيهم حر الصيف وزمهرير الشتاء ، ويتركون هكذا من غير أن يطعموا شيئاً إلا بما يتصدق به الناس عليهم ، وكان منهم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين يستخدمون في الحفر والعمائر ونحو ذلك تحت اعين « الاعوان » فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن في حديدهم .

نلاحظ أنهم كانوا في بعض الأحيان يجمعون بين الشرطة والحسبة . وكان لصاحب الشرطة نواب يشبهونَ المفوضين في هذه الأيام . وربما كان له أصحاب أخبار أو شرطة سرية . نستنتج ذلك مما ذكره القلقشندي قال : « لما عين احد الخلفاء صاحب الشرطة والحسبة قال له موصياً : « ... وأوعز إلى رجالك باطلاعك على الخفايا وإبانة كل مستور من القضايا وأن يتيقظوا لسكنات الليل وغفلات النهار ... » .

ويذكر القلقشندي أن والي الشرطة في مصر يقدم صباح كل يوم تقريراً إلى السلطان يطلعه فيه على كل ما يحدث من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك .

تعيين صاحب الشرطة والشروط التي يجب ان تتوفر فيه : كان الخليفة يعين صاحب الشرطة في عاصمة الدولة . أما في الأقاليم فكان كل أمير يولي صاحب شرطته . وكانوا يتخيرون لهذا المنصب كبار القواد وعظماء الخاصة .

وقد ذكر ابن أبي الربيع في كتابه (سلوك المالك في تدبير الممالك) الذي ألفه للخليفة المعتصم بالله (٢١٧ – ٢٢٧) هـ ما ينبغي أن يكون عليه صاحب الشرطة من الخصال قال :

« أما صاحب الشرطة فينبغي أن يكون حليما مهيباً دائم الصمت طويل الفكر بعيد الغور ...

وأن يكون غليظاً على أهل الريب في تصاريف الحيل شديد الفطنة . وأن يكون طاهر النزاهة غير عجول . وأن يكون نظره يشزراً قليل التبسم غير ملتفت إلى الشفاعات ، وأن يأمر أصحابه بملازمة المحابيس وتفتيش الأطعمة وما يدخل السجون .

ويجب عليه عمارة سور المدينة وأبوابها ولم شعثها ومعرفة من يدخلها . وإذا أفرج عن أحد من السجن ثم عاد بجرم فليجعل الحبس قبره .

ويأمر العامة ألا يجيروا أحداً ولا ينبهوه للهرب بل يدلوا عليه وينبغي أن تكون عقوبة الخاص والعام واحدة كما أمرت الشريعة .

ويذكر المقريزي في الخطط ان الشرطة كانت من أهم وظائف الدولة في مصر ، وكان صاحبها من عظماء الرجال ، وكان ينوب عن الوالي في الصلاة ، وفي توزيع الاعطيات ، وبعد بناء مدينة العسكر جعل فيها شرطة اخرى واصبحت الشرطة قسمين :

١ – الشرطة السفلى ومقرها مدينة الفسطاط .

٢ ـ الشرطة العليا ومقرها مدينة العسكر (قرب جامع ابن طولون وسميت بالعليا لوقوعها على الجبل في مكان عالٍ) .

ويذكر آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، أن الشرطة كانت تحمل سلاحاً يسمى « الطبرزين » عبارة عن سكين طويلة تحمل معلقة في أوساط رجال الشرطة .

ويمكن أن نلحق ببحث الشرطة وظيفة « العريف » إذ تروي كتب التاريخ، ان العرفاء كانوا أهم طبقة من الموظفين الذين اعتمد عليهم الأمراء في تثبيت سلطانهم في الامصار ، وفي توزيع العطاء والسيطرة على السكان ، والمساعدة في الأعمال الادارية ، وكانت وظيفة العريف معروفة منذ الجاهلية ، وكانت صفة الشخص الذي يقود عشرة مقاتلين (انظر بحث امرة الجيش في نفس هذا الكتاب) ، لكن عمر بن الخطاب كلف العرفاء بتسهيل عملية دفع العطاء . واصبح العريف في العهد الأموي مسؤولاً عن « عرافة » يوزع العطاء على أفرادها ، ويحق له زيادة العطاء لأي فرد يقوم بدور هام في المنطقة ، أويقترح على الأمير أن يزيدها ، وكان لدى العرفاء سجلات تحوي اسماء النساء والأطفال والمقاتلة وتجهيزاتهم ومقدار عطائهم ومواليهم في عرافتهم ، وهم مسؤولون عن جمع الجند عند النفير كما ذكر الطبري . ومسؤولون عن الأمن والنظام في عرافاتهم ، فكانوا بحق حلقة الوصل بين عامة الناس وبين الامارة ، يخدمونها بتوزيع العطاء وجمع الجند ومراقبة المشاغبين والمتمردين ، وبذلك حلوا محل شيوخ العشائر الذين أخذ سلطانهم يتناقص مع نمو الحياة في المدن . وقد جاء في رسالة لعمر بن عبد العزيز إلى أمير البصرة في عهده عدي بن أرطأة « ان العرفاء من عشائرهم بمكان ، فانظر عرفاء الجند ، فمن رضيت امانته لنا ولقومه فأثبته ، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه وابلغ في الأمانة والورع » .

الفصل العاشر

القضاء

تعريف القضاء : قال ابن خلدون ما معناه : « القضاء هو الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للنزاع ، بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة . وهو من الوظائف التابعة للخلافة . لهذا كان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم »

وهذا تعريف ناقص لانه يقصر القضاء على فصل الخصومات القائمة بين الناس . وهذا هو الاصل في القضاء . ولكن القضاء ينظر في غير الخصومات أيضاً كمسائل الاوقاف والايتام والحجز وغير ذلك كما سيرد معنا .

ويعبر ايضاً عن القضاء بالحكم بمعنى المنع ومنه سمي الحاكم حاكماً لمنعه الظالم من ظلمه . ومعنى قولهم حكم الحاكم اي وضع الحق في أهله ومنع من ليس له باهل .

مصادر التشريع الاسلامي : ان مصادر التشريع الاسلامي هي : القرآن والسنة والاجماع (أو القياس والرأي والاجتهاد) .

١ – **القرآن** : هو عماد التشريع لأنه يعتبر أساس الأصول التي يرجع اليها فقهاء المسلمين في ابتنباط الأحكام الشرعية وقد ذكرنا أن آياته تقسم إلى مكية ومدنية .

وإن الآيات المكية قصيرة تدعو إلى توحيد الله وتقيم البراهين على وجوده وتذكر بيوم القيامة وما سيحدث فيه من بعث وحساب يتبعهما ثواب وعقاب. بينما الآيات المدنية طويلة تبحث في التشريع التفصيلي وقصص الغزوات وما كان فيها وأسبابها. وفي القرآن شرائع اجتماعية فيما يتعلق بالأسرة وتكوينها ونظامها وهو يسمى اليوم بالاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث أو النهي عن أكل أموال اليتامى والحض على المحافظة على أموالهم إلى غير ذلك. وشرائع مدنية أي ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض كالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل، والحض على الوفاء بالعهود، وإباحة الربح في التجارة، وحظر التعامل بالربا، والامر بكتابة الدين والاستشهاد عليه إلى غير ذلك. وما يتعلق بالقصاص أي الامور الجنائية. كما نجد فيه الشرائع الدينية من صلاة وصيام وحج وزكاة.

وقد قام التشريع في القرآن على أسس ثلاثة:

١ً – عدم الحرج أوالضيق: «وما جعل عليكم في الدين من حرج». «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

٢ً – تقليل التكاليف: هو نتيجة لازمة للاساس الاول «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.»

٣ً – التدرج في التشريع: وعماد هذا المبدأ أخذ الناس بالرفق لاصلاح أمورهم وبالتدريج حتى يصل شيئاً فشيئاً إلى المستوى المراد رفعهم اليه دون أن يشعروا بانقلاب أو بالارهاق المعجز عن بلوغه. وفي القرآن آيات كثيرة تبحث في ذلك أهمها التي نزلت في الخمر والميسر.

٢ – **السنة:** هي أفعال وأقوال النبي ﷺ. وهي تستمد أحكامها من القرآن ومن اجتهاد النبي وفطنته واستشارته لأصحابه. وتعتبر السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجمل من أحكامه، ومن الأحكام التي فصلتها

السنة وكانت مجملة في القرآن كما سبق أن ذكرنا أحكام الصلاة إذ فرضها القرآن دون ذكر أوقاتها أو طرق أدائها وعدد الركوع والسجود فيها . وقد قال عليه الصلاة والسلام « صلوا كما رأيتموني أصلي وخذوا عني مناسككم » . وقد أمر القرآن بالزكاة ، ولكنه لم يعين المقدار الواجب أداؤه ولا موعد الأداء وشرطه . كما أن السنة تبحث في قضايا لم يرد ذكرها في القرآن . وذلك أن السنة قد ورثت الجدّة على حين أن القرآن لم يجعل لها نصيباً في الميراث .

٣ ــ **الاجماع** : أوجد القرآن الكريم أحوالاً عامة في التشريع وترك لعلماء المسلمين باب الاجتهاد مفتوحاً لكل ما يعترض حياتهم الجديدة من أمور لم تكن في حياة الرسول ، فإذا أجمع علماء مصر من الأمصار على أمر من الأمور الدينية مستندين بذلك إلى روح الشريعة الاسلامية كان ذلك حجة . وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه في بعض الامور . وكذلك فعل أبو بكر من بعده فانه إذا ورد عليه الخصوم ولم يجد في كتاب الله ولا في السنة نصاً يقضي به وأعياه الامر كان يجمع كبار الناس وخيارهم يستشيرهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به .

ويعتبر الاجماع مفتاح التطور في الشريعة الاسلامية لانه يكفل لها حياة متجددة تتمشى مع مقتضيات الاحوال المتغيرة .

٤ ــ **القياس** : وهو قياس حادثة طارئة على حادثة ثانية فيها نص أو اجماع لاتحاد العلة فيها .

ولكن بعض المسلمين توسعوا في القياس حتى أطلقوه على النظر والبحث في مسائل لم يرد فيها نص . وكانوا يطلقونه أحياناً على الاجتهاد فيما لا نص فيه ، أي جعلوه مرادفاً للرأي . وخاصة أهل العراق الذين اعتمدوا كثيراً

على الرأي وزعيمهم في ذلك أبو حنيفة . وكان ذلك طبيعياً بسبب تعقد الحياة وتطور المدنية واختلاف نظام المعيشة بين الحجاز والعراق .

وفقهاء العراق لم يقتصروا في الاجتهاد أو الافتاء على ما يقع من أحداث بل تعدوا إلى فرض الفروض والاجتهاد في استخراج الحكم الصحيح في حوادث لم تقع أو يندر حدوثها ، وذلك بعكس علماء المدينة الذين وقفوا موقفاً معاكساً فقد كرهوا الرأي والقول به وامتنعوا عن الفتيا وقد ساعدهم على ذلك كثرة الحديث عندهم وعدم تطور الحياة تطوراً كبيراً عما كانت عليه زمن النبي .

التشريع الاسلامي والقانون الروماني :

يتهم بعض الباحثين كالاستاذ شيرمان Sherman والاستاذ آموس Amos والاستاذ غولد زيهر Goldziher وغيرهم الشريعة الاسلامية بانها استحدثت بعض احكامها من القانون الروماني . معززين اتهامهم :

١ – بوجود تشابه في بعض المصطلحات العلمية بين الطرفين مثل Jurisprudentia (فقه) و Opinio (رأي) :

٢ – بوجود تشابه في بعض النظم القانونية بين الشريعتين من حيث التقسيم الى : اشخاص والتزامات واموال .

٣ – بوجود مبدأ : البينة على من ادعى واليمين على من انكر في كلا الشريعتين .

ان اقوال هؤلاء الباحثين لاتستند على اساس علمي ولا منطقي صحيح ، ووجود التشابه ، ليس من باب الاقتباس ، وإنما تشابه الأحكام في نفس الظروف ، والدين والمنطق السليم ، يتماشيان ولا يختلفان ، والتشريع الديني انزل لمصلحة بني البشر ، وحل مشاكلهم اليومية ، وكذلك

القوانين ، فلا حاجة للاقتباس مع وجود التشابه وجميع القوانين القديمة قالت بمبدأ العين بالعين دون ان تقتبس من بعضها . ويدحض الكتاب ادعاءات هؤلاء المتهمين ويرون ان زعمهم باطل لاسباب عديدة منها :

١ – ان نظريتهم لاتؤيدها براهين قاطعة ولا تستند على حجج قوية كما يمكن ان نلاحظ من ارائهم السابقة .

٢ – اذا وجد تشابه فلعل سببه تلك الظروف الاجتماعية الواحدة التي مرت بها كل منهما .

٣ – اننا لانجد مصدراً عربياً او غير عربي يشير الى ان العرب اخذوا شيئاً عن القانون الروماني .

٤ – انه لايوجد سبب يدفع المؤرخين العرب وغيرهم فيما لو كان هناك اقتباس الى انكاره . فالمصادر التاريخية تنبئنا ان العرب نقلوا كثيراً من العلوم واقتبسوا وترجموا حتى انها تذكر اسماء المترجمين والكتب التي عربوها ولكنها لاتلمح قط انهم نقلوا شيئاً عن القانون الروماني .

تطور القضاء :

القضاء زمن النبي ﷺ : احتكم المسلمون الأوائل إلى الرسول عليه السلام واعتبر حكمه ملزماً حين نزلت الآية : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيا شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وبذلك يعتبر النبي أول قاض في الاسلام ، وكان يستمد أحكامه من الله سبحانه بقوله تعالى : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما

جاءك من الحق ، كما أنه كان يستشير أصحابه ويجتهد في بعض الاحكام وكانت طرق الاثبات عنده : البينة واليمين وشهادة الشهود .

ولما فتح المسلمون بعض الامصار بعث النبي عليه السلام ولاة . فكان الوالي هو الحاكم وهو القاضي . ولم يعرف أنه عين في بلد من البلدان رجلا اختص بالقضاء . كما أنه أذن لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس معتمدين على الكتاب والسنة والاجتهاد .

القضاء زمن الراشدين : سار أبو بكر بسيرة الرسول في الادارة الاسلامية ولما استلم الخلافة قال له أبو عبيدة : انا اكفيك المال . وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . فمكث عمر سنة ، وقيل سنتين ، لا يأتيه متخاصمان . ولكنه لم يتخذ لقب قاض ؛ إذ أن أبا بكر كان يباشر هذه المهمة بنفسه وقد فوض إلى عمر أحيانا النظر في الوقائع التي كان يدلي بها الخصوم اليه .

ثم لما جاء عمر فصل بين الولاية والقضاء بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة البلاد الإسلامية ، وبعد أن تعذر على الخليفة أو الوالي أن يجمع مع النظر في الامور العامة الفصل في الخصومات .

وإلى جانب ذلك يمتاز عهد عمر في القضاء بذلك الكتاب المشهور الذي أرسله إلى أبي موسى الاشعري قاضي الكوفة والذي يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل بها القضاة . وقد بين فيه كثيراً من نظام القضاء وأصوله والذي نعتبره بمثابة دستور القضاة الذي يسيرون على هديه في الاحكام وفيه يقول : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس : سلام عليك ؛ أما بعد : فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم إذا أدلي اليك ، وانفذ إذ تبين لك فانه لا ينفع تكلم لا نفاذ له . آس

بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . . . ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ، ولا سنة النبي ﷺ ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدّ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب ، فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . إياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم ، والتنكر عن الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر . فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس في نفسه شانه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام » .

وكان عمر يستشير الصحابة وخاصة علي بن أبي طالب عملاً بقوله : (ما شقي امرؤٌ عن مشورة ولا سعد باستبداد برأي) : وكذلك فعل علي من حيث استشارة الصحابة . ومما يؤثر عنه أنه عرضت عليه قضية كثر فيها الشهود فدعاهم متفرقين وأخذ إفادتهم ، والكاتب يسجل أقوالهم فوجد تناقضاً في أقوالهم فهددهم وضيق عليهم فأقروا . بالحقيقة فقال علي : (الله أكبر أنا أول من فرق بين الشاهدين) .

القضاء زمن الامويين : تميز القضاء في هذا العهد :

١ً ــ كان معاوية أول خليفة امتنع عن القضاء ودفعه إلى من يقوم به ، وانقطع هو عن النظر فيه لانشغاله في أمور الدولة .

٢ً ــ تقدم فكرة الرأي باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع .

٣ً ــ ظهور أهل الحديث الذين قاوموا أهل الرأي ولم يأخذوا إلا بنصوص الكتاب والسنة .

٤ً ــ البدء بتسجيل الاحكام ، وسبب ذلك أن قاضي مصر في خلافة معاوية حكم في الميراث بين ورثة متخاصمين ، ثم تناكروا الحكم فعادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه الجند .

القضاء زمن العباسيين : حصلت تطورات هامة في القضاء زمن العباسيين .

١ً ــ اتساع سلطة القاضي وأعماله إذ عليه الفصل في الدعاوى والاوقاف والنفقات وتنصيب الاوصياء وأضيفت إليه أحياناً الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال وغيرها .

٢ً ــ نشوء المذاهب الأربعة وهي :

آ ــ مذهب الامام أبي حنيفة إمام أهل الرأي والقياس .

ب ــ مذهب الامام مالك الذي يعتمد على الحديث .

جـ ــ مذهب الامام الشافعي الذي جمع بين الحديث والرأي والقياس .

د ــ مذهب الامام ابن حنبل الذي يتفق مع مذهب الامام مالك من حيث اعتماده على الحديث .

وأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر حكمه وفق هذه المذاهب أو أحدها .

٣ً ــ تدخل السياسة في القضاء اذ عمل الخلفاء على حمل القضاة على السير

وفق رغباتهم في الحكم . حتى امتنع كثير من الفقهاء من تولي القضاء كما فعل أبو حنيفة لما كافه المنصور .

٤ – وجود منصب قاضي القضاة وهو بمثابة وزير العدل اليوم . يولي القضاة من قبله على الأقاليم ويقيم هو في حاضرة الدولة . وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب كتاب الخراج وذلك في عهد الرشيد .

٥ – ظهور الاصطلاحات الفقهية ، كما وضعت الكتب في صفات القاضي وعمله ومجلسه .

ديوان المظالم : كان ديوان المظالم بمثابة محكمة استئناف عليا يلجأ اليه المتقاضون إذا اعتقدوا أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل . كما يلجأ اليه المتظلمون من تعدي ذوي الجاه والحسب أي من الولاة أو جباة الأموال أو كتاب الدواوين أو من أحد أبناء الخليفة أو الأمراء وغيرهم .

لم يفرد للمظالم أوقاتاً محدودة أحد من الخلفاء الراشدين لأن المتظلمين كانوا يستطيعون مراجعة الخليفة متى شاؤوا .

ثم أفرد الخلفاء يوماً خاصاً لرد المظالم ، وأول من فعل ذلك عبد الملك ابن مروان ، وكان يكلف أحياناً قاضيه ابن ادريس الأزدي القيام بهذه المهمة . وكان عمر بن عبد العزيز يباشرها بنفسه ثم أهملت بعده إلى زمن العباسيين وكان أول من جلس منهم للمظالم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد والمأمون . وآخر من تولاها منهم المهتدي . على أنهم كانوا كثيراً ما يعهدون بهذا المنصب إلى وزرائهم كما فعل المأمون ليحيى بن أكثم والمعتصم لأحمد بن أبي دؤاد . وثم لما غلب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم إليهم .

كانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد وتتألف من خمس جماعات لا يستغني عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم :

١ - **الحماة والاعوان** : للتغلب على كل من تحدثه نفسه بالالتجاء إلى القوة أو العنف أو الفرار أثناء القضاء

٢ - **الحكام** : ليردوا الحقوق إلى أصحابها بعد الإحاطة بما يجري بين الخصوم وما يصدر من الأحكام .

٣ - **الفقهاء** : ليرجع إليهم عندما يشكل على صاحب المظالم مسألة من المسائل الشرعية .

٤ - **الكتاب** : لتدوين ما يحصل أثناء الجلسة من أقوال الخصوم .

٥ - **الشهود** : الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضي لاينافي الحق والعدل والشريعة الاسلامية .

وكان اختصاص من ينظر في المظالم واسعاً يشمل كما يذكر صاحب كتاب الاحكام السلطانية :

١ - النظر في تعدي الولاة على الرعية ، وأخذهم بالعسف في السيرة .

٢ - جور العمال فيما يجبونه من الاموال .

٣ - كتاب الدواوين ، فيتصفح أحوال ما وكل إليهم .

٤ - تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم . وإجحاف النظر بهم .

٥ - رد الغصوب ، سواء كانت سلطانية تغلب عليها ولاة الجور ، اوكانت مما تغلب عليها ذوو الايدي القوية .

٦ - مشارفة الوقوف (الاوقاف) فيتصفحها ليجريها على سبيلها ، ويمضيها على شروط واقفها إذا عرفها .

٧ - امضاء ما عجز القضاة أو غيرهم عن امضائه ، لعلو قدر المحكوم عليه وعظم خطره .

٨ – النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة في المصالح العامة .

٩ – مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والاعياد والحج ، والجهاد ،من تقصير فيها واخلال بشروطها .

١٠ – النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين .

وهذا يبين لنا الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة ومدى سلطة قاضي المظالم .

دار العدل ومجلس القاضي : كان القاضي يجلس في داره أو في المسجد أو في السوق ، وربما ركب وتجول في البلد ، ويقف حيث يُطلب للقضاء . وأول من بنى داراً خاصة للقضاء الملك العادل نور الدين زنكي في دمشق وأسماها دار العدل . كما فعل ذلك من بعده الأيوبيون في مصر . ثم انتشرت بعد ذلك في سائر الأمصار .

وكان القاضي يبعث حاجبه إلى موضع جلوسه فيحفظ من جاء أولاً فأولاً ، فيقدمهم على هذا الترتيب حتى يأتي القاضي للفصل في الخصومات ولا يقدم أحداً على من جاء قبله لفضل منزلته أو سلطته ، ويقعد الرجال على حدة والنساء على حدة . وكان للغرباء ميزة في أن القاضي يقدمهم على غيرهم في معالجة الأمور .

مساعدو القاضي : كان يساعد القاضي في أعماله :

١ – الحاجب : الذي يرسله إلى موضع جلوسه ليحفظ ترتيب المتقدمين

٢ – الجلواز : أو الشرطي ، يتقدم على رأس القاضي لتهذيب المجلس، وبيده سوط يؤدب المنافق وينذر به من يخل بآداب المجلس.

٣ – الكاتب : لتدوين أقوال المتخاصمين وتسجيل الأحكام .

٤ – الخازن : لحفظ إضبارات الدعاوى .

٥ - الأعوان : يرسلهم القاضي لاحضار الخصوم .

٦ - الترجمان : لنقل أقوال الأعاجم إذا كان في بلد يكثر فيه من لايحسن العربية ويكفي واحد والاثنان أفضل .

٧ - العدول : أي الشهود الذين يعتمد القاضي عليهم وقد نشأت مهمتهم لما تكاثر شهود الزور . من شأن أصحابها :

آ - أن يكتبوا للمتعاقدين عقوداً صحيحة على وجه الشرع ويشهدوا عليها.

ب - أن يشهدوا أمام القضاء بما يقع من الأمور في حضرتهم

حـ - أن يكشفوا للقاضي عن حقيقة الشهود الذين يسمعهم المتخاصمون فإما ان يزكوهم فتقبل شهاداتهم وإما أن يجرحوهم فترفض .

٨ - أهل الشورى : وهم من أهل الفقه والعلماء (وكانت لهم دار خاصة في قرطبة) يرجع اليهم القاضي في تقرير الاحكام ويستشيرهم إذا عصى عليه أمر كي لا يقع في خطأ . إلا أنه يستشيرهم أمام الخصوم .

القضاء واهل الذمة : يقضي الدين الاسلامي باحترام حريـــة الأديان السماوية ، فأوامر القرآن والسنة صريحة في تقرير المساواة التامة بين المسلمين والذميين في جميع المعاملات وتحض على العمل في قضائهم بمقتضى أحوالهم الشخصية . فقد قال تعالى : « فإن جاؤوك فاحكم بينهم أوأعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين » . ومن هذه الآية الكريمة نعلم أن الذميين كانوا غير مجبرين على العمل باحكام الشريعة الاسلامية ، بل كانت لهم الحرية في اتباع أحكام دينهم في كل المسائل حتى في الجنائية منها . وهو ما يستفاد من قوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » وقال تعالى « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ».

وتشير المصادر إلى حوادث كثيرة كان الذميون فيها يتقاضون لدى القاضي المسلم الذي يفصل في أمورهم سواء كان الخصم مسلماً أو غير مسلم.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر قسمها إلى عدة مناطق وعين على كل منطقة قاضياً قبطياً يفصل في النزاع الديني والمدني لغير المسلمين ، وفق شرائعهم ، لانه أكثر فهماً لحالتهم ولاخلاقهم . واذا وقع نزاع بين عربي وقبطي عرض النزاع على مجلس مؤلف من قضاة الطرفين .

شروط القاضي وتعيين القضاة : كان يشترط في القاضي شروط كثيرة وهي :

١ ـ **الحرية** : لأن العبد لايملك الولاية على نفسه فمن باب أولى أن لا يملكها على غيره .

٢ ـ **العقل** : أي العقل الذي يجعل صاحبه صحيح التميز ، جيد الفطنة ، بعيداً عن السهو والغفلة يتوصل بذكائه إلى إيضاح ما أشكل .

٣ ـ **البلوغ** : لأن الصبي ناقص التميز وليس له ولاية على نفسه فلا يعقل أن تكون له ولاية على الناس .

٤ ـ **الاسلام** : ويجوز تقليد غير المسلم القضاء بين أهل دينه

٥ ـ **العدالة** : يفسرها الماوردي بقوله : « أن يكون صادق اللهجة ، صادق الأمانة ، عفيفاً عن المحارم ، متوقياً المآثم ، بعيداً عن الريب ، مأموناً من الرضا والغضب .. »

٦ ـ **سلامة السمع والبصر والنطق**

٧ ـ **العلم** : أي أن يكون عارفاً بأسرار التشريع وأن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره بتفسير أو تأويل . وبعضهم أجاز تولية الأمي القضاء إذا كان صحيح الفهم ولا يوجد في البلد أصلح منه .

٨ ـ الذكـورة : أي ليس المرأة أن تتولى القضـاء في أي شيء . ولكن أبا حنيفة أجاز قضاءها فيما يصح فيه شهادتها .

هذه هي الشروط ، إنما يجب أن تتوفر في القاضي صفاة لابد منها لينجح في عمله كالفهم في الوقائع والاستـدلال بالامارات وشواهـد الحـال ومعرفة بالفراسة مع جودة القريحة وحدة النظر .

ويروى عن فطنة وذكاء القضاة قصص كثيرة منها : أن شريحاً بن الحارث (توفى سنة ٧٨ هـ) قاضي الكوفة جاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها وبكت فقال له أحدهم يا أبا أمية ما أظن هذه البائسة إلا مظلومـة فقال ان إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون .

ويروى عن نباهة القاضي إياس (توفى ١٠٤ هـ) قاضي الكوفة أن رجلاً أودع عند آخر مالاً فجحده . فسأله فانكر ، فقال المدعي . أين دفعت إليه ؟ فقال : في مكان في البرية . فقال : وما كان هناك ؟ قال : شجرة . قال : اذهب إليها فلعلك دفنت المال عندها ونسيت فتتذكر اذا رأيت الشجرة ، فمضى وقال للخصم : اجلس حتى يرجع صاحبك . وإياس يقضي وينظر إليه ساعة بعد أخرى ثم قال له : يا هذا أترى صاحبك بلغ مكان الشجرة ؟ قال : لا . قال : يا عدو الله انك خائن : قال : اقلني أقالك الله . فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال له إياس : اذهب معه فخذ حقك منه .

ويروى عن نزاهة القضاة أن قاضي مصر ابن عبد السلام (المتوفي ٧٠٢ هـ) افتى بشيء ثم ظهر له أنه أخطأ فنادى في المدينة عن نفسـه : من أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فانه أخطأ .

أما في تعيين القضاة فان عمر بن الخطاب قال ما من أمير عين واليـاً

أو استقضى قاضياً محاباة إلا كان عليه نصف ما اكتسب من الاثم . وان أمرّه أو استقضاه لمصلحة المسلمين كان شريكه فيما عمل من طاعة الله تعالى ولم يكن عليه شيء مما عمل من معصية .

كان الخليفة نفسه هو الذي يختار القاضي في العاصمة ؛ أما في الأقاليم فكان الوالي يفعل ذلك . وكانوا في المدن الكبرى يعينون عدة قضاة . كما كانوا يعينون قاضياً للعسكر في مصر للفصل في خصومات الجند .

وكانت عادة الخليفة إذا أراد أن يعين قاضياً أن يكتب له سجلاً (مرسوماً) وفيه يبين فضله واحتياج الناحية إلى قضائه . وكان هذا السجل يقرأه أحد اتباع القاضي على المحتشدين احتفالاً بالقاضي الجديد في المسجد ثم يسلمه سجل الخليفة .

ثم صار قاضي القضاة بعد احداث هذا المنصب زمن الرشيد هو المسؤول عن تعيين القضاة والمشرف على امورهم .

قال النبي ﷺ : « اذا حكم الحاكم فأصاب فله أجران وان اخطأ فله أجر » . ومع ذلك كان الفقهاء ينظرون إلى القضاء كواجب يصعب على الانسان القيام به بطريقة ترضي الله والعباد لكثرة اشغاله وخطورة مسؤوليته . وكانوا إذا عرض عليهم تخوفوا منه وتهربوا عنه . وكان من أسباب تخوفهم بعض الأحاديث مثل « قاض في الجنة وقاضيان في النار » « ومن استقضى فقد ذبح بغير سكين » إلا أن العلماء يقولون ان مثل هذه الأحاديث موجه للقضاة الظالمين الجائرين الجاهلين . ويراد بالحديث الأخير ان القاضي ذبيح الحق .

ومن مشاهير الفقهاء الذين رفضوا القضاء الامام أبو حنيفة ، فقد عرض عليه قضاء الكوفة في آخر زمن الامويين فأبى ، فكان الوالي ابن هبيرة

يضربه في كل يوم عشرة أسواط مدة عشرة أيام فلما رأى امتناعه تركه . وفي زمن العباسيين دعاه المنصور إلى القضاء فأبى ، فسجنه .

رواتب القضاة وملابسهم : عمر بن الخطاب هو أول من رتب ارزاق القضاة فجعل للقاضي سليمان بن ربيعة الباهلي (٥٠٠) درهم في الشهر ورتب لشريح قاضي الكوفة مائة درهم مع مؤونته من الحنطة . أما الإمام علي فقد قال لعامله على مصر : أفسح للقاضي في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس . ورتب لشريح (٥٠٠) درهم في كل شهر .

وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك زمن الراشدين . أما في عهد الامويين فقد تصاعدت رواتب جميع موظفي الدولة ومنهم القضاة . وكان راتب القاضي في عهد مروان بن محمد (١٠) دنانير في الشهر .

فلما كانت أيام العباسيين أصبح راتب قاضي مصر في الشهر مثلا (٣٠) ديناراً . ثم تصاعد الراتب زمن المأمون وأصبح (٤٠٠٠) درهم أي نحو (٢٧٠) ديناراً شهرياً . وربما كان ذلك لسبب خاص اذ بعد ذلك عاد الراتب إلى (١٠٠٠) دينار في السنة ثم تدنى إلى (٥٠٠) زمن المعتضد .

ومن بعد ذلك دخل القضاة في الالتزام مثل الخراج . وأول ماجرى ذلك في أيام معز الدولة بن بويه سنة (٣٥٠ هـ) فقد التزمه ابن ابي الشوارب وسمي قاضي قضاة بغداد على أن يؤدي (٢٠٠٠٠٠) درهم كل سنة .

لم يكن للقضاة زي مخصوص قبل عهد قاضي القضاة أبي يوسف إذ أنه ميزهم بلباس خاص يعرفون به . ويقول القلقشندي : كان القضاة والعلماء يلبسون العمائم من شاشات كبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق طرف سرجه إذا ركب ، ومنهم من يلبس فوق ثيابه دلقاً متسع الاكمام طويلها ، مفتوحاً فوق كتفيه سابلا على قدميه . ويتميز قاضي

القضاة الشافعي والحنفي يلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره . وان كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم الصوف الأبيض . ويلبسون الخفاف من الادم الطائفي .

وكان القضاة يركبون البغال النفيسة المساوية في الاثمان لمسومات الخيول بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة ، ويجعلون حول السرج فرجية من جوخ . وكان قاضي القضاة في الدولة الفاطمية يقدم له من اصطبلات الخليفة بغلة شهباء يركبها دائماً وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة .

الكاتب، صورة تزين كتاب «رسائل اخوان الصفا»



الفصل الحادي عشر

الحسبة

اصل الكلمة في اللغة ولدى الفقهاء : اختلف الكتاب في معنى كلمة المحتسب فبعضهم يقول انها مشتقة من قولهم حسبك بمعنى اكتف لأن المحتسب يمنع الناس من الغش وارتكاب المحظورات . وفي القاموس المحيط : « احتسب عليه ، أنكر ، ومنه المحتسب » ويقال فعلت هذا الأمر حسبة لله واحتسبته عند الله . أي جعلت حسابي عليه وأجرى منه . أما الفقهاء فيقولون : إنها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وكذلك عرفها ابن خلدون بقوله « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين » .

وعرفها ابن تيمية بأنها « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من اختصاص الولاة والقضاة والديوان ونحوهم » فالمحتسب على رأي ابن تيمية « يأمر بالجمعة والجماعات ، وبصدق الحديث وأداء الأمانات ، وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلـك والغش يدخل في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع ، كما يدخل في الصناعات » .

منشأ الحسبة : تضاربت أقوال المؤرخين في منشأ الحسبة. فالبعض يقول : ان الرسول ﷺ كان أول محتسب إذ نهى عن الغش حين قال : من غشنا ليس منا. وورد في صحيح مسلم : أن الرسول عليه السلام مر على صبرة طعام فأدخل يده بها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : ماهذا يا صاحب الطعام ؟ فقال أصابته السماء يا رسول الله . قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس منا .. ويروى أن الرسول عليه السلام ولى سعيد بن سعيد بن العاص على السوق بعد فتح مكة . وولى عمر بعده أم الشفاء الانصارية على السوق، وربما كان لأمور تتعلق بالنساء ؛ ولذلك يقول آخرون بأن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحسبة . وكان يطوف الشوارع والأسواق ودرته معه (هي من جلد البقر أو الجمل محشوة بنوى التمر) فمتى رأى غشاشاً خفقه بها مهما يكن شأنه وربما اتلف بضاعته .

لانشك بأن الخلفاء والأمراء كانوا يقومون بعمل المحتسب من مراقبة التجار وأرباب الحرف بمنع الغش واستعمال المكاييل والموازين الصحيحة الخ . ولكن القصد متى عيّن للحسبة موظف مخصوص ؟

اجمع المؤرخون على أن الحسبة نشأت في العهد العباسي . ولكنهم اختلفوا في تحديد تاريخ نشوئها . فبعضهم يجعلها في عهد الرشيد وآخرون يجعلونها في أيام المهدي أو الهادي أو المأمون .

ولكن المرجح أنها كانت معروفة زمن المنصور إذ جاء في تاريخ الطبري عن اخبار سنة (١٤٦ هـ) .. أن رجلاً يقال له أبو زكريا ولاه المنصور حسبة بغداد والأسواق ..

الحسبة والقضاء : يقول ابن خلدون : « ان الحسبة خادمة لمنصب القضاء » . وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية « في مصر والمغرب والأندلس » داخلة في أعمال القاضي يولي بها باختياره من يقوم عليها .

وكانت الحسبة تجمع أحياناً إلى منصب آخر غير القضاء ، فنجم الدين الانصاري مثلاً كان (٦٥٧ هـ) وكيل بيت المال في دمشق ومحتسباً .

كما كانت تجمع إلى الشرطة أيضاً . اذ يروى أن اتابك سلطان دمشق طلب محتسباً ، فذكر له رجل من أهل العلم فأمر باحضاره فلما نظره قال : إني وليتك أمر الحسبة على النـاس بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ان كان الامر كما تقول فقم عن هذه الطراحة وارفع المسند فانهما حرير واخلع هذا الخاتم فانه ذهب وقد قال النبي ﷺ . هذان حرام على ذكور أمتي ، حلّ لاناثها . فنهض السلطان عن طراحته وأمر برفع المسند وخلع الخاتم من اصبعه وقال : ضممت إليك النظر في أمور الشرطة .

ثم تنزيهاً للقضاء وتخفيفاً من الأعمال الكثيرة أفرد موظف خاص للحسبة .

اعمال المحتسب : أعمال المحتسب كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينيـة وعمرانية وأخلاقية ؛ ولا نجد في الوقت الحاضر موظفاً حكومياً أو دائرة رسمية لها سلطة شبيهة بسلطة المحتسب ، فانه يشبه رئيس البلدية ومدير الاعاشة ورئيس الشرطة الاخلاقية ومدير الشؤون الاجتماعية وغير ذلك من الوظائف .

ويمكن أن نجمل أعمال المحتسب بالنواحي التالية :

١ ـ **مراقبـة التجـار وارباب الحرف** : أي مراقبـة كل صاحب مهنة يتكسب منها ، مهما يكن نوع هذه المهنة ، حتى أنـه كان يراقب الأطباء ويأخذ عليهم عهد أبقراط . ويجبر الطبيب على دفـع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفه . وكانت الشروط التي توضـع على الخبازين في النظافة لاتجد لها مثيلاً في الوقت الحاضر .

جاء في كتاب معـالم القربة في احـكام الحسبة لابن الاخوة القرشي في فصل الحسبة على الفرانين والخبازين : « ينبغي ان يأمرهم المحتسب برفع سقائف افرانهم ، ويجعل في سقوفها منافس واسعة للدخان ، ويأمرهم

بكنس بيت النار كل تعميرة ، وغسل المعاجن وتنظيفها .. ولا يعجن العجان بقدمه ولا بركبته ولا بمرفقيه ، لان في ذلك مهانة للطعام وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه او بدنه .

ويراقب المحتسب ما يغشون به الخبز من الكركم والزعفران ، فانها يوردان وجه الخبز . ومنهم من يغشة بالحمص والفول . . ويلزمهم الا يخبزوه حتى يختمر ، فان الفطير يثقل في الميزان والمعدة ، وكذلك اذا كان قليل الملح .. ولا يخرجون الخبز من بيت النار حتى ينضج نضجاً جيداً من غير احتراق ... » ويجب ان يكون العجان ملثماً لانه ربما عطس أو أو تكلم . . ويشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين . وإذا عجن في النهار فليكن عنده انسان على يده مذبة يطرد عنه الذباب .

٢ – مراقبة الاسعار والموازين والمنكرات الاقتصادية :

يرى ابن تيمية ان من وظيفة المحتسب مراقبة المنكرات الاقتصادية ، مثل عقود الربا والميسر ، وبيع الغرر .. والنجش وهو زيادة في ثمن السلعة لمن لا يريد شراءها كما يفعل الكثيرون في المزايدات .. وتحديد اسعار المواد الغذائية والضرورية فقال : « لولي الأمير ان يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس اليه ، مثل من عنده طعام لايحتاج اليه والناس في مخمصة (مجاعة) فانه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل .. وما احتاج الى بيعه وشرائه عموم الناس فانه يجب ان لا يباع الا بثمن المثل اذا كان الحاجة إلى بيعه وشرائه عامة . . » وعلى المحتسب منع الاحتكار ، والمحتكر هو الذي يعمد الى شراء ما يحتاج اليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد إغلاءه عليهم ، وهو ظلم للخلق . .

وابلغ من هذا ان يكون الناس قد التزموا الا يبيع الطعام او غيره الا أناس معروفون . فهنا يجب التسعير عليهم بحيث لا يبيعون الا بقيمة المثل ، ولا يشترون الا بقيمة المثل . ومن المنكرات تلقى السلع قبل ان تجيء الى السوق فان النبي عليه السلام نهى عن ذلك لما فيه من تغرير البائع ، فانه لا يعرف السعر فيشتري منه المشتري بدون القيمة ..

كما ذكر البلاذري انه كان من عادة الامام علي بن ابي طالب ، ان يطوف بسوق الكوفة وبيده الدرة ، ويراقب الاوزان والمقاييس المستخدمة فيها ، حتى يمنع التلاعب بها .. كما يروى ان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك طاف بنفسه في اسواق دمشق وراقب الموازين والمكاييل ، وامر بتخفيض الاسعار ، رغم أن هذه المراقبة كانت من واجب « المحتسب » .

٣ ـ **مراقبة الاخلاق العامة** : كمنع شرب الخمور علنا ومنع الناس من تطيير الحمام ومنع السحار والكهان عن منكراتهم ومنع تعرض الرجال للنساء الخ ...

وقد جاء في كتاب معالم القربة : وكذا طرح الكناسة على جوار الطريق ، وتبديد قشور البطيخ ، او رش الماء بحيث يخشى منه التزحلق والسقوط ، وكذا إرسال الماء من المزاريب المخرجة من الحائط الى الطرق الضيقة ، فان ذلك ينجس الثياب ، ويضيق الطريق ، وكذا ترك مياه المطر والاوحال في الطريق من غير كسح ، فذلك كله منكر ، وليس يختص به شخص معين ، فعلى المحتسب ان يكلف الناس به .

٤ ـ **مراقبة العبادات** : اذ يأخذ المحتسب المسلمين بصلاة الجمعة والجماعة والأعياد ويمنعهم من الافطار في رمضان . ويعنى بنظافة الجامع وهيبته . حتى ان أحد المحتسبين في بغداد منع القاضي من الجلوس في

الجامع حرصاً على نظافته من المتخاصمين « ... وانه لتدخل المرأة اليك ومعها الطفل فيبول على الحصير . أو يأتيك رجل غير منتعل يكون قد مشى في المواضع القذرة فيطأ الحصير ودارك أولى ».

٥ - **مراقبة الابنية والطرقات** : فيأمر بهدم الابنية البارزة ، ويمنع فتح النوافذ في الابنيـة التي تشرف على غيرها . ويدعو أصحاب الدور المتداعية إلى هدمها ورفـع انقاضها . ويراقب متقاعد الاسواق (البسطات) فيمنـع ما يضر منها بحركة المرور .

٦ - **اعمال مختلفة** : اجبار السادة بمعاملة عبيدهم وامائهـم معاملة حسنة وأخذ أرباب البهائم بعلوفتها وان لا يستعملوها في ما لا تطيق (يكون المسلمون قد سبقوا بمئات السنين جمعيات الرفق بالحيوان التي يدعي الغربيون أنهم أول من أنشأهـا) والسهر على الاطفـال اللقطاء والتكفل بهم . وجمع وحفظ الأشياء الضائعة وإعادتها إلى اصحابها .. ومنع معلمي المكاتب من ضرب الصبيان ضربا مبرحا ، ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل.

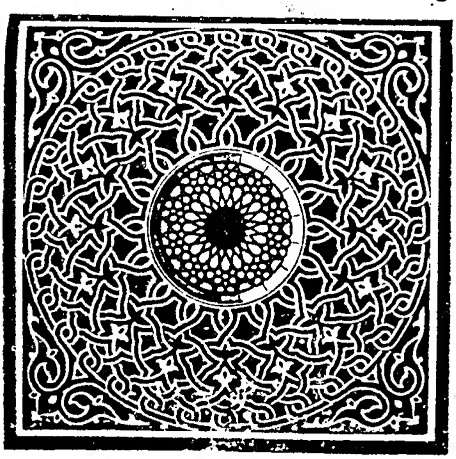
مجلس المحتسب وراتبه : كان للمحتسب دار خاصة به تسمى دار الحسبة يقيم فيها ويصرف منها جميـع أعماله . فهو اما ان يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم فيعايرها . أو يرسل نوابه في الشارع لتفقد الاحوال فيها . وكان أحيانـاً أخرى يخرج ويطوف بنفسه في الاسواق ويراقب نظامهـا ويعاقب المخالفين . ويمنع المنكرات ويزجر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامـة في المدينة ، ولايتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك او يرفع إليه.

وتذكر المصادر ان مجلس المحتسب يكون احياناً في المسجد . ففي

مصر مثلا كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والأزهر وكان يتقاضى راتباً شهريا قدره (ثلاثون دينارا).

العقوبات: كانت عقوبات المحتسب: اتلاف البضائع الفاسدة. اراقة الخمور. منع التاجر الغشاش من العمل واعلان اسمه ليتجنبه الناس. وأما الضرب والحبس والتعنيف فكانت أموراً مألوفة. كذلك كان يستعمل عقوبة (التجريس) اي التشهير ببعض الصناع الذين يسيئون الائتمان ويغشون، وذلك بان يركب المذنب على جمل أو حمار من الخلف ويطاف به في الاسواق ويحلل بلباس خاص يحوي الكثير مما يلفت أنظار الناس كالاجراس وأذناب الثعالب. وتتبعه افواج الصبيان ينعتونه باعنف الاوصاف وينالون من شرفه وكرامته بشكل لا يقوم له بعد ذلك كيان. فقد ذكر انه اذا كذب احد التجار في مصر على عهد الفاطميين، على أحد المشترين أو باع باكثر من الثمن، فانه يدفع بالتاجر على جمل، ويعطى جرساً بيده، ويطوف به في المدينة وهو يدق الجرس ويقول: قد كذبت وها انا اعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب.

وكان المحتسب يستعين بطائفة من الموظفين لتنفيذ العقوبات على المستحقين لها يسمون «الاعوان».



الفصل الثاني عشر

النظام العسكري ــ الجيش

المقاتلون في صدر الاسلام : لم يعتد العرب في جزيرتهم ترتيب الجيوش المنظمة ، كما كان عند الأمم الاخرى كالفرس والرومان ، او عند العرب القدماء كالآشوريين والمصريين والفراعنة وغيرهم ، بل كان كل شاب قادر على حمل السلاح يفزع مع قبيلته ويسير للغزو ، حاملاً سلاحه التقليدي من سيف وترس ورمح وقوس ، ولم يعرف تنظيم الجيوش منهم إلا من كان باحتكاك دائم مع الدول المجاورة كالمناذرة والغساسنة الذين كانت لهم فرق خاصة للقتال . فقد ذكر أن المناذرة اتخذوا كتيبتين دعيت إحداهما الدوسر ، ودعيت الثانية الشهباء . ولما جاء الإسلام وأمر المسلمون بالقتال ، أرسل الرسول أصحابه للتعرض لقوافل قريش ثم قام بالحروب ضد الجاهليين ، فصار يقود بعض المواقع بنفسه ، ويرتب رجاله قبيل القتال ، ويضع الكمين ، ويأمر بعض الأفراد بالتريث في الهجوم ليفاجئوا العدو ... ونبغ في عهده كثير من القادة العرب الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم على الدفاع عن الدين الجديد ونشره . وأهم القادة خالد بن الوليد المبتكر والمبدع في فنون القتال ، الذي

قسم جنده إلى فئات ، وكان يرسل الامداد تلو الامداد في بعض المواقع حتى يدخل في روع العدو كثرة عدده أو يبدل مواقع الميمنة والميسرة والقلب ، ليشعر عدوه بحلول فرق جديدة بدل القديمة ، حتى يمكن اعتباره بالنسبة لفنون القتال العربية في الصحراء مبدعاً في خططه وأعماله ، كما يعتبر الاسكندر المقدوني ، وفريدريك الأكبر ونابليون بونابرت مبدعين في الفنون العسكرية في أيامهم ...

الجهاد في الاسلام : كان القتال محرماً على النبي ﷺ قبل الهجرة لضعف المسلمين وقلة عددهم . وكان يدافع عن مبادئه بالحجة والبرهان والنصح والاقناع . هكذا أمره تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به » أي بالقرآن .

فلما اشتد اذى قريش هاجر النبي الى المدينة ، وكثر عدد المسلمين فيها ، وأصبحوا أهلاً للدفاع عن انفسهم بالحرب والنزال والله كفيل بنصرهم وتأييدهم (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وان الله على نصرهم لقدير) .

وكانت أهم الاسباب التي دفعت المسلمين الى الحروب هي :

١ ـ الدفاع عن النفس رد المغيرين . (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين) .

٢ ـ تأمين الدعوة والدفاع عنها .

٣ ـ محاربة من ينقض العهد .

٤ ـ رد الامن الى نصابه اذا قامت الفتن والثورات .

٥ ـ فتح الفتوح وتوسيع رقعة البلاد .

٦ ـ الدفاع عن الرأي الذي يراه المسلمون صالحاً لاستقامة الامور كما جرى في عهد عثمان لما حصلت الفتنة .

وكان النبي ﷺ يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته يخدمن

الجرحى ويهيئن الطعام ويقدمن الماء ويخطن الثياب والقرب ويحمسن من يحتاج الى تحميس ،واشتهر منهن : رفيدة الاسلمية وأختها كعبة ونسيبة بنت كعب المازنية التي ردت عن النبي ﷺ ضربة تلقتها بجسمها في معركة أحد فجرحت جرحاً أجوف له غور .

وصايا امراء الجيوش :

استن الرسول عليه السلام لمن بعده من حكام المسلمين ، أن ينصحوا الجيوش الغازية ، ويعظوا القادة ، فكان عليه السلام يوصي سراياه المقاتلة أحسن الوصايا من ذلك ما روي عنه قوله : « أغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغرروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً » وكان عليه السلام ينهى في مغازيه عن النهبة فيقول : من انتهب نهبة فليس منا » كما قال في صدد منع التفريق في السبي بين الولد ووالدته : « من فرّق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » .

وقلّده أبو بكر ، فأوصى جميع الجيوش الإسلامية الغازية أو الذاهبة لإعادة الإسلام بين المرتدين ، ومن قوله إلى جيش أسامة بن زيد : « أيها الناس ! قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغرروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع دعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكتب أبو بكر إلى قواده في حرب الردة عهداً صورته واحدة قال فيه : « هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ (لفلان ....) حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره ، كله ، سره وعلانيته . وأمره بالجد في أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه

ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان ، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقروا له .... وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم . وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل . ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول » .

ومن وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص حين أنفذه لفتح العراق : « وترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم سيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامي الأنفس والكراع (الخيل) . وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمّون (يصلحون) ، أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو ، فأذكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يخفَ عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم . واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة . واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص أحداً بهوى ،

فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ، أو نكاية ، فإذا عانيت العدو فاضمم إليك أقاصيك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك . ثم أذكِ حراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك » .

الجندية الاجبارية : وإذا كان جمهرة المسلمين تطوعوا راغبين في الجهاد امتثالاً لأوامر الله ، وحباً في النصر في الدنيا أو جنات النعيم في الآخرة ، فإن فئة منهم تقاعست عن واجبها حتى في عهد الرسول ﷺ فدعيت بالمنافقين ، وفئة أخرى اندفعت للقتال بعدما رأت ما يفتح الله على يديها من بلاد ، وما تغنم من أموال ومتاع وزخرف الحياة ، ولما ندب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب المسلمين لحرب الروم والفرس لاحظ تقاعس بعض الناس رهبة من هاتين الدولتين الكبيرتين ، فعمد إلى الحزم في التجنيد فأرسل كتبه إلى الأقاليم لتجنيد المقاتلة ذكر فيها « ولا تدعوا ... أحداً من أهل النجدة ، ولا فارساً إلا جلبتموه ، فإن جاء طائعاً ، وإلا حشرتموه » ولما وضع عمر الديوان سجل فيه أسماء المسلمين جميعاً ورتب لهم أرزاقهم السنوية ، وأفرد للجند منهم دفاتر خاصة هي « ديوان الجند » تدفع لهم فيها رواتب من بيت المال ، إضافة إلى ما يصيبهم من الغنائم من أسهم ، وكان على هؤلاء تلبية داعي الجهاد كلما دعا إلى ذلك ، مع بقاء باب التطوع لمن يريد ممن لم يذكر في الديوان من سكان البوادي والأمصار . ولما قامت الحروب الداخلية أيام الخلاف بين علي ومعاوية ثم من بعدهما ، انضم إلى كل فئة فريق من المحاربين ، ووقف فريق آخر موقف الحياد ، ولكن بعد استتباب الأمر للأمويين ، لم ير الخلفاء بداً من إجبار الناس على الجهاد حسب أوامر الخليفة ، وكان أول

من شعر بذلك هو الخليفة عبد الملك بن مروان عندما أراد أن يخمد الثورات التي قامت في عهده ، وقام الحجاج والي العراق بتطبيق مبدأ الجندية الاجبارية ، يدلنا على ذلك خطبته في أهل العراق عندما أمرهم بمحاربة الخوارج مع جيش المهلب بن أبي صفرة وقوله فيها : « وإني والله لا أجد رجلاً تأخر بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه » وقيل إن الرجل صار يسرع إلى معسكر الجيش قبل أن يستكمل معداته ويهيء طعامه - إذ كان الجندي يؤمن جميع معداته ووسائل حياته لا الحكومة - ويطلب إلى أهله أن يوافوه بها في المعسكر العام خارج المدينة خوفاً من انتقام الحجاج منه ، وهذا أول الجندية الاجبارية ، ثم صار من بعد ذلك لدى الدولة الاموية نوعان من الجيوش : الدائمة ودعيت بالمرتزقة ، والاحتياط أو المطوعة ، وهي التي تتطوع للقتال في الايام العصيبة .

واصبحت الجندية في العصر العباسي - كما يقول ابن الاثير في الكامل ؛ « مهنة مربحة ، وكان الجند يترقبون المرتبات فان سلمت إليهم في إبانها والاشغبوا على من أخرها ، وربما قتلوه . كما كانوا لجشعهم ينتهزون ادنى المناسبات للمطالبة بالمال ، والشطط في ذلك إلى حد المطالبة بثلاث سنين مقدماً أو اكثر » ويصف في موضع آخر ، كيف اشترط احد قادة الأمين على على الخليفة حين امره بالخروج لملاقاة جيش الامين منها : « أن يأمر لاصحاب هذا القائد برزق سنة مقدماً ، وتحمل معهم ارزاق سنة أخرى ، ويزاد أهل البلاء ، وان لا يسأل الخليفة قائده عن حساب ما فتحه من المدن والاقاليم » وهل بعد هذا تعسف من قائد عسكري تجاه خليفة ؟

ادخال العناصر غير العربية في الجيش : وإذا كان اعتماد الجيوش العربية في عهد الراشدين والامويين على العصر العربي فقط ، فان العباسيين

اعتمدوا على العناصر غير العربية ، فألفوا منهم فرقاً خاصة كالفرق الفارسية والتركية ، وأبقوا لديهم المماليك ، وعرفت بعض الفرق الخراسانية بالاشروسية كما أطلق على سكان الجوف من مصر اسم المغاربة ، وقد أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء . وشهد العصر العباسي نزاعاً بين العنصرين العربي والاعجمي رؤيت آثاره في كثير من حوادث ذلك العصر ، كمقتل أبي سلمة ، وأبي مسلم ، ونكبة البرامكة ، والنزاع بين الأمين والمأمون ، وقتل هرثمة بن أعين القائد العربي ، وقيام الدولة الحمدانية العربية ، وكانت نتيجة هذا النزاع أن اضمحل النفوذ العربي وتسلط الاعاجم على الدولة ، واحتفظ الخليفة بسلطته الدينية الرمزية فقط .

المعسكرات : كان المسلمون في بادىء الامر يجرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا عليه في جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط وحوله فساطيط الأمراء والخاصة ، وإذا كانت النساء والاولاد معهم جعلوهم وراء المعسكر . وقد منع عمر بن الخطاب الجنود من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة وأمرهم أن يسكنوا في معسكرات خاصة تقام في ضاحية المدينة على ألا يكون بينهم وبين الخليفة بحر أو نهر . ولذلك لم يقم جند العراق في المدائن عاصمة كسرى بل أقاموا على ضفاف الفرات مما يلي بادية الشام في البصرة والكوفة . ولم يقم جند مصر في الاسكندرية عاصمة البلاد بل في بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط على شاطىء النيل الشرقي قرب موقع القاهرة اليوم .

وبازدياد عدد الجنود والحاشية صار المعسكر أشبه ببلد فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون وأرباب الحرف والأتباع وغيرهم .

وكان للعرب على حدود دولتهم من جهة البر والبحر ، وخاصة بينهم وبين البيزنطيين ، معسكرات دائمة ، بل مدن محصنة دعيت بالثغور والعواصم ،



شكل ـ ٥ ـ معسكر اسلامي في القرن الثامن الهجري

فيها الحاميات والاسلحة ، يكون فيها الجند على أهبة الحرب للدفاع عن حدود المملكة أو الهجوم على العدو وغزو بلاده . وأشهرها : طرسوس وبياس ومرعش وملطية ومنبج ورفح والعريش ودمياط والاسكندرية في مصر .

التدريب العسكري : كان اهتمام العرب في الجاهلية للتدريب على القتال اهتماماً كبيراً فحياتهم البدوية نفسها من تقشف وتنقل وغزو ودفاع عن النفس هي عبارة عن مران حربي دائم . وكان أفراد القبيلة يتمرنون منذ حداثتهم على لعب الرمح ورمي النشاب وركوب الخيل وأساليب الدفاع عن النفس .

ثم لما تنظموا في زمن النبي ﷺ وتوحدت صفوفهم أصبحت الضرورة تقضي بالاستعداد والتأهب لقتال الاعداء . وقد وردت أحاديث كثيرة تدعو إلى ذلك منها :

« ... فارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا .... » « ومن ترك الرمي بعد ما علمه فإنما هي نعمة كفرها » « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » .

وكانت للعرب ألفاظ ومصطلحات خاصة لكل حركة من حركات الجيش منها : الميل . الانقلاب . الانفتال . استدارة صغرى وكبرى . رجوع إلى الاستقبال . استدارة مطلقة . اتباع الميمنة . اتباع الميسرة . جيش منحرف . جيش مستقيم . تقدم . الخ ..

فكانوا إذا أراد القائد أن يميل جنده إلى جهة أو يتخذ شكلاً خاصاً من هذه الأشكال أو حركة من هذه الحركات ناداه بكلمة من هذه الكلمات .

فرق الجيش : كان الجيش العربي في بادىء الأمر يتألف من المشاة

والفرسان يحملون الرماح والسيوف والأقواس والسهام . ويلبسون الخوذ والدروع . كذلك وجد منذ عهد النبي فرقة المدرعات التي استعملت المنجنيق والدبابات والضّبور . وسنتكلم عنها في بحث الأسلحة .

ثم بتقدم ورقي الدولة العربية تنوعت أساليب القتال وتعددت الفرق حسب تنوع الأسلحة وتخصيص الأعمال . وكانت أشهر فرق الجيش التي عرفت زمن ازدهار الدولة العربية الاسلامية هي :

١ ـ **الفرسان** : وكان يتألف منهم معظم الجيوش العربية في العهود الاسلامية الأولى ، ويتسلحون بالرماح ، وتشكل منهم فصيلة من رماة السهام كان أكثر أفرادها في العهد العباسي من الخراسانيين أو من سكان شمال فارس المشهورين منذ القديم بتسديد السهام وإصابة المرمى على متن الخـ

٢ ـ **المشاة** : ويعملون عقب هجوم الفرسان .

٣ ـ **الطليعة** : هي سرية من الفرسان يلبسون الدروع والخوذ ويحملون الرماح المربوط بأسنتها باقات من ريش النعام ، يتقدمون الجيش عادة بعدة أميال .

٤ ـ **الكشافة** : يعتمد عليها للاستطلاع . وقيل أن قتيبة استخدمها أيضاً لاستحضار خرائط البلاد التي كان ينوي غزوها .

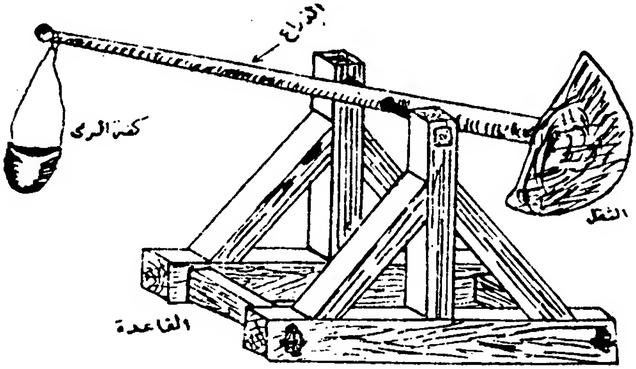
٥ ـ **الحرس الخاص** : لحراسة الخليفة أو أمير الجيش وكان أكثرها أيام الدويلات المنفصلة .

٦ ـ **الغلمان** : وهي فرقة يقوم أفرادها كخدام خصوصيين للخليفة ويتدربون على الفنون الحربية ويعيشون في ثكنات منفصلة عن ثكنات باقي الجيش بمقتضى نظام عسكري خاص ، وتشكلت هذه الفرقة بعد أن كثر اقتناء المماليك .

٧ـ النشابون او الرماة : وقد اشتهرت منهم فرقة تدعى رماة الحدق لمقدرتهم على رمي احدى عيني الغزال دون الأخرى . وجاء في العقد الفريد أن الواحد منهم كان يعلق ضباً بشجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من أعضائـه حتى يرمي فقراتـه فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها ، وكانت هـذه المهارة في الرمي مشهورة منـذ الجاهليـة إلى مختلف العصور الاسلامية .

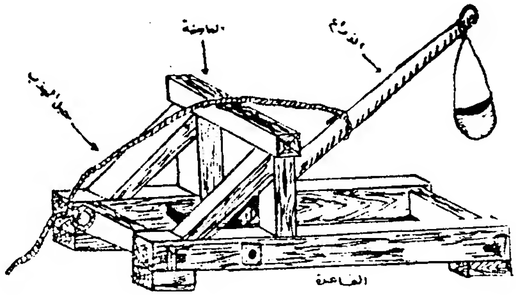
٨ ــ النفاطــون : الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء .

٩ ــ المنجنيقيون : رماة المنجنيق ويسمون أيضاً بالمهندسين وكان يطلق على رئيسهم اسم أمير المنجنيقيين . وكان من أشهرهم يعقوب بن جابر المنجنيقي الذي اشتهر في الدراسات العسكرية وألف كتاباً اسمه « عمـدة المسالك في سياسة الممالك » عالج فيه كل ناحية من نواحي الحرب كالتعبئة



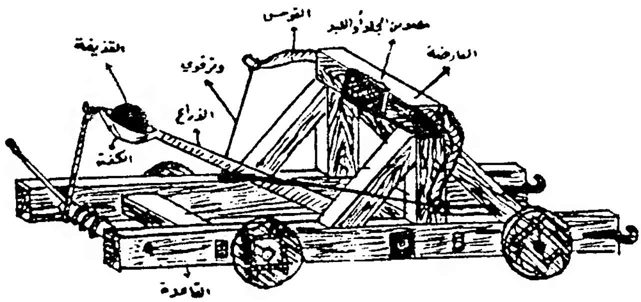
شكل ــ ٦ ــ

منجنيق ، قاعدته من الخشب السميك ، يرتفع في وسطه عمود خشبي متين ، يركب في أعلاه ذراع المنجنيق القابل للحركة ، يتدلى منه صندوق خشبي مملوء بالرصاص والحجارة والحديد .
وتقذف هذه المواد بجذب اعلى الذراع نحو الارض بقوة ويـؤمن قـوة الجـذب عـدة رجـال اشـداء



شكل – ٧ –

نموذج آخر من المنجنيق الذي استخدمه المسلمون ويمتاز باستخدام حبل يساعد على شدة القذف



شكل – ٨ –

منجنيق استعمل في عصر متأخر في البلاد الاسلامية

والاستيلاء على الحصون وتشييد القلاع والفروسية والهندسة والحصار وتركيب المكائن الحربية وصفات الخيول وأنواع الخيالة .

١٠ – **العيارون** : رماة الاحجار من المخالي .

١١ – **المعماريون** : يحملون المعاول مع السيوف والتروس .

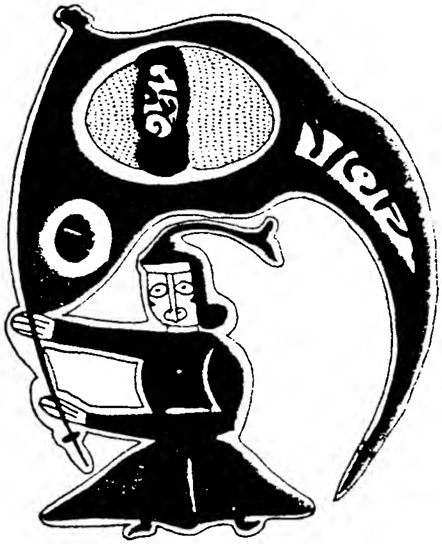
١٢ – **مستشفيات الميدان** : فيها الأطباء والصيادلة ونقالات هي عبارة عن محفات تحملها الابل .

١٣ ـ الجواسيس : وقد اعتمد عليهم العرب منذ أيام النبي ﷺ . إذ قبيل يوم حنين بعث الرسول عليه السلام عبد الله الأسلمي وأمره أن يدخل في صفوف عدوه فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق عبد الله حتى دخل فيهم وسمع منهم ما أجمعوا عليه من حرب المسلمين . ثم أتى النبي وأخبره الخبر . كما كان لقريش جواسيس على النبي أيضاً . ثم في عهد الأمويين والعباسيين كان يعتمد على رجال يتزيون بزي التجار والأطباء وغيرهم ويدخلون أراضي العدو ويتسقطون أخباره .

عدد الجند : كان عـدد الجند الاسلامي في أواخر أيام النبي ثلاثين الفاً من المشاة وستة آلاف فارس . أما في أيام أبي بكر وعمر فقد بلغ مئة وخمسين الفاً وتضاعف العـدد في أواخر أيام الراشدين . أما في زمن الأمويين فقـد بلغ عـدد جنود العراق (١٤٠٠٠٠) ومعهم من النساء والأولاد (٢٠٠٠٠٠) . وكان في مصر أربعون ألفاً ما عدا النساء والأولاد وكان جند الشام نحو ذلك غير من في فارس وغيرها .

ونجهل عدد الجند في أيام العباسيين إلا أننا نستدل من بعض الروايات أنه كان كبيراً . قيل إن الرشيد حمل على هرقلية بجيش عدده (١٣٥) ألفاً من المرتزقة عدا الأتباع والمطوعة . وروى ابن خلدون أن المعتصم نازل عمورية بجند عدده (٩٠٠٠٠٠) . وكان جند محمد بن طغج مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر (توفي سنة ٢٣٤ هـ) (٤٠٠٠٠٠) جندي وثمانية آلاف مملوك .

إمرة الجيش : كان النبي ﷺ نفسه هو قائد الجيش وكان يسند القيادة إلى غيره في بعض الأحيان . وفي زمن الراشدين أصبح من الصعب على الخليفة أن يقوم بهذه المهمة بنفسه فأخذ يختار القواد ممن عرف بالشجاعة والمقدرة والإقدام وحسن التدبير .



شكل — ٩ —
صورة حامل اللواء في الجيش ، موجودة على صحن اسلامي
عثر عليه في خرائب مدينة سامراء العباسية من صنع القرن الثالث الهجري

وجرى بعض التعديل في امرة الجيش في العهد الأموي عما كان عليه في صدر الاسلام . كما حدث تغيير في العصر العباسي أيضاً . وسنكتفي بذكر الوضع الأخير لرتب الجيش في العهد العباسي .

١ — العريف على عشرة رجال .
٢ — النقيب » » عرفاء أو (١٠٠) نفر
٣ — القائد » » نقباء أو (١٠٠٠) نفر
٤ — الأمير » » قواد أو (١٠٠٠٠) نفر

تنظيم القوات البرية لجيش المسلمين

في عهد نشر الدعوة خارج الجزيرة العربية
وتحرير عرب الاطراف
الجيش (١٠ آلاف مقاتل أو أكثر)

القائد العام (الامير)

قيادة التعبئة ٥٠٠٠ مقاتل — قيادة التعبئة ٥٠٠٠ مقاتل

كردوس ١٠٠٠ مقاتل — كردوس ١٠٠٠ مقاتل — كردوس ١٠٠٠ مقاتل — كردوس ١٠٠٠مقاتل — كردوس ١٠٠٠ مقاتل

سرية سرية — سرية سرية — سرايا (مجموعها ١٠)

١٠٠ مقاتل — ١٠٠٠ مقاتل

١٠ مقاتلين — ١٠ مقاتلين

جدول يبين قيادات المسلمين في عهد الراشدين والامويين ومقارنته بقيادات الروم والقيادات العربية الحالية

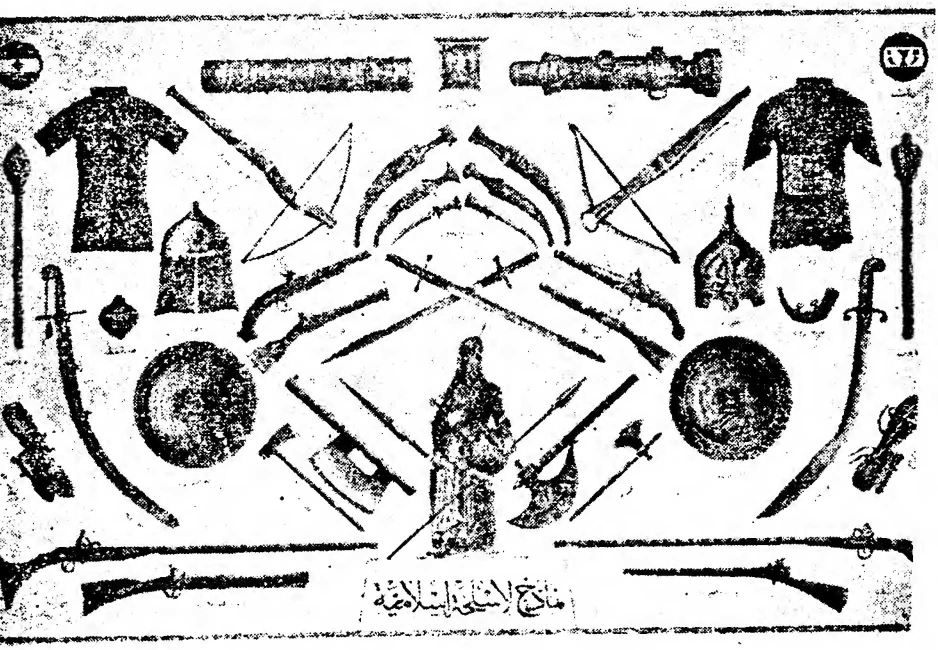
عدد المقاتلين	قيادة جيش المسلمين	قيادة جيش الروم	الرتب العربية الحالية
١٠ آلاف	أمير الجيش	بطريق	
٥ آلاف	أمير التعبئة	طومر خان	عميد
الف	أمير الكردوس	طرنجارية(درانجري)	مقدم
٢٠٠	قائد السرية	القومس	نقيب
١٠٠	النقيب	القومس	
٤٠	الخليفة	القمر طخ(القمطرخ)	ملازم
١٠	عريف	الدمرداخ	رقيب

شكل — ١٠ —

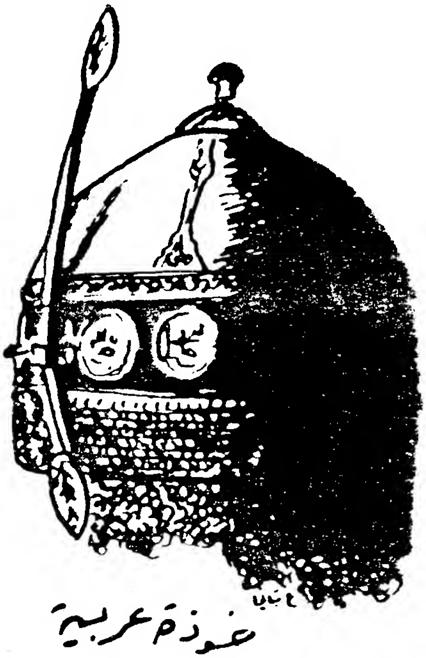
جدول لتشكيل الفرق العسكرية الاسلامية ولرتب الضباط عن مقال في مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٢١

اسلحة الجند : كانت الأسلحة التي استعملها العرب في الجاهلية هي : السيوف والرمـــاح والحراب والأقواس والسهام والدروع والخوذ وقد استعملوهـا في صدر الاسلام أيضاً . وأدخل النبي ﷺ أسلحة جديدة . يقال انه أرسل إلى اليمن بعضاً من أصحابه لتعلم صناعة الدبابات والمجانيق والضبور . وتذكر بعض المصادر أن سلمان الفارسي هو الذي أرشد المسلمين إلى المنجنيق ويقال إنه صنعه لهم بيده .

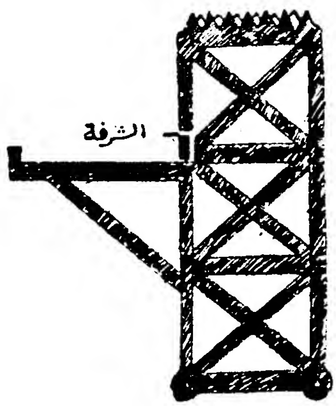
وقد اصطنع العرب لرمي السهام آلات لعلهم أخذوا بعضها عن الفرس **كالمجراة** التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر وهي عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً . كما اصطنعوا ضروباً من المنجنيق لرمي عدة سهام .



شكل ــ ١١ ــ
نماذج الاسلحة الاسلامية ، مما جمعه احد المتاحف



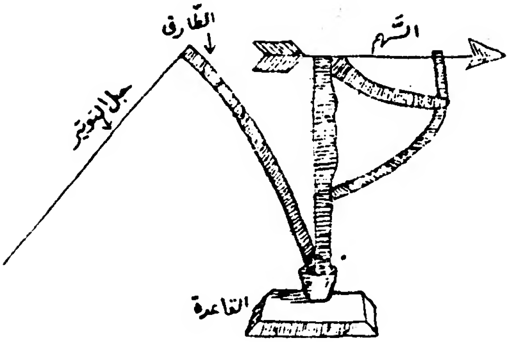
شكل – ١٢ – خوذة عربية عليها كتابات بالكوفية



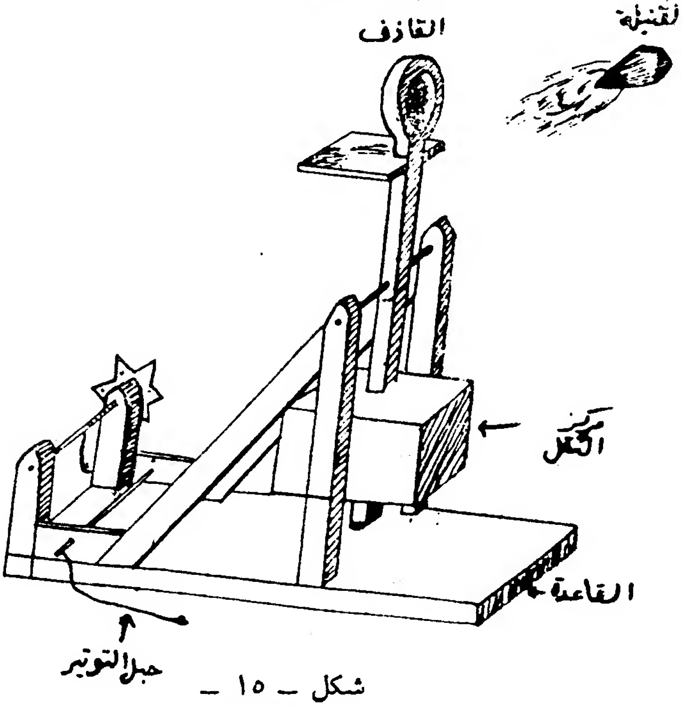
الدبابة

شكل – ١٣ –

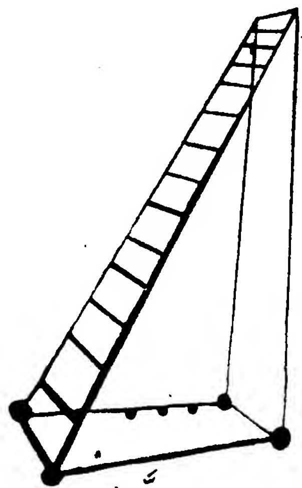
شكل من اشكال الآلة الحربية التي سماها العرب الدبابة
وكانت معروفة في جزيرة العرب قبل الاسلام وخاصة عند أهل الطائف



شكل ـ ١٤ ـ
رمي السهام الى مسافات بعيدة لا يقدر عليها الرامي العادي بواسطة النشاب



شكل ـ ١٥ ـ
يعتبر هذا المنجنيق ، احد الاسلحة المتطورة التي استخدمها المسلمون ، بعد العصر الاموي ، حيث ادخلوا الصنعة في انتاج حاجاتهم العسكرية ، والعلم التطبيقي فيما كانوا يستعملونه



شكل ــ ١٦ ــ

سلم من سلالم الحصار ، يصعد المحاربون بواسطته الى اعالي الاسوار ، ليقتحمونها من الاعلى . وقد استعمل العرب المسلمون الاوائل سلالم من الحبال والخشب ، كما فعل خالد بن الوليد في حصار دمشق

وكانت **السيوف** على أنواع منها اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية والدمشقية وكانت قليلة الصلابـــة وكانت أسياف البيزنطيين أمتن منها . لذلك كان العرب إذ صابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره وتوارثوه مثل سيف ذي الفقار لعلي بن أبي طالب توارثه أهله ثم أخـــذه المهدي ثم الهادي فالرشيد كما تقول الرواية . وسيف الصمصامة لعمرو بن معدي كرب .

وأشهر آلات الحصار التي عرفوها **المنجنيق** لرمي الحجـارة أو النار وأول من استعمله الفينيقيون وعنهم أخذه اليونان والفرس ومثله المقلاع ، وكان اول استعمال لهاتين الآلتين الحربيتين في حصار دمشق سنة ١٣ هـ ، وروي انه كان لمحمد بن القاسم الثقفي منجنيق يدعى « العروس » استعمله في حصار الديبل في بلاد السند ، وكان ضخماً لدرجة ان طاقمـــه من

الجند الذي يعمل على تحريكه والرمي به يبلغ خمسمائة جندي . وكان يرمي بها حجارة ثقيلة على اسوار العدو وما وراءها ، وذكرت كتب التاريخ ان الرشيد في حصار هيراقلية رمى على الروم حجارة مخلوطة بالكبريت والنفط ، ملفوفة بقطع من الكتان تشعل قبل ان تقذف . ومن ثم اصبحت مهمة القاء المواد المشتعلة بالنفاطين ... وتطورت صناعة الآلات القاذفة مع الزمن ، فاستعمل جيش صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين آلة جديدة اسمها الزيار ترمي اعداداً من السهام الثقيلة دفعة واحدة .

أما **الدبابات** : فهي آلات من الخشب المغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار . وتركب على عجلات يصعد الجند إلى أعلاها للنزول فوق الأسوار . وتستخدم أيضاً لهدم الأسوار ويجتمعون بجدرانها . وهي أقدم من المنجنيق ، استعملها المصريون القدماء والآشوريون واليونان والرومان والفرس والعرب .

وكان سلاح المقاتلة الموجودين في اعلى الدبابة القسي والسهام ومهمتهم حماية المقاتلة الموجودين في اسفل الدبابة ليتمكنوا من فتح ثغرات في اسوار العدو باستخدام المعاول والمثاقب

والضبور : (جمع ضبرة) هي كالدبابة تصنع من الخشب المغطى بالجلد لنقب الأسوار .

والكبش : كالدبابة لكن رأسه مثل الكبش متصل بعمود غليظ داخل الدبابة معلق بحبال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة يدفعه الجنود وهم داخلها لنقب الأسوار .

اما البارود : فرغم ما يدعيه بعض الغربيين من أنه اخترع في أوروبا

سنة (١٣٢٠ م) إلا أن مصادر كثيرة تشير إلى أن العرب عرفوه قبل ذلك بمدة طويلة وهو إما من اختراعهم أو نقلوه عن غيرهم (لعله من الصين) من ذلـك أن المستشرق الاسباني كوندي (١٢٨٠ م) يقول إن أهل مراكش استخدموا الأسلحة النارية في محاربتهم سرقسطة سنة (١١١٨م) . ويذكر ابن خلدون أن أبا يوسف سلطان مراكش لما فتح سلجماسة (سنة ١٢٧٣م) استعمل أسلحة نارية « .. ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها ..»

وكان قادة المسلمين يبثون في نفوس جيوشهم الحماس بالتكبير أثناء القتال وتلاوة الآيات القرآنية ودق الطبول وقرع الصنوج . كما كان يرافق الجنود قصاصون يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية أو ينشدونهم القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناي ليقووا قلوبهم ويثيروا هممهم .

ويقول غوستاف لوبون أن العرب أتموا استعدادهم الحربي في بضع سنين . وبُهت البيزنطيون حين حاصر العرب دمشق ورأوهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من الآلات الحربية .

كما يمكن أن نعتبر أن من أسلحة العرب المعنوية تلك المعاملة الحسنة العادلة التي عاملوا بها الأمم المغلوبة ، التي كانت تتلقاهم بترحاب وحبور .

ويصف المسعودي في مروج الذهب في حديثه عن حصار جند المأمون لبغداد أنواعاً من الأسلحة حين يقول : « ونصب هرثمة بن أعين على بغداد (المنجنيقات) وقد اتخذ المدافعون لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ودرقاً (ترس من الخوص) والبواري (حصير من قصب) وقد قيّرت (طليت بالقار وهو الزفت) وحشيت بالحصا والرمل .. مع أصحاب الخيول الفره (النشيطة) والجواشن (ج جوشن وهو لباس من حديد يلبس على الظهر

مؤلف من حلقات متداخلة فيها صفائح من التنك) والدروع والتجافيف (ج تجفاف وهو ما يجلل بـه الفرس من سلاح وزرد بقيـه الجراح) والرماح والدرق .. » واستعملت الدويلات المستقلة آلات خاصة لهدم الاسوار دعيت بالزحافات والقطاطيع .

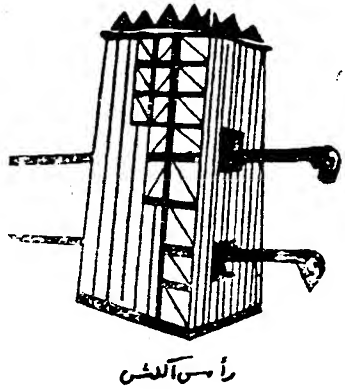
أساليب القتال : كان العرب في جاهليتهم وفي صدر الاسلام أحياناً يتبعون طريقة الكر والفر في حروبهـم . ويجعلون نساءهم وأولادهم وأرزاقهم وراءهم وكان ذلك مما يثبت أقدامهم في الحروب .

فلما ظهر الاسـلام أخذ العرب يقاتلون زحفا أي صفوفاً عملا بقوله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

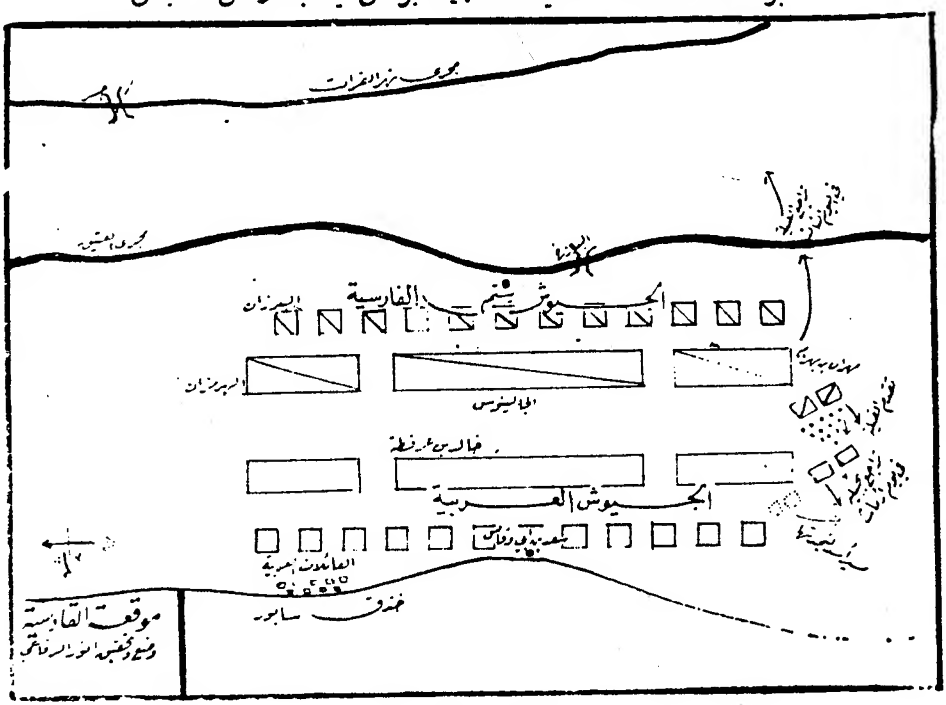
ثم بعد أن اختلط العرب بالأعاجم عمدوا إلى نظام جديد وهو نظام الكراديس . وهي كلمة يونانية ومعناها الكتلة أو الكتيبة . ويقسم الجيش بموجب ذلك إلى خمسة أجزاء رئيسية كبرى ومنها تسمية الجيش بالخميس : أي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

ويقول ابن خلدون إن أول من استعمل الكراديس في الإسـلام وأبطل نظام الصفوف هو مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي ولكن يجب ألا ننسى أن خالد بن الوليد استعمل في واقعة اليرموك (١٣ هـ) نظام الكراديس لمحاربة الروم بمثل نظامهم . كما اتبع ذلك سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية (١٤ هـ) .

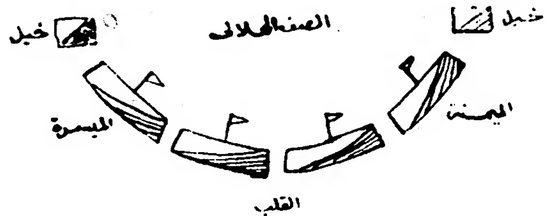
وبازدياد رقي الدولة العربية وبما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء وترجمة كتبهم ودراسة نظمهم ازداد تفنن العرب في أساليب القتال وتعددت خططهم الحربية حتى صارت سبع خطط وهي :



شكل ــ ١٧ ــ
آلة من آلات الحصار الاسلامية ، يختبئ داخلها الجنود ، ويلاصقون بها جدران الحصون ، ثم يحاولون فتح ثغرات فيها بواسطة اعمدة الحديد المنتهية براس يشبه راس الكبش

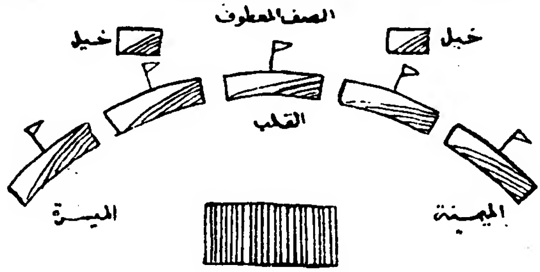


شكل ــ ١٨ ــ
مخطط موقعة القادسية ويظهر فيه بوضوح النظام التعبوي للجيش العربي الاسلامي في هذه المعركة الفاصلة من المعارك الكبرى في التاريخ



شكل ــ ١٩ ــ

احد اساليب تعبئة الجيش الاسلامي (الصف الهلالي)



شكل ــ ٢٠ ــ

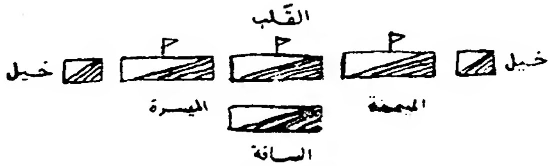
شكل من اشكال تعبئة الجيش الاسلامي (الصف المعطوف)



شكل ــ ٢١ ــ

صورة مرسومة في مخطوطة عربية بريشة « رشيد الدين » عام ١٣٠٦ م تمثل معركة حربية ؛ ويلاحظ من ملامح الوجوه ان جيشاً عربياً بملابسه واسلحته وهياته يحاصر قلعة مغولية . والنص الاصلي ، التي كانت الصورة ايضاحا له ، يذكر ان عشرة آلاف فارس اجتمعوا تحت راية الامير نصر بن ناصر الدين وغيره وزعيم العرب وحاصروا المردة في قلعة ارك . سنة ٣٩٣ هـ

الصف المستوى



شكل — ٢٢ —

الصف المستوي ، وهو نظام التعبئة التقليدية في معارك العرب

١ — ان ترتب الجيوش بشكل هلال . وهو نوعان مرسل أو حاد بسيط مثل هلال السماء .

٢ — الهلال الموكب أي يكون إلى جانب. الهلال شبه هلالين كأنها جناحان .

٣ — المربع أو المستطيل (لقد اعتمد نابليون في ترتيب جيشه على شكل المربع وقد دوخ به المماليك وهو عمدة الجنود المنظمة اليوم) .

٤ — الهلال المقلوب .

٥ — المعين أو المربع المنحرف .

٦ — المثلث .

٧ — الدائرة المزدوجة وهي دائرتان أحداهما داخل الاخرى .

وتفوق الجيوش العربية لم يكن يرجع إلى تنظيم جيشهم فحسب، بل كان لسرعة الحركة ضلع كبير ، إذ بينما كان الروم ينقلون أمتعتهم وعتادهم على عربات تجرها البغال والحمير والخيول كان العرب على الأغلب يستخدمون الجمال في حمل الاثقال وهي أخف حركة وأكثر سرعة من العربات . حتى قال أحد المؤرخين : « لم يحتل العرب الشام بهذه السرعة المدهشة إلا بفضل الجمال . »

رواتب الجند : لم يكن للجند رواتب زمن النبي وابي بكر اذ كانوا يأخذون حصتهم من الغنائم والفيء . ولما أنشأ عمر ديوان الجند نظم أعطيات

المسلمين حسب نسبهم الى النبي وسابقيتهم في الاسلام او غير ذلك . وكانت رواتب الجنود بموجب ذلك تقدر بين(٣٠٠ -٥٠٠) درهم في العام ؛ وهذا التفاوت بسبب بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها في الاسلام . ورواتب ضباط الجند من (٤٠٠٠- ٥٠٠٠) درهم هذا غير ما كان يدفع لنساء وأولاد الجنود والضباط وما كان يفرض لهم من الحنطة.

ولما آل الحكم الى بني أمية زاد معاوية أعطيات الجند لاعتبارات سياسية وخصص للجندي الف درهم في السنة أي أكثر من ضعف ما فرضه عمر . كما خصص لليمنية عطاء مضاعفاً وجعلهم فرقة مستقلة . وبقي الامر كذلك مع شيء طفيف من الاختلاف حتى أواخر الدولة الاموية اذ قلت الرواتب ونقصت الى (٥٠٠) درهم ، وكان تأخر عطاء الجنود في عهد مروان بن محمد من الاسباب التي دفعت الجنود إلى عدم القتال باخلاص وحماس.

وفي العصر العباسي جعل السفاح راتب الجندي (٩٦٠) درهماً في السنة وكان للفارس ضعف هذا المبلغ . ثم قلت الرواتب في عهد المأمون وأصبحت (٢٥٠) درهماً ، وسبب ذلك أن الاعاجم كانوا يرضون بالراتب القليل لأنهم لا يحسنون مهنة غير الجندية . وقد أوجد نظام الاقطاع إلا أنه ازداد في أيام السلاجقة بصورة واسعة فكان يعطى للامير مدينة او ولاية يحكمها حكما مطلقا ويمارس فيها سلطة الرئيس الاقطاعي . وكان عليه مقابل ذلك أن يدفع الى السلطان جزيـــة سنوية في أوقات السلم . أما في أوقات الحرب فكان عليه ان يلتحق مع عدد من جنوده في جيش السلطان كما عليه أن يجهز جنوده بالمؤونة والعتاد.

وفي أواخر الدولة العباسيـة كانت الرواتب تتأخر وتتراكم وكان يفوز بالخلافة من يتمكن من أرضاء الجند.

الفصل الثالث عشر

النظام البحري ـــ الاسطول

العرب والملاحة : تحيط البحار بشبه جزيرة العرب من ثلاثة أطرافها ، وهي تقع في مركز القلب من العالم القديم ، لذا كانت ولاتزال صلة الوصل بين مختلف أجزائه ، واشتهر سكان السواحل بالملاحة منذ أقدم الأزمنة ، فقد احتكروا تجارة الهند والشرق الأقصى عدة قرون كما سيطر الفينيقيون على التجارة في المتوسط والاطلسي ، وكان على شواطىء الجزيرة الجنوبية مرافىء ترسو عندها السفن القادمة من الهند أو وادي الفرات أو وادي النيل ، وكان في اليمن مرفأ اسمه (موزا) يبنون فيه السفن الكبرى لقطع المحيط الهندي . ولهذا السبب عمرت جزيرة سوقطره يومئذ لتوسطها في طريق تلك التجارة .كما عمرت مالطة في البحر المتوسط لمثل هذا السبب .

أما عرب الحجاز وسكان المناطق الداخلية من الجزيرة فانهم كانوا يخافون البحر ويهابون ركوبه ، نستدل على ذلك من أخبارهم ومن اهتمامهم بكل ما يتعلق بشؤون البادية والبعير والخيل حتى لنجد في لغتهم أسماء كثيرة ومصطلحات عديدة للشيء الواحد منها ، بينما هي نسبياً فقيرة في أسماء أجزاء السفن وما يتعلق بالبحر ، ففي كتاب « المخصص » لابن سيده « ١٧٦ » صفحة عن الابل و « ٧ » صفحات عن السفينة .

نشأة الاسطول وتطور الملاحة في العصور الاسلامية : سمى العرب مجموع السفن اسطولاً ، وهو لفظ يوناني « Stolos » عربوه ، كما كانوا

يطلقونه على المركب الحربي الواحد . ويقال اسطولي للعسكري الذي يعمل في البحر .

ولقد وردت آيات قرآنية تشير إلى فوائد ركوب البحر ومنافعه منها : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ولكن العرب المسلمين لم يهتموا بركوب البحر إلا بعد أن احتلوا الشام ومصر ، إذ كانت سواحل هذه البلاد عرضة لهجوم سفن البيزنطيين بصورة مستمرة ، فكان عليهم أن يتحملوا وطأة العدوان دون مقابلته بالمثل .

لذلك رأى معاوية والي الشام ضرورة انشاء اسطول فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في ذلك فأبى ، فألح عليه ، ورغبه في الكسب. فكتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص والي مصر يطلب إليه فيه أن يصف له البحر وراكبه فأجابه : « يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد احزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه دود على عود ، إن مال غرق وان نجا برق » فلما قرأه كتب إلى معاوية : « والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

وكان العلاء بن الحضرمي عامل الخليفة عمر على البحرين يرغب في فتح سواحل فارس وأن تكون له من الشهرة ما لسعد بن أبي وقاص في بلاد فارس ، فجهز اسطولاً واستعان بسكان البحرين ونزل سواحل فارس (سنة ١٧ هـ) دون أن يستأذن الخليفة إلا أنه لم يفلح في غزوته ، ولما علم عمر بأمره قاصصه بأن جعله تحت إمرة سعد ، وبذلك يكون العلاء أول من غزا في البحر في الاسلام .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان أعاد معاوية الكرة واستأذنه في غزو قبرص وهون الامر عليه فأبى ، ثم في سنة (٢٧ هـ) كتب إليه مرة ثانية ملحاً ومبيناً له فائدة ذلك . فأجابه عثمان إلى طلبه على أن يجعل ركوبه اختياريا « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا. ولا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » .

وفي سنة (٢٨ هـ) اقلع من عكا اسطول كما رافقه من مصر اسطول آخر . وانتصر معاوية وصالحه أهل قبرص على جزية قدرها (٧٠٠٠) دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم العرب عن ذلك . مما شجعهم على ركوب البحر وتقوية الاسطول حتى كانت لمعاوية في السنة غزوتان : في الصيف والشتاء عرفت باسم الشواتي والصوائف البحرية . وفي عهد عثمان نفسه هاجم قسطنطين بن هرقل بألف سفينة سواحل مصر يريد استردادها من أيدي العرب ، فوقفت مائتا سفينة للمسلمين أمامه وتغلبت عليه في موقعة ذات الصواري ، فرفعت هذه المعركة البحرية من معنويات البحارة المسلمين وشجعت العرب منهم على ركوب البحر .

وسار الأمويون على سنة معاوية من حيث الاهتمام ببناء الاساطيل وتجهيزها والقيام بالغزو والفتوحات حتى نافسوا البيزنطيين وسيطروا على البحر المتوسط وملكوا معظم جزره وهددوا القسطنطينية نفسها مرات عديدة وحاصروها .

وقد ازداد العرب قوة في البر والبحر في العصر العباسي . وبنوا السفن وغزوا جزر البحر المتوسط حتى صاروا أسياده وهاب الافرنج جانبهم كما غزوا بعض سواحل الهند سنة (١٥٩ هـ) ولم تكن غزواتهم وحروبهم البحرية لتنقطع أبداً . ولم تكن الاقطار العربية الاخرى أقل اهتماماً وقوة من الدولة العباسية كما في مصر والمغرب والاندلس .

فقد اهتم الطولونيون بانشاء المراكب النيلية التي تسير في النيل وتحمل حاصلات البلاد بيـــن الوجهين البحري والقبلي، واهتموا بانشاء المراكب الحربية وكانت تصنع في جزيرة الروضة والفسطاط . كما بذل الفاطميون عنايتهم نحو الاسطول لما رأوا تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التابعة لهم . وكانت تبنى سفنهم في القاهرة والاسكندرية ودمياط . وبلغ عدد السفن التي بناها المعز لدين الله الفاطمي في مدينة المقس (٦٠٠) مركب لم يعرف مثلها كبراً ووثاقة وحسناً كما قال أحد المؤرخين . ثم ضعف شأن الاسطول من بعده . ولما انتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي اهتم بأمر الاسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانىء العربية . وقد نسج على منواله سلطان المماليك الظاهر بيبرس .

وكان للأغالبة في افريقية غزوات كثيرة إلى سردينية وصقلية وقد فتحوا الأخيرة واستولوا عليها سنة (٢١٢م) وبقيت في حوزة الفاطميين بعد الاغالبة مدة قرن ونصف القرن . كما اشتهر المرابطون والموحدون في المغرب الاقصى بالاعمال البحرية فكانت سفنهم تصل حتى جزر الخالدات (قناريا) واستولوا على جزر ميورقة ومنورقة وكورسيكا ومدينة جنوة .

أما في الاندلس فقد بدأ الاهتمام بأمر البحرية منذ أيام عبد الرحمن الثالث (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) وزاد عدد اسطوله عن مائتي سفينة تمكن بواسطته من الاستيلاء على كثير من ثغور وسواحل الفرنج .

ضعفت سلطة العرب البحرية بعد ذلك وازداد الفرنج قوة وقاموا بفتوحاتهم واكتشافاتهم العظيمة ولم يسترد المسلمون والعرب شيئاً من نفوذهم في الأعمال البحرية إلا في عهد العثمانيين ومحمد علي باشا .

دور الصناعة : يراد بكلمة دار الصناعة تلك المعامل التي تقام على ساحل بحر أو شاطىء نهر لبناء السفن واعتمد معاوية حين بدأ بانشاء الأسطول

الإسلامي على الروم وسكان بلاد الشام الساحلية الذين حذقوا في صناعة السفن ومهروا فيها. وكانت أهم دور الصناعة في بلاد الشام: عكا وصور وطرابلس، كما اشتهرت منذ منتصف القرن الثامن للهجرة: بيروت وحيفا.

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن أول دار صناعة بنيت في الإسلام كانت في خلافة عبد الملك بن مروان، إذ أمر عامله على أفريقية حسان بن النعمان باتخاذ دار صناعة في تونس لإنشاء الآلات البحرية. وإذا صح هذا القول فإن معاوية مؤسس الأسطول العربي لم ينشىء دوراً جديدة للصناعة بل اعتمد على القديمة منها الموجودة في بلاد الشام واكتفى فقط بتوسيعها وتحسينها.

وكانت في **مصر** دور قديمة للصناعة، إذ ذكر أن معاوية لما غزا أول مرة قبرص ساعده أسطول مصري. إلا أن أول صناعة انشئت في مصر كانت في جزيرة الروضة سنة (٥٤ هـ) وظلت الصناعة فيها حتى آخر عهد الطولونيين وأول حكم الأخشيديين الذين نقلوها إلى الفسطاط. وقد أنشأ المعز داراً للصناعة في المقس. كما اشتهرت بهذه الصناعة قبل القرن السادس للهجرة: القاهرة والاسكندرية ودمياط، وعيذاب على ساحل البحر الأحمر. وفي المغرب: طرابلس وتونس وسوسه ووهران وسلا وطنجـة والصويره (موغادور) والرباط. وفي الاندلس: اشتهرت بها دانـية والمرية وشلطيش (غرب اشبيلية) ومالقة. وفي خليج البصرة: البصرة وهرمز وسيراف وعمان.

وقد اعتمد العرب لما أنشؤوا أسطولهم في البحر المتوسط على سكان البلاد المحتلة في صناعة السفن أو في الملاحة. ثم ظهر منهم صناع تفننوا في عمل السفن البحرية واشتهر أشخاص برعوا في الثقافة البحرية. وكانوا يصنعون السفن على أشكال وأنواع متعددة وأحجام مختلفة، ومنها ما جعل جزؤها السابح في الماء يشبه الحوت في عومه، كما أشار ابن خلدون إلى

ذلك بقوله « . . . وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما الاسطول » ..

هذا من حيث شكلها العام ، أما طريقة بنائها فكانت تختلف حسب المناطق والبحار والعادات ، فسفن **البحر المتوسط** كانت ذات دفتين وهي لا تصنع إلا في هذا البحر وتستعمل فيها المسامير كما يقول ابن جبير . وهي أكبر من مراكب **المحيط** تحمل بضعة آلاف من الرجال وتقطع البحر من غربه إلى شرقه في ستة وثلاثين يوماً .

وكانت **سفن البحر الاحمر** (واسمها جلبات جمع جلبة) تصنع في عيذاب على الساحل المصري وتخاط الاخشاب بحبال الليف لانهم لا يستعملون فيها المسامير ويضعون خلالها دسراً من عيدان النخل ثم يطلون الاخشاب بالشحوم . ويعلل القزويني عدم استعمال المراكب ذات المسامير في هذا البحر إلى خوف الملاحين من جذب جبال المغناطيس للمراكب وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها وقيعان سفن هذا البحر عراض دون تعميق حتى لا تصطدم بصخوره الكبيرة . ولتفادي خطر تحطمها لا يسافر فيها إلا نهاراً لأن الربان يبقى دائماً في مقدم المركب ينتبه إلى الاحجار .
أما **سفن المحيط الهندي** والخليج العربي فان ماركو بولو يصفها بانها من أسوأ صنف ، وذلك لأنه لا يستعمل المسامير في بنائها وإنما تثقب الالواح بعناية قرب أطرافها ثم توضع في الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها ببعض بنوع من الليف ولا يطلى بعد ذلك بالقار بل بزيت يتخذ من دهن الحوت . وهذه السفن ذات طبقة واحدة وشراع واحد في معظم الاحيان .

محذوفة

السفن الحربية واشهر انواعها : إن المراكب التي استعملها العرب في حروبهم كثيرة تتفاوت حجماً وشكلاً وقوة ، منها ما هو من أصل عربي ومنها ما هو أعجمي .

١ - **السفينة** : وهو اسم عام للمراكب وردت في الشعر الجاهلي والقرآن قال تعالى : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين . »

٢ - **الشونة** : جمعها شواني (وذكرت باسم شيني وشينية) وهي أكبر أنواع السفن وأكثرها استعمالاً . تقام فيها الابراج والقلاع للدفاع والهجوم . وكانت أم القطع في الاسطول العربي ، متوسط حمولتها (١٥٠) رجلاً وتجذف باكثر من مائة مجذاف . ~~وتغنى بها ابن حمديس في قصيدة خاطب بها احد امراء بني زيري بالمغرب الادنى فقال :~~

انشأت شواني طائرة وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحجبها في شمّ شواهقها قننا
ترمي ببروج ان ظهرت لعدو محرقة بطنا
وبنفط ابيض تحسبه ماء ، وبه تذكى السكنا

٣ - **البارجة** : سفينة حربية كبيرة هندية الاصل (بيرة) .

٤ - **القرقور** : جمعها قراقير وهي من السفن العظيمة التي تحمل الزاد والكراع للاسطول ، أصل اسمها بالاسبانية (كاراكا) .

٥ - **الصندل** : وهي مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح والمؤن وهي لاتينية الاصل يسميها العرب أيضاً الشلندي (جمعها شلنديات) . وكانت تسمى في الاندلس باسم الاجفان الغزوية او الغزوانية .

المسطح : جمعها مسطحات وهي من سفن الاسطول العربي الكبيرة

الحجم ، وتحمل الاسلحة للاسطول ، وسميت بالاندلس باسم الحمالة .

٧ـ **الطراد** : أو الطريدة (جمعها طرائد) سفينة صغيرة سريعة السير والجري تستعمل لحمل الفرسان والخيول وتتسع لاربعين فارساً . وكانت تفتح عادة من الخلف حتى يسهل على الخيل الصعود اليها والنزول منها .

٨ ـ **الحراقة** :(جمعها حراريق) فيها منجنيقات تلقى منها النيران على العدو . وكان للخليفة الامين خمس حراقات في نهر دجلة على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس .وعرفت ايضاً في الاندلس وعند الاغالبة والفاطميين . وصفها الشاعر الاندلسي ابو عبد الله بن الحداد بقوله :

ذات هدب من المجاديف حاك   هدب باك لدمعه إسعاد

حمم فوقها من البيض نار   كل من ارسلت عليه رماد

٩ ـ **العشاري** : جمعها عشاريات (أعجمية) أكثر ماكانت تعرف هذه المراكب في النيل وسميت في العصر المملوكي الحراقات وسمي بعضها باسم اللطاف ، وبعضها باسم السماويات ، لانها مكشوفة للسماء . واطلق عليها اسماء ألوانها فعرفت بالذهبي والفضي والاحمر والاصفر واللازوردي وأكثرها كان خصوصياً .. يمكن الاغنياء والحكام للنزهة في النيل .

١٠ ـ **السميريات** : جمع سميرية من سفن البحر والنهر وهي معدة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين . فيها أربعون مجذافاً كما يذكر الطبري .

١١ـ**الغراب** : (جمعها أغربة) مقدمتها على شكل رأس الغراب .

١٢ـ**الحربية** (جمعها حرابي وحربيات) : نوع من الشواني ، لكن

اصغر حجما ، وتمتاز بسرعتهـا وخفة حركتها . واستخدمت في الاندلس والمغرب ومصر الفاطمية . وصفها ابن حمديس بقوله :

يخوضون بحراً كل حين اليهم ببحر يكون الموج فيه فوارساً
وحربيـــة ترمي بمحـرق نفـط فيغش سعوط الموت فيها المعاطس

رأوا حربيـــة ترمي بنفـــط لاخمـــاد النفوس له استعار
كأن المهل في الانبوب منــه الى شيّ الوجوه له ابتـــدار
كأن منافس البركان فيها لأهوال الجحيم بهـــا اعتبار
نحاس ينـــبري منه شواظ لازواح العلوج بـــه بوار

١٣ - **البطسة** (جمعها بطس) : مراكب كبيرة الحجم مكونة من عدة طوابق ، ومزودة بعدد كبير من القلوع يصل احيانا الى اربعين قلوعاً تستخدم لنقل الميرة والاسلحة والمقاتلة وقد تصل سعتها الى ٧٠٠ راكب عدا الحمولة .

١٤ - **الفيطاني** : مركب عرف في مصر الفاطمية ، لحمـل الركاب والبضائع ومثله العجزي .

١٥ - **الجلبـة** (جمعها جلاب وجلبات) : وقد سبق ان ذكرنا انها من سفن البحر الاحمر ، ويذكر ابن جبير انه لم يكن يستعمل فيها مسمار البتة ، انما هي مخيطة بأمراس من القنبار (قشر جوز النارجيل) مسقي بالسمن او بدهن الخروع او بدهن سمك القرش وهو احسنها .

اسلحة الاسطول : إن أشهر معدات السفن الحربية عند العرب هي الأسلحة البرية ويضاف إليها :

١ - **الكلاليب** تلقى على مركب العدو عند الاقتراب منه فيوقفونه ثم يشدونه إليهم ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون . ويمكن ابطال فعل الكلاليب بفأس ثقيلة من فولاذ تضرب بها تلك الكلاليب فتنقطع .

٢ - **الباسليقات** : هي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد ، تكسر كل ما تقع عليه لشدة دفعها.

٣ - **التوابيت** : هي صناديق مفتوحة من أعلاها توضع في أعلى السواري يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق . فيرمون العدو بالحجارة وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط أو جرار النورة (وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ) يرمون بها مراكب الاعداء فتعمي الرجال بغبارها ، وقد تلتهب عليهم إذا تبددت . أو يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب أو قدور الصابون اللين فإنه يزلق أقدامهم .

٤ - **اللجام** : أداة كالفأس طويلة محددة الرأس جداً وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها السطام فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز فيحتالون لطعن المراكب فيخرقها وتنصب المياه فيها .

٥ - **النار اليونانية** : هي مزيج من كبريت وبعض الراتنجات والأدهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة يشدونها في مقدم السفينة ، فيقذفون منها السائل مشتعلاً أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو

قطع من الكتان الملوث بالنفط . وهذه النار تشتعل في الماء والهواء . وهي في الأصل من اختراع السوريين ، تعلمه البيزنطيون بواسطة رجل من بعلبك اسمه كالينكوس في القرن السابع للميلاد أثناء محاولات العرب المسلمين فتح القسطنطينية ثم استخدمه المسلمون وأساطيلهم .

واستعمل المسلمون (النفط البحري) ويجهز من القطران والكبريت ومواد أخرى ملتهبة ، تزداد اشتعالاً عند ملامستها الماء بدل أن تنطفيء . ويقذف بآلة تسمى النفاطة ، كما كانوا يلقمونها أحياناً بالسهام والنشاب والمنجنيق . قال في وصفها ابن حمديس :

وما الماء بالاطفاء حكم　　عليه لدى الوقود ولا اقتدار

٦ ــ **وسائل الدفاع** : ومن وسائل الدفاع عندهم أنهم كانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنطرون لدفع أذى النفط .

وكانوا في الليل لا يشعلون ناراً ولا يتركون فيها ديكاً . أما في النهار فكانوا يسدلون قلوعاً زرقاء كيلا تظهر عن بعد

امرة الاسطول : كان لكل سفينة قائد ورئيس . فالقائد يدير أمر سلاحه وحربه وجنوده ، والرئيس يشرف على الملاحين ويدير أمر جري السفينة بالريح أو بالمجاذيف . وكان يدعى الربان في البحر الأحمر والمعلم في المحيط الهندي . وفي السفينة أيضاً المنادي ومهمته تبليغ أوامر الربان إلى الملاحين بصوته .

وكان يعين على جميع قطع الاسطول أمير يدعى أمير البحر أو أمير الماء . وكان يعلق فانوس على مركب أمير البحر فتهتدي به بقية السفن وتقلع باقلاعه وترسو بارسائه .

أشهر المعارك العربية : كانت الحروب والغزوات البحرية بين العرب والافرنج لا تنقطع أبداً في أدوار القوة والضعف لكلا الطرفين . وذكرنا سابقاً كيف أنها بدأت منذ عهد معاوية الذي نظم الشواني والعوائف براً وبحراً لغزو بلاد الروم . إلا انه كان لبعض المعارك التي حصلت بين الطرفين من الأهمية الكبرى والنتائج الخطيرة ما يدفعنا إلى ذكرها [1]

١ - **فتح قبرص** : سنة (٢٨ هـ / ٦٤٩ م) من قبل معاوية . لهذه الغزوة اهميتها لانها اول محاولة انتصر فيها العرب . وازدادوا بعدها رغبة في ركوب البحر واندفاعاً لتقوية اسطولهم .

٢ - **فتح ارواد وصقلية ورودس وجزر بحر ايجه وكريت** وقد تم ذلك كله بفضل اسطول الشام الذي نظمه معاوية .

٣ - **معركة ذات الصواري** : في سنة (٣٤ هـ) جهز قسطنطين ابن هرقل اسطولاً يعد خمسمائة مركب وقيل ستمائة . وقصد مصر . فخرج إليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر باسطوله المؤلف من (٢٠٠) سفينة كما اقبل معاوية بنفسه باسطوله لمساعدته . وتلاقيا مع قسطنطين واشتبكا في معركة هائلة دون خوف أو وجل رغم قلة عددهم . وكانت السفن تقاتل بصورة افرادية ، الا ان العرب أدركوا بعد ذلك أن هذه الخطة قد تؤدي إلى تحطيم أسطولهم برمته فأجمعوا أمرهم على التكتل وتطويق أسطول الاعداء ، ثم انقضوا عليهم بالسيف والنار حتى انتصروا عليهم انتصاراً باهراً وحطموا أسطولهم شر تحطيم وانهزم قسطنطين جريحاً .

---

(١) راجع : أنور الرفاعي : الانسان العربي والتاريخ ص ٢٠٧ وما بعدها بحث : أعمال الجند العربي البحرية في عهد بني امية . ففيه وصف لهذه المعارك البحرية .

وسميت هذه المعركة بذات الصواري لكثرة المراكب التي اشتركت فيها . ومن نتائج هذه الموقعة الكبرى ان ازدادت قوة العرب المعنوية وادركوا ان العبرة ليست بالعدد انما بالتكتل والاستبسال وتنظيم الخطط .

٤ ـ **حصار القسطنطينية** : براً وبحراً عدة مرات مما يدل على تفوق الاسطول الاسلامي بقدرته على اجتياز البحار الرومية دون خشية من أساطيل الروم .

٥ ـ **غزو الاندلس** : غزا طارق بن زياد الأندلس سنة (٩٢ هـ) في أربع سفن ، ورغم أن الفتح كان براً أكثر منه بحراً ، الا ان إنزال القوى العربية بعد اجتيازها المضيق ووصولها سالمة الى البر الاوروبي كان له أعمق الأثر في تأمين الفتح ومتابعة ارسال الامدادات .

٦ ـ **غزو جزر البحر المتوسط والاستيلاء عليها** : غزا العرب معظم جزر البحر المتوسط واستولوا عليها في فترات متقطعة واشتبكوا للحصول عليها في مواقع عديدة تذكرها المصادر التاريخية انما بدون تفصيل . وكانت أعظمها تلك التي حصلت في سبيل الاستيلاء على جزيرة صقلية التي لم يستطع العرب احتلالها إلا بعد غزوات عديدة ومعارك شديدة سنة (٢١٢ هـ) وأهم الجزر التي استولى عليها العرب هي : ميورقة ومنورقة وسردينية وصقلية ومالطة واقريطش وقبرص وكورسيكا . وترددوا على الجزر الخالدات (قناريا) كما استولوا على مدينة جنوة وغزوا سواحل فرنسا وايطاليا . وقد تم معظم ذلك بواسطة اسطولي الشام ومصر واسطول الاغالبة الذي يعد من أعظم الأساطيل العربية .

٧ ـ **غزو الساحل الهندي** : في سنة (١٥٩ هـ) وجه المهدي حملة في البحر إلى بلاد الهند تعد (٩٢٠٠) رجلا منهم (٧٠٠) من أهل الشام

مع قائدهم ، مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند فتغلبوا على حاميتها وأسطولها واشعلوا فيها النيران والنفط .

تراث العرب في الملاحة : اعتمد العرب المسلمون على سكان البلاد التي فتحوها وعلى البيزنطيين في تعلم أصول الملاحة . ولكنهم ما لبثوا أن انتقلوا إلى حيز الابتكار والاختراع وأصبحوا أساتذة أوربا في الملاحة ، يدلنا على ذلك كثرة المصطلحات العربية البحرية التي اقتبسها الأوربيون ، الأمر الذي دفع المؤرخ فون كريمر إلى القول : « ومما يوضح أن الأسطول العربي كان نموذجاً لأساطيل الأقطار الأوربية أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوب أوروبا . نذكر من بين تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ حبل العربي . وكلمة Arsenal أو Darsenal المأخوذة عن لفظ دار الصناعة . وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ غراب العربية و Admiral المأخوذة عن أمير البحر .

وأهم شيء أخذه الأوربيون عن العرب (الحُك) أي الابرة المغناطيسية . وهي ذات فائدة كبرى في الملاحة . وإذا اختلفت الروايات وتضاربت الآراء عمن أوجد أو اكتشف المادة المغناطيسية . فكانت كل من إيطاليا وفرنسا وانكلترا واسكنديناڤيا تدعي أنها نفسها صاحبة الفضل الأول بايجادها . فان مما لا شك فيه أنها من مكتشفات الصين وأخذها عنهم العرب . ويذكر أحمد بن ماجد (القرن ١٥ الميلادي) في كتابه « الفوائد في أصول البحر والقواعد » « ... ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحُك بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب .. » وابن ماجد هو الذي قاد الملاح البرتغالي (فاسكو دوغاما) في بحار الهند وأطلعه على كثير من الآلات البحرية العربية التي كان يستعملها كالاسطرلاب والمغناطيس وغيرهما .

الفصل الرابع عشر

النظام المالي

بيت المال : إن المال هو العصب الحساس في كل دولة قائمة ، ولا يمكن لدولة أن تقوم وليس لها مال تصرفه على شؤونها ولا موارد تجمع منها حاجاتها المالية ، وقد حدد الاسلام بعض موارد الدولة المالية ، وكانت تجمع في مكان يقال له بيت المال وهو أشبه بخزينة الدولة العامة أو بوزارة المالية في العصر الحاضر ، وأول من أنشأ بيت المال هو الخليفة عمر ، إذ كان الرسول عليه السلام وأبو بكر من بعده ، يوزعان الموارد في حينها ، فلما تدفقت الاموال أيام عمر وكثر المستحقون منها ، وزاد عدد المجاهدين ، وتنوعت الموارد العينية ، أمر عمر ، عملا باقتراح الوليد بن هشام باتخاذ بيت للمال . رغم معارضة الامام علي ، وعين عبد الله بن الارقم أميناً له ، كما عين عبد الرحمن بن عبيد القارى ومعيقيب مساعدين له ... وجعل لكل ولاية أميناً لبيت المال ، له اختصاص مستقل عن عمل الوالي والقاضي ، ورتب لكل بيت حرساً لحراسته ... ويروى أن مشادة وقعت في عهد عثمان بين سعد بن أبي وقاص والي الكوفة وقد عرف باسرافه ، وبين عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال ، ورفع الامر إلى الخليفة الذي أيد أمين بيت المال ضد الوالي .

وكان بيت المال يعتبر في عصر الراشدين ملكاً للمسلمين عامة ، لكل منهم نصيب فيه ، وينال كل محارب أو موظف مقداراً معيناً في كل شهر . ولكن الامويين اعتبروه ملكاً لهم يتصرفون به كيف يشاؤون ، فنرى معاوية يهب خراج مصر إلى عمرو بن العاص طيلة حياته ، أو يفرق الاموال بلا حساب لاكتساب الأنصار ، وتبعه الأمويون والعباسيون الذين صاروا ينفقون ، اموال بيت المال حسب أهوائهم ، ثم حددت رواتب الخلفاء وسائر الموظفين فيما بعد ، وأصبح الخليفة أو الوالي لا يستطيع أن يتصرف بأكثر مما حدد له ، وتصرف بقية الأموال على شؤون الولاية أو مركز الخلافة .

ومنذ العهد الأموي طرأ تغيير واضح على النظام المالي في الامبراطورية الاسلامية ، ففصل معاوية « الصوافي » عن بيت المال وجعلها للخليفة ، واصل الصوافي في فارس : « كل أرض لكسرى أو لأهله ، وكل من فرّ عن أرضه ، وقتل في المعركة ، وكل مغيض ماء أو أجمة ... » وهي تختلف عن الفيء . وعمم معاوية الصوافي على جميع أنحاء الامبراطورية ، فأمن لنفسه ولاسرته ولخزانة الخليفة مورداً ضخماً من المال . فقد ذكر أبو يوسف في كتاب « الخراج » ان صوافي العراق وحدها بلغت سبعة ملايين درهم سنوياً .

وزاد الامويون في الضرائب نوعاً وكماً .

موارد بيت المال : إن موارد بيت المال الأساسية في صدر الاسلام وعصر الفتوح هي :

الخراج . العشر . الزكاة . الجزية . الغنيمة . الفيء . وموارد ثانوية أخرى .

١ ـ **الخراج :** هو أقدم انواع الضرائب ، عرف منذ أيام الفراعنة وربما قبل ذلك . وسبب وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان ، والأهالي يتمتعون بريعها على أن يدفعوا للحكومة حصة من ذلك الريع وهو الخراج . وكان للرومان ضريبة الارض TRIBUTUM Soil وللفرس ضريبة مشابهة تسمى الخراج ، كما كان لهاتين الدولتين ضرائب معينة على أراضي مملكتهم التي حررها المسلمون مثل مصر والشام والعراق وفارس وغيرها . وترك المسلمون دواوين الخراج من حيث ادارتها على ما كانت عليه زمن الروم والفرس .

والخراج عند المسلمين هو مقدار من المال أو الحاصلات يفرض على الاراضي التي صولح الاعاجم عليها وصاروا ذمة . ويؤخذ الخراج :

أ ـ عن الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين بعد أن عوضهم عن نصيبهم فيها .

وقد استن عمر بن الخطاب هذه السنة ، وبقيت عليها الدولة الاسلامية حتى عهودها الأخيرة ، وهي الملكية العامة للأرض المفتوحة ، فقد أعلن بعد جدل ونقاش مع الصحابة أن الأرض المفتوحة هي ملك لجميع المسلمين وليست ملكاً للمقاتلين منهم فقط ، ولذا ابقى عليها أهلها مقابل « خراج » يدفعونه للدولة . فالأرض إذن وهي وسيلة الانتاج الاساسية آنذاك غدت « ملكاً للأمة » .

ب ـ عن الاراضي التي افاء الله بها المسلمين أي استحوذوا عليها دون قتال .

حـ ـ عن الاراضي الموات التي أحياها المسلمون وكانت في أرض خراج ولم يحتفر لها بئر أو يستنبط لها قناة .

د ــ عن اراضي شبه الجزيرة لان العرب من عبدة الاوثان فيها ، حكمهم القتل أو الاسلام ، ولاتقبل منهم الجزية (كتاب الخراج لأبي يوسف) .

ويستوفى الخراج على نوعين : اما مبلغاً مقدراً من المال ، او حصة معينة مما تنتجه الارض . وبعض الأراضي يؤخذ منها مال في وقت ويؤخذ منها غلة في وقت آخر . أما مقداره فكان غير ثابت يرتفع حيناً ويقل حيناً آخر بحسب الاسعار والازمنة وحاجة الدولة . فرض النبي ﷺ على يهود خيبر نصف محصولهم ، فكان يبعث اليهم عبد الله بن رواحة فيقسم المحصول ويخيرهم أي النصفين شاؤوا . وكذلك فعل الهادي في منطقة السواد ، فكان يأخذ منها ستة أعشار منتوجها (وهذا اقصى مبلغ فرض) ثم جعلها الرشيد النصف فقط وخفضها المأمون إلى أربعة أعشار .

وكان الخراج يجبى بعد المحصول ، وكانت السنة المالية للخراج هي السنة الشمسية وليست السنة القمرية ، ، لارتباط الزراعة بالنظام الشمسي والفصول . واعتبر بدء هذه السنة في العراق وما وراءه من أرضين كفارس وغيرها ، هو أول يوم من السنة عند الساسانيين وهو يوم نيروز ، لكن هذا لا ينطبق مع السنة الشمسية ، فأجريت عليه عدة تعديلات كان أتمها ما جرى في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ ــ ٣١٠ هـ) .

وكان الخراج يقوم على أساس مساحة القرية كلها ، أو على أساس المساحة المزروعة ، أو على أساس تقويم الانتاج . وقد عرف نظام تقويم الخراج على أساس مبلغ اجمالي للقرية أو الولاية باسم « التكملة » ، وقد أبطلها المقتدر لما في ذلك من اجحاف بحق الفلاحين في السنين العجاف حين يجبرون على تأدية نفس المبالغ التي دفعوها في السنين الخصبة ، على اختلاف القحط والخصب في المنطقة نفسها .

ويظهر أن جمع هذه الضريبة استمرت حتى العصر العباسي الأول في ايدي الملتزمين ، الذين كانوا يعمدون إلى جمع ما دفعوه والأرباح بشتى الطرق . فلما كان عصر الرشيد ووضع قاضيه أبو يوسف كتاب الخراج ، حرّم أبو يوسف تحريماً تاماً عملية بيع وشراء الضريبة المفروضة على الارض ، واباح أبو يوسف هذا النظام بشروط اوردها في كتابه منها إذا اقترح اهل القرية ، قيام نفر من أهل الثقة من بينهم بجمع الضرائب ودفعها للدولة باسمهم .. وعرف نظام الالتزام بالتقبيل ، واسم الملتزم « المقبل » ثم استعملت كلمة الملتزم في العصور المتأخرة .

٢ ـ **العشر** : وهو ضريبة على الاراضي مقداره عشر غلتها مالاً أو عيناً . والاراضي التي تدفع العشر هي :

أ ـ الارض التي أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب .

ب ـ الارض التي ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة عليهم .

حـ ـ الارض الموات التي احياها المسلمون وكانت في ارض عشر او استنبط لها قناة أو احتفر لها بئر .

ويقول القاضي أبو يوسف ان الاراضي التي يقطعها الخليفة لاحد ، فان كانت في ارض خراج دفعت خراجاً ، وان كانت في ارض عشر دفعت عشراً . ولا يمكن للخليفة تحويل الخراج إلى عشر او ان يفرض عليها عشراً ونصفاً او عشرين او اكثر .

٣ ـ **الزكاة** : الزكاة ضريبة فرضها الله على المسلمين وهي أحد أركان الاسلام التعبدية المحضة ، فاذا امتنع المسلم عن ادائها فقد هدم ركناً اساسياً من اركان الاسلام ، وقد ذكر الفقهاء ان من منع الزكاة معتقداً وجوبها اخذت منه قهراً .

ومن انكر وجوبها فهو مرتد تجرى عليه احكام المرتدين . وقد اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة كما فعل ابو بكر يوم قال : « والله لاقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة . وكانت الدولة تتولى جمعها وانفاقها ، فأخرجها عثمان بن عفان من اطار بيت المال ليتصرف بها المسلم حراً وفريضة عليه ، شأنها في ذلك شأن الصلاة والحج .

وذكر الفقهاء اقوالاً شتى في اصل الكلمة فهي اما :

آ ــ من زكا الشيء اذا نما وزاد . يقال زكا الزرع إذا كثر وزاد . ورجل زكي اي زائد الخير . والزكاة التي تؤخذ عن المال لا تنقصه انما تنميه بالبركة او بالاجر الذي يثاب به صاحبه .

ب ــ او من الثناء الجميل ويقال زكي القاضي الشاهد . فكأن من يعطي الزكاة يحصل على الثناء الجميل .

حـ ــ او من التطهير فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيها للمساكين ، ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء . قال الله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . ومصادر الزكاة خمسة :

ا ــ زكاة السوائم أو المواشي : أي الإبل والغنم والبقر . ولا زكاة في الخيل والبغال والحمير الا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة . ولا تؤخذ الزكاة عن المواشي إلا اذا حال عليها الحول ، كما لا تؤخذ إذا علفها صاحبها . وتختلف نسبتها باختلاف نوع الماشية وعددها فالابل بين (٥ ــ ٢٥) يؤخذ شاة عن كل خمسة منها . وبين (٢٦ ــ ٧٥) يؤخذ ناقة واحدة تختلف سنها باختلاف عدد الإبل ، اي تكون سنها اكبر كلما زاد

العدد . **اما الغنم** (ضأناً ومعزاً) فيؤخذ منها شاة اذا كان عددها بين (٤٠ – ١٢٠) ثم يكون في كل مئة شاة واحدة . **اما البقر** فلا يؤخذ منها الا اذا بلغ عددها (٣٠) فيؤخذ منها تبيع او تبيعة (الذي يتبع أمه وهو ما أوفى سنة) ، واذا كانت (٤٠) يؤخذ مسنّ (ما اوفى سنتين) ثم اذا كانت (٦٠) فضعف مايؤخذ عن الثلاثين .

ب – زكاة النقد (الذهب والفضة) : لايدفع زكاة عنها الا اذا حال عليها حول وبلغا النصاب أي ٢٠٠ درهم للفضة و ٢٠ مثقالاً للذهب (اي ما يقرب من ١٣ ليرة عثمانية ذهب) ويكون مقدار الزكاة واحداً من أربعين ، اي ٢،٥ بالمائة .

ح – زكاة التجارة : يؤخذ عنها ٢،٥ بالمائة بشرط ان تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وان يحول عليها الحول .

د – زكاة المعادن والركاز : (اي المعادن الغفل والكنز) فاذا وجد في ارض الحرب ففيها الخمس (اي مثل الغنائم) واذا كانا في ارض السلم ففيها الزكاة اي ٢،٥ بالمائة .

هـ – زكاة الزرع والثمار : لا يدفع عنها زكاة الا اذا بلغا حداً معيناً . وحكم زكاتهما العشر اذا كانت الارض تسقى بالمطر او المياه الجارية . ونصف العشر اذ كانت تسقى بالدلاء او بواسطة اخرى تكلف نفقات .

مصرف الزكاة : تصرف الزكاة حسب قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . **الفقراء** هم الذين لا شيء لهم . **والمساكين** هم الذين لهم مالا يكفيهم وهم افضل

حالاً من الفقراء . ويقول القاضي ابو يوسف عن عمر بن الخطاب ان المساكين هم فقراء اهل الذمـة . **والعاملون عليها** هم القائمون بجبايتها وتفريقها . **والمؤلفة قلوبهم** هم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم لكف اذاهم عن المسلمين او لترغيبهم في الاسلام . **والرقاب** اي شراء العبيد وعتقهم. **والغارمون** هم المدينون فيعطى لهم ما يقضون به ديونهم في **سبيل الله** ، اي يعطى للغزاة واهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه في حروبهم. **وابناء السبيل** هم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

ومن هـذه الآية نستدل أن الزكاة خصصت لما يسمى بلغـة العصر « الشؤون الاجتماعية » لانها تنفق على الطبقات الاجتماعية التي تستحق العطف والمساعدة . فالفقير هو من لا يملك نصاب الزكاة ، والمسكين هو الفقير المحتاج المتعفف والسائل . والمسكين في رأي ابي حنيفة اشد حاجـة من الفقير . ويشمل هذا الباب المسلمين والمعوزين من أهل الكتاب ، ويستدل الفقهاء على ذلك من عمل عمر بن الخطاب حين رأى ذمياً مكفوفاً مطروحاً على باب المدينة فأجرى عليه رزقاً مستمراً وقال لخازن بيت المال : ابحث عن هذا من الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: « انما الصدقات للفقراء والمساكين » وقصد بذلك اهل الكتاب ذوي الامراض المزمنـة والعاهات المانعة من الكسب .. والعاملون عليها الذين يتولون جمعهـا ويوزعونها على مستحقيها ، والمصرف الرابـع اعطي لجماعة من الناس تأليفاً لقلوبهم او تأليفاً لقلوب ذويهم من قبيل الدعوة الى الاسلام او الدفاع عنه .. في عهد الرسول عليه السلام . وتوقف العمل بـه في عهد عمر لان زوال السبب اقتضى زوال المسبّب ، وهكذا رأى الفقهاء ان الحـكم فيه بات ينفذ ان وجدت الحاجة اليه فيجب تنفيذه في عصرنا هذا في الدعاية للاسلام وبيان حقائقه لمن يجهلونه .

اما فك الرقاب فيقصد به تحرير الارقاء ، فكان من اول واثبت الدعوات لتحرير الرقيق . والصنف السادس هم الغارمون اي الذين ركبهم دين ولا وفاء عندهم . والمصرف السابع : في سبيل الله وقد فسرها المسلمون بما يعم كل مصالح المسلمين . والمصرف الاخير : ابن السبيل وهو من انقطعت به الاسباب وكان في سفر .

والزكاة لها في العربية مدلول مزدوج : الاول انها تزكية وتطهير للروح والثاني انها تزكية وتنمية للمال . فلها هدف روحي تعبدي ، ولها هدف اقتصادي فقهي .

٤ ـ **الجزية** : ليست من محدثات الاسلام . لقد وضعها اليونان على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس ق . م مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين . ووضعها الرومان على الامم التي اخضعوها وعرفت عندهم باسم ضريبة الرأس Tributum Capitis وكانت اكثر كثيراً مما وضعه المسلمون بعدئذ . كما كان الفرس ايضا يأخذون الجزية من رعاياهم وعرفت عندهم باسم الجزية Gezit .

والجزية مبلغ من المال يدفعه اهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم . وهي مقابل الزكاة عند المسلمين حتى يتساوى الفريقان في دفع الضرائب . وتسقط عنهم الجزية اذا اسلموا . وهي مفروضة على جميع الذكور الذميين القادرين على دفعها فلا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين بالسن الذين لا يستطيعون العمل ولا من العميان والمقعدين والمجانين ، ولا من رجال الدين الا اذا كانوا اغنياء . اي انها فرضت على كل الاشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد .

اما مقدار الجزية فلم يكن ثابتاً زمن النبي وابي بكر . ثم عينها عمر

ولكنها عدلت بعد ذلك وتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم فكانت (٤٨) درهمـا على الاغنياء تدفـع شهرياً و (٢٤) على متوسطي الحـــال و (١٢) على الفقراء .

٥ ــ **الغنيمة** : هي ما يكسبه المسلمون في الحرب من الاعداء . وهي على اربعة اقسام : اسرى وسبي وارضين واموال . فالاسرى هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الاسر . واختلف في حكمهم منها قبول الفدية عنهم او قتلهم أو أن يمن الخليفة عليهم بالاطلاق . اما السبي فهم النساء والاطفال الذين يقعون في الاسر فلا يجوز قتلهم . اما الارض فقد تقدم ذكرهـا في بحث الخراج والعشر . اما الاموال فاربعـة اخماسها للمقاتلين وخمس للرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. وذلك حسبما جاء في كتابه العزيز : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وقـد فاضل النبي ﷺ بين الفارس والراجل انما اختلف فيما بعد في قدر تفضيله . قال ابو حنيفة : يعطان للفارس سهمان والراجل سهم . ورأى الشافعي ان يكون ثلاثـة اسهم للفارس .

٦ ــ **الفيء** : هو كل مال سهم وَصل من المشركين المسلمين عفواً من غير قتال .. ويدخل فيه الخراج والعشر والجزية وغيرها من واردات بيت المال . ويصرف خمسه حسب الآية الكريمة : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » « سورة الحشر » اما اربعة اخماس الفيء الباقية كانت تقسم في صدر الاسلام على الجند والاعمال الحربية لشراء الاسلحة وغيرها حتى دون عمر الدواوين وعين ارزاق الجند فاصبح الفيء يوضع في بيت المال .

فمن أراضي الفيء مثلاً في الشام والعراق ومصر الضياع الخاصة التي هجرها ملاكها الهاربون ، او الاراضي التي كانت ملكاً للحكومات السابقة . أو الضياع التي صودرت بسبب اثارة الفتن ضد المسلمين ، أو الاراضي العامة التي لا صاحب لها كالغابات والمروج .. واضيف إلى مثل هذه الاحوال ، في فارس ، الاراضي التي كانت وقفاً على معابد النار .

ومع الزمن ، صرف الدخل من الفيء على الاعمال والاشغال العامة ، كحفر القنوات ، وإقامة السدود على الانهار ، وتشييد الخزانات وتعبيد وترميم الطرق ...

ولادراك الفرق بين أراضي الفيء وأراضي الخراج ، يكفي أن نعتبر ان أراضي الفيء ملك للدولة ، وأن أراضي الخراج من القطاع الخاص ، ملك لاصحابها من الشعب وتأخذ الدولة من أملاكها مجموع حصة المالك وضريبة الانتاج ، بينما تأخذ الدولة من املاك الشعب فقط ضريبة الانتاج .

٧ ـ **الواردات الاخرى** : ويدخل ضمن واردات بيت المال سوى ما ذكرنا :

أ ـ **المكوس (العشور او ضرائب الجمرك)** : وهي ضريبة عن كل تجارة واردة في البحر أو البر مهما يكن نوعها . ولانعلم مقدار ما كان يجمع منها إذ أنها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهذه الضريبة لا تؤخذ إلا إذا انتقل التاجر من بلاده إلى بلاد أخرى . أي إذا انتقل الشامي إلى العراق أو مصر وهكذا .

ب ـ **اعشار السفن** : هي ضريبة على السفن التي تمر ببعض الثغور فيؤخذ منها العشر عيناً . وكانت تبلغ أموالاً كثيرة في بعض الاحيان . وقد بلغ ضمان اعشار السفن في عدن في القرن الرابع ﻫ (٢٠٠٫٠٠٠) دينار وفي القرن السادس ﻫ (١١٤٫٠٠٠) دينار . وكان الاندلسيون يأخذون ضريبة

من السفن في ذهابها وإيابها عبر بوغاز جبل طارق عند مدينة طريف . ومنها اشتقت كلمة Tariff التي تدل عنـد الافرنج على الرسوم التي تؤخذ على البضائع أو تدل على الكتاب المتضمن بيان لائحة الاثمان .

ح ـ **العشور** : وهي عشر بضائع التجـار غير المسلمين حين ينقلون بضائعهم من بلاد خارجة عن سلطات المسلمين إلى بلادهم أشبه بالمكوس أو الضرائب الجمركية في الوقت الحاضر ، وكانت أحياناً تقل عن العشر أو تزيد حسب الظروف ، كما أن مما يجدر ذكره أن العشر يؤخذ على التاجر وتجارته مرة في العام ، لا في كل مرة يدخل فيها البلاد ويخرج منها كما تدفع المكوس في الوقت الحاضر ، إلا إذا اتفق على ذلك واشترط على التجار .

وكان مما نبه المسلمين إلى فرضها ، وقد كان اهل مكة في الجاهلية يجبون العشور على المتاجر التي تمر بمدينتهم ، ان والي الكوفة أبا موسى الأشعري ، كتب إلى الخليفة عمر يخبره ان تجار المسلمين الذين يتاجرون خارج المناطق الاسلامية يدفعون ضريبة مقدارها ١٠٪ على سلع متاجرهم فأجابه عمر ، بالمعاملة بالمثل ، والقيام بجباية ضريبة مماثلة على الاجانب الذين يتاجرون في البلاد الاسلامية . ويروي أبو يوسف في كتابه الخراج ، ان المسلمين لم يأخذوا ضريبة العشر على البضائع التي تقل قيمتها عن مائتي درهم ، وهذا يذكرنا بانظمة الجمارك الحالية ، وما يتعلق بمـا يحمله المسافرون معهم حين يفتشون عند اجتيازهم الحدود ، ولم يجبوا منهم أي ضريبة على ما يحملون من متاع ، وان كانت العشور على سلع التجارة التي تنقلها قوافل التجار ... كما كان المسلمون أيضاً يتناولون العشر من السفن التجارية التي تمر بموانئهم الكبرى على سبيل المرور والراحـة والتموين فيها كمرافىء اليمن ومضيق جبل طارق ، وهو أشبه بما تدفعه السفن حالياً من ضرائب ، عند مرورها من ترعة السويس أو امتيازها من مرفأ كبير .

وأول ما بدأ فرض العشور أي الجمارك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ويروي قصة ذلك القاضي أبو يوسف : بان جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب : دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا (أي تأخذ العشور) . فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ فاشاروا عليه به ، فكان أول من عشر أهل الحرب ، وبعث زياد بن حدير على عشور اهل العراق والشام .

وحدث في زمن عمر بن الخطاب كما يروي أبو يوسف : أن رجلاً من نصارى تغلب مرّ على زياد بن حدير بفرس قومت بعشرين الفاً ، فأخذ منه زياد ألفاً ، ثم مرّ راجعاً في سنته فقال زياد : اعطني ألفاً أخرى . فقال التغلبي : كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً ؟ قال زياد : نعم . فسار التغلبي إلى الخليفة عمر ، فوافاه بمكة وهو في بيته فاستأذن عليه . فقال : من انت : قال : رجل من نصارى العرب ، وقص عليه قصته . فقال عمر : كفيت . ولم يزد على ذلك . فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على ان يعطيه الفاً اخرى . فوجد كتاب عمر قد سبقه اليه وفيه : من مرّ عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً . فقال التغلبي : قد والله كانت نفسي طيبة ان اعطيك الفاً . وإني أشهد الله اني على دين الرجل الذي بعث اليك الكتاب . واصبح كتاب عمر هذا قاعدة تحصيل العشور ، وقد اختلفت قيمتها باختلاف مذهب صاحب البضاعة ، نستدل على ذلك من قول انس ابن سيرين حيث قال : « أرادوا أن يستعملوني على عشور الابلّة (مرفأ على شط العرب) فأبيت ، فلقيني أنس بن مالــك فقال : ما يمنعك ؟ فقلت : العشور اخبث ما عمل عليه الناس . فقال لي : لا تفعل . عمر صنعه فجعل على أهل الاسلام ربــع العشر ، وعلى اهل الذمة نصف العشر ،

وعلى المشركين ممن ليس لهم ذمـــة العشر . وهكذا نلاحظ ان عمر لم يأخذ من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليها من الزكاة ... كما يروى أن نسبة العشور تعدلت مع الزمن ، وبالنسبة لأهل الحرب أي للبلاد غير الاسلامية المجاورة لها ، قاعدة المعاملة بالمثل ، فيدفـع التجار من هذه البلاد نفس النسبة التي يدفعها التجار المسلمون حين يدخلون ديارهم للتجارة .

د ـ اخماس المعادن : والمعادن على نوعين الظاهرة والباطنة . فالظاهرة التي تبدو على وجه الارض كالكحل والملح والقار والنفط لايؤخذ عنها شيء . اما الباطنة فكانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس .

هـ ـ غلة المستغلات : وهو ما يجبى لبيت المال من أسواق ومنازل وطواحين ابتناها الناس في ارض السلطان فيؤدون عنها أجرة . وبلغت في ساموراء (١٠) ملايين درهم في السنة .

و ـ غلة دار الضرب : هو ما يخصص لبيت المال من دار الضرب بنسبة واحد من مئة على ما يضرب من نقود للشعب . وقد بلغت في الاندلس في عهد الامويين (٢٠٠٠٠٠) دينار في السنة .

ز ـ الاموال التي ليس لها مستحق : كاللقطة ومال من يموت وليس له وارث .

ح ـ فيما يخرج من البحر : كالحلية والعنبر . ويرى ابو حنيفة أنها تكون بمنزلة السمك أي لا يؤخذ منها شيء . أما القاضي أبو يوسف فيرى أن يؤخذ منها الخمس كما أفتى بذلك عمر بن الخطاب .

الواردات غير المشروعة : أورد ابو يوسف في كتاب الخراج عدداً من من الضرائب التي طلب إلى الشعب الامتناع عن تأديتها مما يدل على ان

بعض جباة الضرائب والملتزمين كانوا يفرضونها على الناس. فقد ذكر ابو يوسف بانه لايطلب من دافعي الخراج إطعام جامعي الضرائب او دفع اجور الكيل، ولا اضافات في كمية الضريبة في السنين الخصبة ذات المحصول الممتاز، ولا أجور الحمل، او اثمان القراطيس التي تسجل فيها الواردات وتعليمات الحكومة، ولا اجور المراسلات، ولا أجور الاشخاص الذين يتنقلون بين مركز الولاية والقرى النائية.

وحض ابو يوسف الناس على عدم السكوت امام ظلم جامعي الضرائب وسوء معاملتهم، وذكر أمثلة جباة اوقفوا الفلاحين أياماً في الشمس على أبوابهم بانتظار دورهم في الدفع، أو ضربوا الفلاحين بقسوة... واقترح بعد هذا كله قيام نظام للمراقبة، وتعيين «عيون» للولاة والخليفة يقدمون التقارير عن كل مخالفة من هذا النوع ليمنع عن الفلاحين، الجهلاء، والذين يخافون سطو رجال الحكم، ان يتقدموا مباشرة بالشكوى عن كل سوء يحل بهم.

طرق الجباية: (جباية الخراج والعشر والجزية). كانت على ثلاثة أنواع:

١ ــ **الطريقة المباشرة:** وذلك ان الخليفة كان يعين إلى جانب الوالي صاحب الخراج لجمع خراج وعشر الارض والجزية. ولا يكون للوالي عليه أي سلطة. الا أن الولاة كانوا أحياناً يضمنون الخراج كما فعل يحيى ابن برمك وغيره.

٢ ــ **طريقة التضمين او التلزيم:** وذلك ان الدولة تعلن عن رغبتها في تضمين الخراج لمناطق مختلفة فيجتمع الناس من الاغنياء والمتنفذين ويلتزم كل منهم منطقة من مناطق الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة. أما إذا كانت الأرض من أملاك الدولة فان الملتزم يضمن بلدة أو قرية فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي.

٣ ـ **طريقة المقاسمة** : وهو نظام وضعه عمر بن الخطاب وذلك أنه كان يحصي أموال الولاة قبل توليتهم ثم يلزمهم عند اعتزالهم بدفع نصف الاموال التي جمعوها أثناء ولا يتهم والتي لا تسمح بها رواتبهم. وقد فعل ذلك مع معاوية وعمرو بن العاص. كما لجأ الأمويون إلى طريقة **الاستخراج او التكشيف** وذلك باجراء تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الادارية، وكانوا يعذبون ليقروا بالأموال التي جمعوها واودعوها عند أهلهم وأصدقائهم. وكان مثل هذا التحقيق يتجاوز أحياناً الحدود المشروعة ويصبح وسيلة الانتقام والأخذ بالثار وجمع المال.

وقد بلغت واردات الدولة العباسية في عصر المأمون حوالي « ٤٠٠ » مليون درهم. إلا أنها أخذت تتناقص مع الزمن حتى أصبحت نصف هذا المبلغ تقريباً.

نفقات الدولة : لقد نص القرآن الكريم على أوجه صرف بعض موارد بيت المال كالغنيمة والفيء والزكاة مما ذكرناه في حينه. أما بقية واردات الدولة فكانت تنفق في سبيل تأمين مصالح الحكومة من نفقات للخليفة ورواتب للقضاة والولاة والعمال وغيرهم من الموظفين، واعطيات الجند وتأمين المعدات الحربية وكري الانهار واصلاح مجاريها وحفر الترع واقامة الجسور وإطعام المسجونين والاسرى ودفن من يموت منهم واقامة المستشفيات وغير ذلك. ويعود تنظيم العطاء، وهو احد اوجه نفقات الدولة الرئيسية الى عمر بن الخطاب الذي استهدف به مصلحة المجتمع الاسلامي العامة الدائمة، دون مصلحة مجرد المقاتلين الذين حصلوا على الغنائم او ساهموا بالجهاد، فأمر بتوزيع واردات المقاطعات التي تم ضمها للامبراطورية الاسلامية الغنية في عهده على كافة المقاتلة سواء من ساهم بالقتال او من كان مستعداً للمشاركة في المعارك المقبلة. وفي المصادر العربية

تفاصيل وافية عن الاسس التي اتبعها عمر في توزيع العطاء في المدينة المنورة ، وفي بقية المدن والامصار . ففي عاصمة المسلمين جعل عطاء الناس بحسب اسبقيتهم للاسلام ، فمن اسلم قبل بدر كان عطاؤه اكبر ممن اسلم بعد بدر ، وهذا عطاؤه اكثر من عطاء من اسلم بعد الحديبية . . . (وفي الطبري وابي يوسف شرح واف لذلك) اما في العراق والشام ومصر فجعل لمقاتلة المعارك الكبرى النصيب الاوفى ، ثم يتدنى النصيب كلما قلت المساهمة في القتال ، ولم يهمل سكان البلاد الاصليين من نصيبهم في العطاء اي من حقهم في اموال الدولة . . . ويروى ان احد المسلمين انتقد يوماً ما عمر ، حين وزع جميع ما ورد على بيت المال فقال له : يا أمير المؤمنين ! لو تركت في بيوت الاموال عدة فقال عمر : كلمة القاها الشيطان على فيك . وقاني الله شرها . وهي فتنة لمن بعدي . وبالفعل فان من جاء بعد عمر من خلفاء امويين وعباسيين لم يتصرفوا بموارد بيت المال ، بل احتفظوا دائماً بمبالغ ضخمة للنوائب وما تخبئه الايام .

والغريب ان بعض الخلفاء ، كانوا يزيدون عطاء الناس يوم توليهم الحكم ، او عند استنفارهم لامر جلل ، ولمرة واحدة ، فكان ذلك بمثابة مكافآت تشجيعية او تقديرية او كسباً لعطف العامة وولائها ، وقد فعل ذلك عثمان وعلي ومعاوية ويزيد وقلدهم من اتى بعدهم من خلفاء . وكان على اهل العطاء مقابل ذلك ان يجهزوا انفسهم بالسلاح ويذهبوا للقتال.

وقد بلغت نفقات الدولة العباسية في السنة زمن المأمون (٥٠) مليون درهم . وبذلك يتبقى (٣٥٠) مليون درهم وفراً في بيت المال . والدولة التي يتبقى لديها كل سنة مثل هذا المبلغ العظيم تعد في غاية الثروة.

ولكن ذلك الوضع تبدل كثيراً فيما بعد اذ زادت النفقات كثيراً

في أدوار الانحطـــاط بسبب إسراف الخلفاء وزيادة الرواتب وتخفيف الضرائب المختلفة ، هذا من جهة ومن جهـة أخرى تقهقرت الواردات بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها فلم يبق في بيت المال الا مبالـغ بسيطة ثم صار الامر في أيام المطيـع بالله سنة (٣٦١ هـ) الى ان يبيـع ثيابـه وأنقاض داره ليدفـع (٤٠٠٠٠٠) درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد.

النقـد : كنا تكلمنا في بحث الخلافة أنه كان من شارات الخلافـة ضرب النقود وأول من سك النقود العربية وجعل استعمالها اجبارياً هو عبد الملك بن مروان . اما قبل ذلك فكانوا يتعاملون بالنقود الفارسية والبيزنطية والعربية .

وكانت النقود من الذهب والفضة والنحاس . فالدنانير كانت من الذهب (الدينار لفظ لاتيني الاصل مشتق من Deni اي عشرة) . وكان يساوي وزن درهم وثلاثة اسباع ، أما قيمته فتتراوح بين (١٣) و (١٥) درهم فضة أو أكثر ، وكانت الدراهم من الفضة ووزن الدرهم من الفضة (٥٠) حبة . ويساوي الدرهم ستة دوانق ويصنـع الدونق من النحـاس ومرجـع قيمة هذه النقود كلها الى الوزن كما لاحظت .

وكان يكتب على هذه النقود اسم الله والنبي ﷺ على أحد الوجهـين وعلى الوجه الثاني التاريـخ واسم الخليفة .

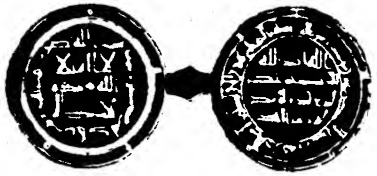
وتذكر المصادر وجود نقود عربية قبل عهد عبد الملك . يقول المؤرخ الالماني مولر أن خالد بن الوليد ضرب في طبرية دنانير على رسم وشكل الدنانير الرومية تماماً وعلى أحد وجهيها أسم خالد باليونانية وذلك سنة (١٥هـ) كما يقول أيضاً أن معاوية ضرب نقوداً ذهبيـة على مثال الدينار الفارسي وعليها اسمه . وتوجد نماذج لكلا النوعين .

ويذكر المقريزي أن أول من ضرب النقود في الاسلام عمر بن الخطاب سنة (١٨ ﻫ) على مثال النقود الفارسية ، وجعل عمر وزن الدرهم ١٤ قيراطاً او سبعة اعشار المثقال ، وهو الحد الوسطي لوزن الدراهم التي كانت سائدة الاستعمال في انحاء البلاد اذ وجد ان بعضها يزن ٢٠ قيراطاً ، وبعضها ١٢ ، وبعضها ١٠ قراريط واكثرها مزور ، فاخذ رقما وسطاً ليجعله اساس عملته الجديدة . وكان ذلك سنة ١٨ ﻫ كما وجد عمر النسبة بين الدرهم والدينار جعلها $\frac{1}{10}$ واصدر عثمان بعده دراهم منقوشاً عليها « الله اكبر » .

كما أن الولاة كانوا يضربون النقود وخاصة في بلاد فارس . ويوجد نماذج منها يرجع تاريخها الى سنتي (٢٨) و (٣٨) .

دار الضرب : ولقد أوجدت دور لضرب النقود في العواصم الاسلامية وفي مراكز الولايات ، وكانت دور الضرب تتناول واحداً في المئة عن كمية الأموال التي تضربها للشعب كأجر للعمل ، وثمن للوقود ، ولو علمنا أن غلة دار الضرب بلغت في عهد أحد الخلفاء في القرن الرابع الهجري ٢٠٠ الف دينار في العام لادركنا كمية السبائك التي يقدمها الناس لسكها نقوداً ، وكمية النقود المتداولة بين أيدي الناس وغناهم ..

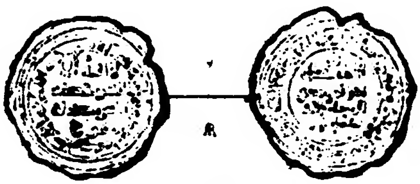
وكثيراً ما كان التزييف يتطرق الى النقود المتداولة رغم وجود قوانين من عهد عبد الملك تعاقب المزيفين بأشد العقوبات ، فيضطر أولو الامر عند ظهور أموال مزيفة إلى جمعها وضرب نقود جديدة ، من ذلك ما يذكر ابن الاثير في عهد إمرة الامراء ببغداد ، أن ناصر الدولة الحمداني « نظر في العيار فرآه ناقصاً فأمر باصلاح الدنانير فضرب دنانير سماها الابريزية



(أ)

شكل ـ ٢٢ ـ

آ ـ درهم ضرب في الاندلس في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ وعليه : (في المركز) « الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوآ أحد » (في الطوق) :« محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

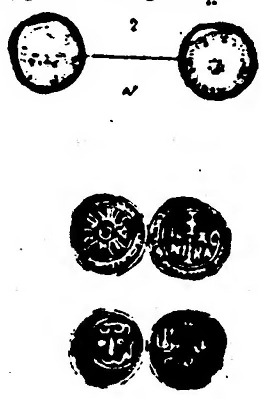


(ب)

شكل ـ ٢٣ ـ

ب ـ درهم آخر ضرب في الاندلس سنة ١٧٠ هـ كتب عليه : (في المركز) : « الامام هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله » . (في الطوق) : « محمد رسول الله ارسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وعلى الوجه الآخر (في المركز) : « لا اله الا الله وحده لا شريك له » (في الطوق) ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة ١٧٠ هـ وعلى الوجه الآخر (في المركز) : « بسم الله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له » (في الطوق) :« ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة سبعين ومية »

شكل ـ ٢٤ ـ



نقود عربية ضربت في شمالي افريقيا والاندلس كتبت بلغتين عربية ولاتينية ، يعتقد المستشرق آجيو المشرف على ديوان الاوسمة في باريز انها ضربت من قبل القواد المسلمين في اول عهدهم بهذه البلاد . والكتابة اللاتينية تشمل نصوصا دينية اسلامية .

خير من غيرها ، فكان الدينار بعشرة دراهم فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً » .

وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة . يؤخذ طابع من حديد تنقش عليه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ثم توزن المعادن ويوضع الطابع فوق كل قطعة ويضرب عليها بطرقة ثقيلة حتى تظهر الكتابة عليها . ويقول ابن خلدون ان كلمة السكة كانت تطلق على طابع الحديد ثم نقل هذا المعنى الى النقوش التي على النقود ثم أصبح يطلق على وظيفة وعمل ضرب النقود والنظر على استيفاء حاجاته وشروطه .



شكل – ٢٥ –

وجه دينار اموي ضرب سنة ٨٠ هـ منقوش بكتابة كوفية نصها في الوسط : « الله احد ، الله الصمد ، لم يلدولم يولد ... وفي الطوق « ضرب هذا الدينر سنة ثمنين » والدينار محفوظ في المتحف العراقي ببغداد .

الفصل الخامس عشر

النظام الاجتماعي

المجتمع الجاهلي : كان المجتمع العربي في الجاهلية ، بنتيجة تأثير البيئة الطبيعية ، يحوي نوعين متقابلين من الحياة حياة البدو الرحل في الوسط وفي نجد خاصة ، وحياة الزراع المستقرين على الاطراف أي في الحجاز واليمن وحضرموت وعُمان . وقد قام التنظيم الاجتماعي للحضر من العرب كما للبدو (الأعراب) على إساس القبيلة[1] وكل الشعوب في اطوار تكونها الاولي مرت بالطور القبلي . ومعظم مظاهر التنظيم القبلي مظاهر عامة مرتبطة ببداوة كل امة ولها قوانينها العامة التي لاتقل قيمة وتنظيماً عن قوانين اي نوع من أنواع الحياة الاخرى ثم تغادرها الامة إلى المرحلة المدنية ، فينظم المجتمع اما على اساس الفرد الحر مثلاً كما في اليونان ، أو على

---

(١) نستعمل كلمة قبيلة بالمعنى الذي تقابل به كلمة عشيرة . وهي في الاصل خاص لاحد اقسام المجتمع البدوي غلب على اسماء الاقسام الاخرى : فهناك ما هو أكبر منها وما هو أصغر . وهي بالترتيب الشعب (كعدنان) والقبيلة (كربيعة ومضر) والعمارة (كقريش) والبطن (كعبد مناف) والفخذ (كهاشم) والفصيل (كبني طالب) .

اساس العائلة كما فعل الرومان او على اساس الملك الاله كما فعلت مصر القديمة ، أو على جمهور المؤمنين كما صار إليه المجتمع المسلم .

والمجتمع العربي الجاهلي كان يتألف من عرب القبائل المختلفة . وهم جميعاً احرار ومتساوون في الحق والقيمة وتقوم الرابطة القبلية على الدم ، اي شجرة النسب الواحد . والعصبية القبلية شديدة تظهر في كل مناسبة وتنعكس في مثل قولهم : « انصر اخاك ظالماً أو مظلوماً » وقولهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

وشيخ القبيلة يتزعمها بالنسب أو بالغنى أو الشجاعة أو الرأي . وسلطته مطلقة إلا انه مع ذلك يشاور في امور الحروب والحكومة كبار القبيلة . وله على القبيلة حقوق الرئاسة التي جمعها قول الشاعر :

لك المرباع منا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[1]

والعائلة في القبيلة يمثلها ربها وهو جندي فيها لا يملك سوى خيمته وله على اولاده حق الوأد والحرمان من الارث والخلع (التبرؤ) وله حق الطلاق والزواج كيف شاء .

ويتبع القبيلة طبقة **الموالي** وهم من دخلوا في ولاء القبيلة إما لان قبائلهم نبذتهم أو لأنهم تركوها أو كانوا عبيداً فاعتقوا ....كما يتبع العائلة العبيد الارقاء وهم من غير العرب دوماً . وقد دخلوا في ملك اصحابهم بالشراء أو بالاسر في الحروب او لسداد دين . ويظهر ان عدد الرقيق لم يكن كبيراً لدى العرب في الجاهلية . ولعلنا نستطيع أن نضيف الى هذا كله جماعة وجدت خارج القبائل والمجتمع القبلي ممن عرفهم العرب

---

(١) أي ربع الغنيمة . وما يصفيه . وما يحكم ازله . وما يصيبونه في الطريق الى الغزو . وما يفضل من الغنيمة مما لا تصح قسمته .

باسم الصعاليك او الذؤبان وقد اشتهر منهم عـــدد لهم مكانتهم الخاصة في الادب العربي والتاريخ الجاهلي .

ولم يكن تنظيم الحضر الاجتماعي في القرى والمدن العربية والواحات ، ليختلف عن تنظيم الاعراب القبلي سوى ان الملكية موطدة فيهم بينما نرى المرعى والماء والارض مشاعة عند البدو للجميع .

القضاء في الجاهلية : القضاء هو من الامور المعروفة المقدسة عند كل الامم مهما بلغت درجتها في الحضارة رقياً او انحطاطاً ، لان الخصومة من لوازم الطبيعة البشرية . فلو لم يكن هنالك وازع للقوي عن الضعيف لاختل النظام وعمت الفوضى يشير الى ذلك قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

كانت منازعات العرب في الجاهلية محدودة معروفة لاتتعدى شجارهم على مراعيهم أو مناهلهم التي يشربون ، ومنافراتهم على الرئاسة وتنافسهم في الشرف والثروة الى غير ذلك . وهو عصر سادت فيه العادات والتقاليد . وكان من عادة العرب ان يطيعوا بباعث من انفسهم قوانينهم المستمدة من العرف والعادة ومصدرها تجاربهم ومعتقداتهم ، او مقتبسة ممن جاورهم من الشعوب كالفرس والروم او ممن احتكوا بهم كاليهود والمسيحيين .

وكان لكل قبيلة شيخ هو سيدها بيده السلطان على افرادها روعي في اختياره الشجاعة وكبر السن وكثرة التجارب وغزارة العلم وسداد الرأي . وكان هو قاضيها يحكم بين افرادها وفق عرفها وتقاليدها .

هذا بالنسبة للقبيلة . أما بالنسبة للعرب عامة فقد اشتهر عدد كبير من الحكام كان يلجأ اليهم المتخاصمون منهم : اكثم بن صيفي وعبد المطلب ابن هاشم جد الرسول وقس بن ساعدة الايادي وابن أبي الصلت وزهير ابن أبي سلمى . ومن النساء حذام بنت الريان . التي قيل فيها :

اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

وكثيرات غيرها .

ولم يكن حكم القاضي فاصلا في النزاع وانما كان للقوة القدح المعلى في انهاء الخلاف . وقد يجر حكم الحكم لاحد القبيلتين الى اشعال نار العداء والبغضاء والانتقام بين القبيلتين المتنازعتين وقد يتعداهما الى قبائل اخرى كما حصل بين الاوس والخزرج ، وعبس وذبيان ، وربيعة ومضر وغيرها .

أما منازعات الافراد داخل القبيلة الواحدة فان حكم الشيخ فيها حكم نهائي ملزم .

ومن عادات العرب أن يلجؤوا أيضا في منازعاتهم الى الكاهن لاعتقادهم أنه يستطيع اظهار الحق بمعرفته لان له تابعا من الجن يطلعه على كل شيء . أو الى العراف الذي يعلم الامور عن طريق الفراسة والقرائن .

كما كانوا يحتكمون ايضا الى الازلام وهي سبعة محفوظة عند سادن الكعبة كتب على الاول منها (أمرني ربي) وعلى الثانية (نهاني ربي) وكان يستقسم بهما في حالة التفكير في سفر او تجارة او زواج او اي امر مستقبل فان خرج الاول اقدموا وان خرج الثاني احجموا .

وقد كتب على السادس (العقل) والسابع (الغفل) فان لم يثبتوا القاتل احضروا المشتبه بهم فمن خرج عليه قدح العقل الزموه الدية .

حلف الفضول : ومن أشهر الحوادث التي حصلت في الجاهلية لأخذ الحق من الظالم وانصاف الضعيف حلف الفضول . وذلك ان وقع خلاف بين العاص بن وائل ورجل من زبير اشترى العاص منه سلعة وماطله في الدفع فلما عيل صبر الرجل جاهر بظلامته حول الكعبة بين رجال من قريش .

فاجتمعت قريش في دار عبد الله بن جدعان وعقدت حلف الفضول وقد شهده النبي عليه السلام . وقرروا ان يشتركوا جميعاً في رفع الظلم واخذ الحق من القوي والغريب من القاطن . وبذلك نستطيع ان نقول ان النظام الذي عرف في الاسلام باسم نظام النظر في المظالم عرفه العرب في جاهليتهم .

تشكل المجتمع الاسلامي : لم يكن قد مضى على العرب المسلمين أكثر من سنين معدودة بعد الهجرة حين خرجوا من الجزيرة وحرروا مجتمعات الشام ومصر وليبيا من الحكم البيزنطي ، والعراق من الحكم الساساني ، ونشروا نفوذهم على ايران الفارسية . ولم يمض بعد ذلك كبير وقت حتى امتد نفوذ الدولة الاسلامية على مملكة تمتد في آسيا من تركستان واطراف الهند إلى ايران ثم العراق والشام وأواسط آسيا الصغرى ثم الجزيرة العربية ، كما تشمل من افريقيا : مصر وشمالي السودان وبرقة وطرابلس والمغرب العربي كله ، ومن اوربا : شبه جزيرة ايبريا وصقلية وقسم من جنوبي ايطاليا . وقد كانت عناصر السكان في هذه البلاد مختلفة متباينة لا في الاصل فحسب ولكن في الحياة الاجتماعية وفي الثقافة الفكرية والاتجاهات الاقتصادية عدا تباين التاريخ واللغات والميول : **فالجزيرة العربية** كانت مهد العرب ومركز فرعيهم من قحطانيين (في الجنوب غالباً) وعدنانيين (في الشمال) مع عناصر محدودة جداً من الفرس والحبش في الجنوب . **وفي الشام :** كان السكان خليطاً من بقايا العرب القدماء كالآراميين في الداخل[1] **والفينيقيين** في الساحل كما تتوضع بينهم في نقاط معينة من البلاد (كقيسارية انطاكية و مثلاً) عناصر هلينية ورومانية غربية ، وتمتزج بهم فيما بين جنوب فلسطين

---

(١) تسمى الآراميون بعد النصرانية باسم السريان نسبة الى سوريا .

إلى الجزيرة العليا حيث منابع نهر دجلة عناصر عربية بدوية وحضرية اهمها الغساسنة الذين **ورثوا الانباط والتدمريين** ، وكانت تنتشر في بعض المدن مجموعات يهودية صغيرة مغلقة .

وفي **العراق** كانت كتلة السكان الاساسية مكونة ، خلال العصور ، من العرب القدماء وهم ورثة الآشوريين في الشمال والكلدانيين في الجنوب مع عناصر فارسية أهم مركز لها المدائن (عاصمةالساسانيين) ، وعناصر سريانية بين الحيرة وحران ، وعناصر عربية اخرى بدوية وحضرية تملأ مابين الأبلة والجزيرة العليا واهمها بنو لخم في الجنوب وبنو تغلب في الشمال .

أما **فارس** فيختلف التركيب الجنسي فيها اختلافاً اساسياً ولكن العناصر المسيطرة هي العناصر التي ندعوها لغوياً باسم الآريين وأهمها الفرس . واما في **التركستان** فالعناصر التركية من الجنس المغولي الاصفر هي السائدة .

فاذا انتقلنا الى **مصر** وجدنا ذلك المزيج المصري القديم الذي يدعونه بالقبط (والمؤلف من عناصر عربية قديمة وحامية معاً) مع مجموعات محدودة من الرومان ـ اليونان في الاسكندرية خاصة وتظهر العناصر الزنجية في **السودان** .

وفي **المغرب** تظهر العناصر التي يدعونها لغوياً بالحامية : وهي البربر . وبينها بعض المجموعات الاجنبية من بقايا الفاندال (الجرمن) والرومان وبقايا القارطاجيين الذين يعودون في أصولهم الجنسية الى العرب القدماء . كما نرى في **اسبانيا** خليطاً من العناصر التي يتكون منها السكان الاصليون من الاسبان ، محكومين من قبل مجموعة القوط الغربيين (الويز يقوط) .

ويتوزع بعد هذا كله مجموعات معينة ، مغلقة وصغيرة ، من اليهود في الشام واليمن ومصر والمغرب واسبانيا .

وقد خرج العرب من جزيرتهم فانساحوا في هذه الرقعة الواسعة من البلاد على شكل موجة أولية جرت أيام الفتح الاول في عهد عمر وعثمان وقد توضع معظمها في الشام والعراق ومصر . ثم استمر خروج العرب من الجزيرة واستمر توضعهم في انحاء العالم الذي فتحوه حتى نهاية العهد الاموي . ولئن قلت هذه الهجرة بعد ذلك فانها لم تنقطع لاسيا نحو المغرب (كتغريبة بني هلال) .

وهكذا نجد عدداً كبيراً من القبائل العربية يستقر في أبعد أنحاء المملكة العربية أي في خراسان وفي الاندلس والمغرب كما يستقر في فارس وفي العراق والشام ومصر .

وتنتقل هذه القبائل العربية من حياة البداوة إلى الحياة الحضرية المستقرة .

وبالرغم من ان المجتمع العربي الاسلامي فوجىء منذ أوائل القرن الثالث للهجرة بهجرة بدوية اخرى من أتراك تركستان تركت أثراً واضحاً في آسيا الصغرى فقط ، إلا أنها لم تؤثر غير تأثير محدود جداً في ايران والهلال الخصيب ومصر ، ولم تستطع الوصول إلى الجزيرة العربية ولا إلى شمالي افريقيا والاندلس . وهكذا بقيت الصبغة التي حملها العرب المسلمون إلى هذا العالم الواسع هي الغالبة في معظم المناطق .

فالعرب الذين توطنوا في الهلال الخصيب ومصر والمغرب لم يجدوا أي صعوبة في التوضع وفي الاندماج بعناصر السكان الموجودة في هذه المناطق ومعظمها تتفق معهم في الاصل أو في اصول اللغة وتضافرت عوامل عدة لجعل هذه العناصر تستعرب نهائياً :

اولها : انتشار اللغة العربية بجانب الدين الاسلامي انتشاراً تدريجياً مستمراً خلال القرنين الاولين للهجرة خاصة .

ثانيها : اختلاط العرب جنسياً بالزواج والمصاهرة والتسري ؛ واجتماعياً بالمساكنة والمعاملة مع العناصر الاخرى فتغلبوا عليها .

ثالثها : الحكم العربي واستئثار العناصر العربية بقوة الحكم وشرف حمل الديانة الاسلامية للناس . مما اخضع لها العناصر الاخرى وجعلها تقر لها بالفضل وتحاول ادعاء النسب العربي بأي شكل .

على ان العناصر العربية التي توضعت في خراسان وفارس وتركستان لم تستطع ان تتغلب على المجموعتين الآرية والمغولية فذابت فيها منذ القرن الرابع الهجري كما أنها اخرجت من الاندلس بعد انهيار الحكم العربي هناك في القرن الثامن الهجري (الخامس عشر م) واستؤصلت بمختلف الوسائل ، فلم يبق سوى الآثار الرائعة والتأثيرات العميقة التي لخصها الشاعر الاسباني المعاصر (فيلاسباسا) في قوله : لو حكّ أحدنا جلده لظهر تحته الجلد العربي .

وعلى اي حال فقد خرج من مجموع تلك العناصر المشتبكة التي ذكرناها : مجتمع اسلامي – عربي تماماً في بعض المواضع ومستعرب ثقافياً أي دينياً ولغوياً في بعض المواضع الاخرى .

٢ ـ طبقات المجتمع الاسلامي وتطورها :

قبل البدء في دراسة المجتمع الاسلامي وتطوره يحسن ان ننتبه إلى ملاحظات ثلاث :

اولهما : ان طبقات المجتمع الاسلامي لم تكن طبقات مغلقة أي

ماوصلت مرة الى درجة اقامة الحدود التي لاتخرق بين الناس . ولكنها تكونت تبعاً لبعض الاعتبارات المتحولة من اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية.

الثانية : ان هذه الطبقات كانت تنشأ في عصر وتموت في آخر ، ولم تحافظ واحدة منها لاعلى بقائها ولا على مرتبتها الاجتماعية خلال التطور .

الثالثة : انا سنوجه اهتمامنا لدراسة المجتمع الاسلامي الحضري وخاصة كما ظهر في العراق والشام ومصر والاندلس ؛ على انه يجب الا ننسى ان مجموعات بدوية كثيرة بقيت تعيش حياتها ، على طريقتها الاجتماعية الخاصة في قلب الجزيرة العربية وايران وتركستان. وفي صحاري مصر وليبيا وبلاد المغرب .

ـ المجتمع الاسلامي في عهد الرسول ومطلع العهد الراشدي :

اعلن الاسلام منذ أيامه الاولى تحطيم النظام الاجتماعي بين العرب ، وقرر للعرب نظاماً آخر يقوم على اسس اخرى ، وقد رمز الدين الجديد لهذا الانقلاب بكلمتي : الجاهلية والاسلام ، وما يختفي وراء الكلمتين من معان ومثل .

حطم الاسلام اولاً رابطة المجتمع القبلي القائمة على الدم والنسب ، واحل محلها رابطة الايمان والاشتراك في الدين الواحد . وهي رابطة واسعة مفتوحة الاطراف لكل من يؤمن بالاسلام . وتواترت الآيات والاحاديث التي تؤكد اخوة المؤمنين وتساويهم وتفاضلهم بالتقوى : « انما المؤمنون اخوة » .

« يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » « المؤمنون سواسية كأسنان المشط » « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والدين » .

وقد نظم الاسلام المجتمع الاسلامي فدعا إلى مكارم الأخلاق ،

رائدة لجميع المسلمين ، وجعل الخوف من الله في السر والعلانية اصلا للمعاملة ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية ، كما جعل المسلمين سواسية ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، لافرق بين عربي مسلم وأعجمي مسلم ، كما جاء في الآيات والاحاديث المذكورة ، ورفع شأن المرأة فنظم أمر زواجها وطلاقها وميراثها وحقوقها ، وإن أبقى الاسلام على نظم الرق ، فقد حسن معاملة الرقيق وفتح الطريق لتحريره بأبواب عدة شجع فيها المؤمنين على الاستغناء عنه .. ووضع أصول المعاملات ، وبين علاقات الأفراد بعضهم مع بعض ومع اولي الأمر ، وأوجب الزكاة وحدد أوجه صرفها في أمور تساعد فيها الفقير والمحتاج والمسكين وابن السبيل ، وأطلق يد ذوي اليسار بالصدقات يتقربون بها إلى الله ، وأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان المجتمع الاسلامي في عهد الرسول عليه السلام ، من العرب ، الذين عاصروا الثورة الاجتماعية الاسلامية ، فلما خرج العرب في عصر الراشدين من حدود الجزيرة الى الهلال الخصيب ووادي النيل ، ثم انساحوا إلى ما بعد ذلك كثرت العناصر التي صارت تؤلف المجتمع الاسلامي ، ولكن العربية بقيت غالبة ، في الدم واللغة على الأقل ، إذ كان في الشام والعراق ومصر عرب قبل الإسلام ، يتكلمون العربية ويرتبطون بابناء الجزيرة بصلة الرحم ويتصلون بهم عن طريق التجارة المستمرة ، والوفود القادمة من الجزيرة إلى الاطراف وعن طريق الشعراء . ولم يكن ابناء هذه البلاد من غير العرب غرباء عن العرب وعن لغتهم ، فقد كانوا على اتصال دائم بهم ، حين يقدمون مع قوافل التجارة ، وكان لعرب الحجاز مراكز خاصة بهم ، فغزة كانت مقراً لبعض تجار قريش ، وبصرى الشام تحتفظ لهم في سوقها بامكنة خاصة ؛ والحيرة عربية بدمها ولحمها ،

وصحراء مصر الشرقية ومدنها الرئيسية غاصة بالعرب . وما قصة عمرو بن العاص ، حين كان شابا في مصر ، قبل الاسلام ، الا دليل على ارتياد العرب هذه الديار وصلتهم الوثيقة باهلها ..

واللغة العربية نفسها ، لم تكن غريبة على الجمهرة الغالبة في هذه المناطق الجديدة ولم يكن تعلمها صعباً على الناس الذين انضمت بلادهم الى الدولة العربية الناشئة ، لان اللغة العربية احدى اللغات السامية ، وأكثر اللغات المحلية كانت وريثة اللغات السامية القديمة التي كان يتكلم بها ابناء الدول العربية القديمة ، عدا مراكز في المدن غلبت عليها اليونانية في الشام ومصر ، والفارسية في العراق ، وكان أبناء هذه المراكز أسرع العناصر اقبالاً على تعلم العربية للاحتفاظ بمركزهم الاجتماعي والمالي والادبي والسياسي الذي كان لهم ، وكان الذين دخلوا في الاسلام من جميع الطوائف والأجناس مالوا إلى تعلم العربية لعامل آخر ، هو حفظ القرآن واداء الصلاة ، فسرعان ، لعوامل متعددة ، ان سيطرت العربية في انحاء الامبراطورية الجديدة ، ونتج عن التزاوج الخصب بين العرب القادمين من الجزيرة ، وسكان البلاد الجديدة ، جيل جديد ، ينتمي من حيث الدم إلى الجنس العربي ، وهكذا تعربت الدولة ، كما غلب عليها ، الاسلام ، وإن بقيت اقليات من أهل الكتاب حافظت على عقائدها أو مذاهبها الدينية السابقة . وحتى العادات والتقاليد وأنظمة الحكم ، التي أقبل عليها عرب الجزيرة يقتبسونها ويمارسونها فانها تقاربت لاجتماع عدد من مختلف الأجناس في بيت واحد ، فقد عمل التزاوج بغير العربيات والتسري بالرقيق عمله في التقريب الاجتماعي والفكري ، كما عمل انتقال القبائل العربية الى مختلف المناطق على مثل ذلك من تقارب وتفاعل ..

لم تكن حركة التحرير والفتوح العربية قد انتهت حين بدأ دخول

جماعات مختلفة من الاعاجم في الاسلام فتغير بذلك وصف المجتمع العربي المسلم ، وظهر فيه التميز بين المسلم العربي والمسلم الاعجمي الذي اضحى يـدعى بالمولى . بمعنى الذين أسلموا على يـد العرب واتبعوهم وأصبحوا حلفـاء لهم . وسرعان ما عادت بهذا الشكل إلى الوجود ، منـذ مطالع العصر الاموي ، فكرة العصبية والنسب ، وعاد معها النزاع القبلي الجاهلي ما بين يمن (قحطانيين) وقيـس (عدنانيين) وما بين امويين (بني أمية) وهاشميين (آل علي) ...

على ان هذه الرجعة الى الجـاهلية لم تلـغ الاساس الديني في المجتمـع ولكنها تواءمت معه ، وهكذا اضحينا نرى في المجتمع الاموي خاصة ظهور عدد من الطبقات ذات فروع مختلفة ، تنقسم على مستويات مختلفة أيضاً :

فهناك اولاً **العرب** وفيهم الحكم والقيادة والاولية الاجتماعية : ومنهم طبقة آل البيت وطبقة الصحابة وطبقة الفاتحين (ممن حضر القادسية او اليرموك) وطبقة الحـكام الامويين وطبقة التابعين وتابعي التابعين .. الخ كما تميزت فيهم مجموعتان متناحرتان : القيسيون واليمانيون .

وهناك ثانياً **الموالي** : وهم الاعاجم المسلمون وجلهم من الفرس وقـد نبغ منهم العديد من علماء الدين ، وأسندت اليهم مناصب القضاء وغيرها ، بينما انصرف كثير منهم إلى الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة .

ثالثاً **طبقة العبيد** : التي كثرت كثرة كبيرة جداً بنتيجة الفتوح . وكلهم غير مسلمين ، في الاصل ومن كان منهم مسلماً فاسلامه كان بعد الرق .

أما غير المسلمين فـكانوا طبقة واحدة : تدعى **أهل الذمة** .وتشمل المسيحيين واليهود كما توسع مفهومها فشمل اصحاب الديانات غير السماوية أحياناً .وقد تمتع النصارى العرب خاصة بالمكانة نفسها التي كانت لباقي العرب يدلنا على ذلك مكانة الاخطل الشاعر مثلاً .

المجتمع في العصر العباسي :

تعدلت طبقات المجتمع في مطالع العصر العباسي لصالح الفرس خاصة بسبب اعتماد الخلافة العباسية عليهم في البدء ، وتوازت طبقتا العرب والفرس في السلم الاجتماعي ؛ على ان العصر العباسي سرعان ما أتى بطبقة حاكمة ثالثة هي المماليك الاتراك الذين تسربوا من التركستان الى الجيش ثم الى البلاط حتى سيطروا على مصائر الخلافة . واضمحلت في غمرة النزاع العام والاختلاط المستمر العصبية القومية ، بينما كان التطور الاقتصادي يصهر الفروق الاجتماعية لاسيما في العراق ليخلق مجتمعاً مدنياً جديداً يقوم التمايز الاجتماعي فيه على اساس المال من جهة وسلطة الحكم من جهة اخرى . وهكذا ظهرت بصورة خاصة في الشرق طبقتان اساسيتان :

الخاصة : وهم عدا الخليفة افراد البيت المالك وكبار القواد ورجال الدولة وكبار التجار والقضاة ، والاقطاعيون والموسرون واتباع هذه الطبقة من جند وخدم وعبيد وخصيان وشعراء .

العامة : وهم بقية أفراد المجتمع وطبقاته من التجار الصغار والصناع والمزارعين والباعة والفنانين والاحداث (المليشيا البلدية) .

وقد وجدت نتيجة فساد التنظيم الاجتماعي طبقة خارج الطبقات الاجتماعية من الفقراء منها **الشطار والعيارون** ونجد صدى هؤلاء واضحاً في التاريخ العباسي وفي قصص الف ليلة وليلة . ويضاف بالطبع الى هذه الطبقات طبقة **الذميين** وقد كانت ذات حرية وتقدم في شؤون العلم والاقتصاد وقد اتسع مفهومها في هذا العصر فشملت بجانب النصارى واليهود والمجوس : الصابئة .

ولئن تطور المجتمع الاسلامي في العصور العباسية المتأخرة وفي العصر

المملوكي تطوراً واسعاً وعميقاً فقد بقي محافظاً على طبقاته الاساسية وان برز في الطبقة الاولى المماليك اصحاب القوة العسكرية .

المجتمع الاسلامي في الاندلس : وقد اتبع تطوره نهجاً مختلفاً بعض الاختلاف عن المجتمع في الشرق ، فقد برزت فيه اول الامر طبقة الحكام ، ثم ظهرت بجانبها طبقة المولدين من الاسبان المسلمين وطبقة المستعربين وهم من لم يسلم من الاسبان ، وقد كانت لهم حكومتهم وادارتهم ممثلهم لدى دار الخليفة .



من طبقات

المجتمع العربي الاسلامي

١ – الموالي

الموالي : لكلمة « مولى » في اللغة معان عديدة : فهي تعني الرب والمالك ، وتعني ابن العم والعصبة كلها ، وتطلق على الناصر والحليف والصاحب والجار والشريك وعلى السيد وعلى من يعتق من العبيد . على ان الشرع الاسلامي اختص الكلمة بمعنين فقط هما (مولى العتاقة ومولى الموالاة) على ما كان معروفاً في العهد الجاهلي ثم أضحت الكلمة ، بعد الفتوح الاسلامية ، ذات معنى اصطلاحي خاص يعني : كل من اسلم من غير العرب . وقد سمي العرب هؤلاء بأسماء أخرى منها : حمراء ، اعاجم ، علوج .

آ) **الموالي في عهد الراشدين والامويين :** لقد سوى الاسلام بين الناس فلم يفرق الرسول ﷺ في سياسته بين العرب والموالي ، واتبع أبو بكر نهجه نفسه ولم يرض حتى بتفضيل ذوي السابقة في الاسلام في العطاء قائلاً : « إنما ذلك شيء ثوابه على الله . وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » وجاء عمر بن الخطاب فاقر تمايز الناس بعضهم على بعض بسابقتهم في الاسلام وبلائهم فيه ، ولقد أذن مرة للموالي كصهيب وبلال « من موالي الرسول » قبل أن يأذن لبعض سادات قريش « كأبي سفيان » فلما غضب هذا وقال : يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه . أسكته أصحابه .

على أن عهد التسوية هذا انتهى فجأة بصرع « عمر » على يد أحد الموالي . فبدأ استيقاظ العصبية العربية في النفوس ، وجاء عهد عثمان فزاد في قوتها بما ثار بين الامويين والهاشميين أو بين قريش والعرب أو بين العرب والعجم

من نزاع وخصومة ، فلما ولي الخلافة « علي » لم يستطع أن ينهنه من هذه العصبية بل كان عمله على مكافحتها سبباً من أسباب انصراف بعض العرب عنه . ولما جاء العهد الاموي توطدت في نفوس العرب فكرة أفضليتهم على الناس جميعاً لاسباب عدة : لأنهم أولاً مادة الاسلام : فيهم ظهر الدين ومنهم كان رسول الله وهم السابقون إلى الاسلام والمتفضلون على غيرهم بنشره ونقلهم من الكفر إلى الايمان . ولغتهم هي لغة القرآن .

ولان العرب ثانياً فتحوا بلاد الموالي بالسيف وهزموا دولتي الفرس والروم عنوة ومنوا عليهم بعدم الأسر والرق . وهدوهم الى الايمان والاسلام وأخيراً لأن حكم الدولة كان في العرب فالخليفة والولاة والقواد وحملة الدين كانوا منهم . ويمكن أن نضيف إلى هذا أيضاً أن الموالي أنفسهم أقروا للعرب بالفضل وتركوا لهم المكان الأول في المجتمع . وزادت العصبية القبلية التي ثارت خلال العهد الاموي بين القيسيين واليمانيين في ايضاح الفرق بين العرب والموالي ؛ كما أن سياسة الامويين العربية أغضبت الفئة المؤمنة من عرب وموالي ، لأنهم رأوا في هذه السياسة بعداً عن الهدف الديني للفتح العربي ، وتمييزاً بين رعية يساوي بينها الإسلام .

ب) رد فعل الموالي : وقد ارتضى الموالي أول الأمر مكانهم هذا من العرب بفعل العاطفة الدينية من جهة ، ولأن معظمهم لم يكن أحسن حالاً تحت الحكم الساساني والبيزنطي من جهة اخرى ، بالاضافة إلى أن أشراف الفرس (الدهاقين) في ايران نالوا امتيازات اقتصادية أنستهم ما خسروه سياسياً . على أن أسباباً عدة كانت تعمل على إثارة نقمة الموالي على الحكم الأموي حتى اضحوا عدة جاهزة لكل حركة من الحركات السياسية والدينية المعارضة ولكل فتنة ضد الحكم الاموي .

لم يكن الاحتقار الاجتماعي الذي أظهره بعض الأمويين نحوهم

هو السبب الوحيد في تلك النقمة، فانأكثر الامويين اساؤوا إلى الموالي ايضا في سياستهم المالية التي تقوم على الابتزاز بصورة عامة، فقد فرضوا الضرائب الاضافية واتخذ عمالهم من الولايات وسيلة للاثراء واخذوا الجزية ممن لاتجب عليهم، وتلاعبوا بالعطاء نقصاً وحرماناً. وقد حاول عمر بن عبد العزيز الاصلاح ففرغت خزانة الدولة من جهة ومات سريعاً فنقضت اصلاحاته من جهة اخرى، وشعر الناس، فيما بين الاصلاح ونقضه بأن لهم حقوقاً مهضومة .

ثم ان انتشار الاسلام وفهم الناس لمبادئه في اخوة الايمان والتفاضل بالتقوى يصطدم عمليا بالسياسة الاموية العربية . ولئن انتحل بعض الموالي النسب العربي تقرباً للعرب فان الكثرة الغالبة منهم كانت تفضل على ذلك تطبيق السياسة الإسلامية الحقة .

ولا شك أن الروح القومية قد لعبت دورها أيضاً لدى الموالي لاسيما لدى الفرس في إيران،وقد استيقظت هذه الروح باشكال دينية أحيت بعض الافكار والعقائد الفارسية القديمة والبستها أحياناً الثوب الاسلامي . وهكذا فان المؤمن من الموالي وضعيف الايمان وغير المؤمن كانوا سواء في كره الحكم الأموي .

وأخيراً فان الأحزاب السياسية المناوئة للأمويين من خوارج وشيعة عملت بصورة مباشرة على إيضاح الظلم الاجتماعي والمالي والسياسي الذي يحيق بالموالي وقد استجاب هؤلاء خاصة للدعوة الشيعية العلنية والسرية (العباسية) على السواء أملا في الخلاص من ذلك الظلم .

لهذه الاسباب جميعاً اتجه الموالي لمقاومة الحكم القائم فقاوموه كحكم أموي وكحكم عربي وكحكم إسلامي أيضاً وسلكوا في ذلك مسالك شتى :

١) دفع إيمان الكثير منهم بالإسلام، وذوبانه في الدعوة إلى دراسته والتعمق في تعاليمه، فبرز في الناحية العلمية ــ الدينية ومرعان ما بلغ بعض

الموالي في ذلك شأواً بعيداً إذ أضحى معظم الفقهاء والعلماء في كل الامصار منهم كربيعة الرأي شيخ الامام مالك وفقيه المدينة ، ومجاهد عالم مكة وزميله عطاء بن رباح ثم سعيد بن جبير عالم الكوفة . والحسن البصري عالم البصرة ، ويزيد بن حبيب مفتي مصر ومكحول بن عبد الله في الشام . ثم حماد الراوية وسيبويه والسائب بن فروخ الشاعر، وقد أفاد الموالي من ذلك فائدتين ، إحداهما السمو الاجتماعي عن طريق العلم والثانية أن بعضاً منهم قد دس على الاسلام مبادىء غريبة عنه من الديانات القديمة .

٢) ثم اتجه بعض الموالي إلى مناوأة العصبية العربية بعصبية اخرى عرفت باسم الشعوبية وهي نضال اجتماعي وفكري دافع به الموالي عن أنفسهم فبعضهم أخذ يناقش تساوي العرب مع جميع الأمم ويعرف هؤلاء بأهل « التسويه » وأكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم على السواء كانوا يرون التسوية تنسجم مع مبادىء الاسلام ، وربما جاء اسم الشعوبية من حجتهم بالآية الكريمة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . كما كانت الاحاديث النبوية ترفدهم بمادة غزيرة في الدفاع عن رأيهم هذا .

وبعض الموالي ، ممن لم يدخل الايمان في قلوبهم ، أو ممن غلبت عليهم النزعة القومية اخذوا يفضلون جميع الامم على العرب ويفخرون بأصلهم الاعجمي بينما يرمون العرب بمختلف المثالب . وقد ظهرت هذه النزعة في السنوات الثلاثين الاخيرة من العهد الاموي حتى ان شاعراً من الموالي تجرأ على انشاد هشام بن عبد الملك شعراً في ذلك (جازاه عليه بان غطه في الماء ونفاه إلى الحجاز) .

وقد حاربت الشعوبية العرب باشكال مختلفة ، فهاجمت مزاياهم من شعر وبلاغة ، وعابتهم في حزبهم واستندت إلى عالمية الاسلام فسلبتهم الفخر به ، ثم

اكثر الشعوبيون من التأليف في مثالب العرب ومناقب العجم وصنفوا في ذلك تصانيف شتى منهـا الكثير من المختلق الموضوع ولئن رد العرب والمتعصبون لهم على ذلك بمثله فان هذه المعركة التي امتدت قرابة قرن (القرن الثاني الهجري) والتي ظهرت سافرة في العصر العباسي الأول تركت في الادب العربي وفي التاريخ الاسلامي وفي الدين ومختلف العلوم العربية بقايا كثيرة من التشويه والافساد .

٣) واتجه الموالي بالاضافة إلى هذين الاتجاهين الفكريين إلى السيف والثورة ايضاً . فقد كان جل أصحاب المختار الثقفي منهم . كما كانوا مادة جيش ابن الاشعث في ثورته على الحجاج وبني امية . وثاروا مع الحارث ابن سريج في خراسان ثم اجتمعوا حول الدعوة العباسية السرية مع من اجتمع حولها .

وبرز منهم أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراساني اللذان ساهما مساهمة اساسية مع جموع كثيرة من الموالي الفرس في نقض الحكم الاموي واقامة الحكم العباسي .

ويعد بعض المؤرخين قيام الدولة العباسية ، نصراً للفرس على العرب ، والواقع لا يؤيد ذلك . فقد ظلت الخلافة عربية . وامتدت مكافحة المتنفذين من الفرس عهـداً طويلا في العصر العباسي الأول وصرع كبارهم على ايدي العباسيين كابي سلمة وابي مسلم والبرامكة ولكن جماهير الموالي من الفرس نقمت على العباسيين لاسيما في ايران وقامت بحركات ثورية عديدة منذ زمن المنصور . على ان الموالي كسبوا بصورة عامة ، الخلاص من السياسة العربية الاموية ، والجهر بمقاومة العرب والفخر عليهم ، كما اعترف لهم

بالحقوق السياسية فصاروا يولون الوظائف الكبرى ، من ولاية وقيـــادة ووزارة ؛ مما جعل مكانتهم ، بالنسبة للعصر الاموي-تعتبر نصراً كبيراً . ولهذا استمر الصراع بينهم وبين العرب قائماً أيام العباسيين وتجاذب البلاط العباسي حزبان : فارسي خراساني وعربي ، مالبثا أن برزا للعداء السافر العلني في الفتنـة الاخوية بين الأمين والمأمون . ومع هذا فقد انصرف المأمون عن الاتجاه للفرس منذ استقر في العاصمة بغداد . فلما ولي الخلافة أخوه المعتصم وبدأ يعتمد هو والخلفاء من بعده على عصبية جديدة من الترك كان ذلك ايـذانا بظهور النزعة العالميـة في الامبراطورية الاسلامية التي لم تعد مملكة عباسية ، ولكنها أضحت دولاً عدة يربطها الولاء الاسمي للخليفة العباسي واضحى المؤرخون يسمونها باسم : مملكة الاسلام .

من طبقات
المجتمع العربي الاسلامي
اهل الذمة

في الاسلام عدة اسماء تطلق على الجماعات غير المسلمة : فالكافرون اسم عام يطلق على كل منكر للرسالة الاسلامية ، والمشركون هم من لا يؤمنون بوحدانية الله ، واهل الكتاب هم أصحاب الكتب المقدسة من النصارى واليهود ، وقد الحق بهم في زمن عمر المجوس (الزرادشتيون) وفي زمن المأمون الصابئة (عبدة النجوم) . أما الاسم الذي عم استعماله للدلالة على غير المسلمين وبصورة خاصة على النصارى واليهود ، فهو أهل الذمة أي الذين يعيشون في ذمة المسلمين وحمايتهم .

أ) توزع اهل الذمة في العالم الاسلامي : ظهر الدين الاسلامي في الجزيرة العربية ، ومعظم من فيها على الشرك وبعضهم يهود ، وقليل منهم على النصرانية ، فلما توفي الرسول كان الشرك قد انتهى رسمياً بين العرب . ولكن اليهود رغم اضمحلال امرهم والنصارى معهم كانوا لا يزالون موجودين . وبالرغم من أن عمر بن الخطاب حاول بعد الفتح الاسلامي ان يجليهم عن الجزيرة كلها فلا يدع فيها الا العربي المسلم الا أن جماعة كبيرة من اليهود بقيت بصورة خاصة في اليمن .

وأما البلاد التي فتحت ، فكانت المسيحية هي الدين السائد في العراق والشام ومصر منها وفي بعض الشمال الافريقي واسبانيا بينما ايران تدين بالديانات الفارسية من زرادشتية ومانوية ومزدكية ، وكانت مجموعات اليهود موزعة توزيعاً مختلفاً في انحاء عديدة من البلاد . وقد استطاع الاسلام ان

يكسب اليه تدريجياً معظم عناصر السكان خلال القرون الثلاثة الاولى للدولة الاسلامية ، غير أن مجموعات كثيرة اخرى بقيت على دينها الاصلي : لاسيما اقباط مصر ، والمارونيون في لبنان ، والتغالبة في الجزيرة ، والسريان في العراق وكلهم بقي على النصرانية وقسم من سكان الجبال في شمال غربي ايران الذين احتفظوا بعقائدهم المجوسية الأولى ولم يدخلوا الاسلام الا متأخرين (حوالي القرن الخامس) .

أما اليهود فقد وجدت جاليات منهم في الأندلس ومراكش وفي تونس ووجد في القاهرة (في القرن الرابع) سبعة آلاف وفي الاسكندرية ثلاثة آلاف وفي دمشق أكثر من ذلك وفي حلب خمسة آلاف ، وفي الموصل عشرة آلاف وفي بغداد الف وفي القدس أربعة فقط . كما وجد في اليمن وفارس وتركستان ويقدر السائح اليهودي (بنيامين تودلا) عددهم في القرن السادس بحوالي / ٣٠٠ / ألف عدا من في المغرب .

ب) موقف الرسول والشرع الاسلامي من الذميين : كان على الرسول ﷺ منذ بدأ الدعوة للاسلام ان يحدد موقفه من الاديان الأخرى القائمة . فاما الوثنيات والأديان المشركة فقد حاربها جهاراً وكسب الرسول ﷺ في السنوات الأخيرة من حياته كل أصحابها في انحاء الجزيرة العربية . وأما أهل الكتاب من نصارى ويهود فقد كانت علائقه معهم مختلفة رغم قيامها على أساس وطيد ثابت من المحبة والتسامح ، فالنصارى ظلوا ذوي المقام الأول عند المسلمين .

أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى ملك الحبشة المسيحي لاجئين إليه فأحسن وفادتهم ورفض تسليمهم إلى القرشيين حين طلبوهم . وكبار النصارى الذين دعاهم الرسول للاسلام ردوا عليه رداً حسناً ، وأهداه المقوقس صاحب مصر

جارية وبغلة . وانا لنجد صدى هذه العلائق الطيبة في القرآن الكريم إذا جاء فيه :

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » كما أيد القرآن المبادىء الكبرى في المسيحية .

وأما اليهود فقد كان لهم وضع آخر ، ذلك أنهم كرهوا هجرة الرسول إلى يثرب التي ينزلون فيها ، فبدؤوا يجادلون المسلمين الجدل العنيف ؛ ولما بدأ ظهور الدولة الاسلامية أخذوا يكيدون لها ويتآمرون مع أعدائها : فكان موقفهم عدائياً من المسلمين عقب هزيمة أحد وقد خانوهم في اللحظات الحرجة من غزوة الخندق وثاروا على الرسول في حصونهم بمنطقة خيبر ، ثم حاولوا إضافة الى ذلك قتله وتسميمه ولهذا أخرجهم من يثرب مرة بعد مرة وحاربهم حتى أخضعهم . وانعكس ذلك العداء واضحاً في آيات القرآن الكريم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »

ومع هذا فقد أمر المسلمون بحسن ومجادلة الكتابيين من يهود ونصارى على السواء : فقد جاء في القرآن الكريم :

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » . وقد رويت عن النبي ﷺ أحاديث بحسن معاملة الكتابيين منها « احفظوني في ذمتي » ومنها « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة ومن قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة » .

وما جاء في القرآن الكريم سوى آية وحيدة بتكليف أهل الذمة « أن يعطوا الجزية عن يد » لأسباب أوضحها الفقهاء فيما بعد .

وتبعاً لهذه الروح كانت معاملة الراشدين لأهل الذمة معاملة في منتهى الود . فقد أمر أبو بكر جيوشه الذاهبة لفتح الشام بحسن معاملة الرهبان واحترام البيع (الاديرة والكنائس) كما قاد عمر بن الخطاب يهودياً شيخاً بنفسه فأعطاه من بيت المال لئلا يطلب صدقة الناس ، واشترى من الذميين أرضهم حين رأى اجلاءهم عن الجزيرة وأوصى أهل الشام والعراق بهم خيراً .

غير أن الذي يهمنا في عهد الراشدين ليست هذه المعاملات الفردية ولكن موقف الدولة الاسلامية جميعاً من تلك الكتل الكبيرة من الذميين الذين دخلوا في حوزتها بعد الفتح العربي الكبير . فقد اضطر عمر بن الخطاب أن يحدد علائقه معها تحديداً واضحاً وهذا ما أوجد « سياسة العهود » في الاسلام .

وقد وردت نصوص عديدة لعهود مختلفة منحها الرسول ﷺ أو الخليفة الثاني أو غيرهما لأهل أيلة أو أهل إيلياء (القدس) أو دمشق أو لأقباط مصر .. الخ وهي تحدد حقوق الذميين وواجباتهم في الدولة الاسلامية . وقد تعهدها الفقهاء بالكثير من الشرح والذكر والتفصيل . وسواء صحت هذه العهود في خطوطها الكبرى أو في تفاصيلها أو لم تصح ، فانها خلاصة تاريخ طويل من العلاقات بين الدول الاسلامية وبين مجموعة كبيرة من رعاياها غير المسلمين وهي تعين لنا مكان أهل الذمة الشرعي في الاسلام .

ويتلخص ما جاء في تلك العهود بأن للذميين حق الامان في الدولة الاسلامية (وله شروطه وقيوده) على نفوسهم وأموالهم وحق الحماية الدينية

في الاعتقاد وممارسة الشعائر . وحق السكن ومزاولة الاعمال المختلفة إلا انهم مقيدون في تغيير الدين فلا تغيير الا للدخول في الاسلام ، ولا يسمح بزواج المسلمة من غير المسلم ، وهناك خلاف كبير بين الفقهاء حول قتل المسلم بالذمي وحول الديات .

أما واجبات الذمي فهي دفع الجزية وعدم الاجتماع على قتال المسلمين وعدم فتن المسلم عن دينه وعدم قطع الطريق عليه او قتله أو معونة المشركين عليه في قتال أو تجسس أو إيواء اعداء الدولة وعدم التعرض لكتاب الله أو نبيه أو للاسلام بما لا ينبغي .

ح) **اهل الذمة والدولة الاسلامية** : برغم الصفة الدينية التي حملتها الدولة الاسلامية فانها في موقفها من الذميين لم تكن دولة دينية بمعنى الكلمة: وندر أن نظرت اليهم الا كمواطنين ورعاياها :

فأما عن **موقف الدولة من الكنيسة** فانها لم تعترف بها على ما يظهر الا في أواخر القرن الاول للهجرة ، ولكن منذ ذلك الوقت عادت للبطاركة مكانتهم الرسمية ولرؤساء اليهود كذلك . فصار الذميون ينتخبون رؤساءهم بانفسهم وكان الخلفاء أحيانا يصدرون المراسيم باقرار انتخابهم كأنهم موظفون حكوميون.

كما كانوا يعتبرونهم الممثلين الرسميين لطوائفهم . وجاء وقت كان فيه الناس يقفون في دار الخلافة ببغداد لحاخام اليهود الاكبر الملقب « بسيدنا » كما كان يلقب الحاخام في القاهرة الفاطمية بسيد السادات « سارها تساريم » وتركت الدولة لهؤلاء الرؤساء الدينيين حق القضاء بين رعاياهم كما كانت هي بدورها تفصل في خصوماتهم .

وقد استخدمت الدولة في وظائفها اهل الذمة على نطاق واسع احياناً : ولئن كان عمر بن الخطاب قد كره استخدام اليهود فان الخلفاء من بعده قد

استعملوا الذميين في مختلف وظائف الدولة حتى الوزارة . وقد اشتهر من موظفي الذمة في العهد الاموي سرجون الرومي ، كاتب معاوية ، واثناسيوس الرهاوي رئيس الدواوين في مصر أيام عبد الملك والذي كان ينعت بالكاتب الافخم ، وأما في العهد العباسي فنجد يهودياً اسمه موسى يكون أحد أثنين يوليها المنصور الخراج ، ونجد عدداً كبيراً من الكتاب النصارى في بلاط الخليفة ، كما نجد منهم بعض الوزراء كعبدون بن صاعد ، ونصر بن هارون (القرن الرابع) وفعل مثل ذلك الفاطميون فمن وزرائهم عيسى بن نسطورس النصراني مثلاً ومن كتابهم منشا اليهودي . وظل العرف بذلك جارياً في العهد الايوبي ثم المملوكي . على ان هذا لم يمنع رفض بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز ، والمتوكل استخدام أهل الذمة كما أنه من المؤكد تماماً أنه لم يتول أحد منهم وظيفة الجباية والكتابة في المغرب والاندلس .

وأما في **الضرائب** فقد كانت الجزية أهم ما يجبى من الذميين ، وقد اختلفت مقاديرها اختلافاً كبيراً حسب العصور والاماكن ، واختلفت القواعد في فرضها والاعفاء منها ، كما اختلف نوعها ، فكانت تدفع نقداً أو غلالاً . وقد كان الذميون يحتملون مع المسلمين أعباء ضرائب أخرى متعددة : على الارض والحوانيت وغير ذلك . على ان المضايقات المالية كانت تستعمل كنوع من العقاب لبعض الذميين . وقد أبقى بعض الامويين الجزية على الذمة كتدبير مالي للحفاظ على موارد الخزينة .

د) أهل الذمة في المجتمع الاسلامي : برغم الموقف الشرعي السمح الواضح فان علاقات الذميين بالمجتمع الاسلامي لم تمض على نسق واحد خلال العهد الاسلامي الطويل وفي بقاع الاسلام المختلفة لانها كانت

تتأثر أحياناً بالاوضاع الداخلية او بأهواء الحكام أو بالاحداث الخارجية . وكثير من القيود أو الاضطهادات انما كانت تظهر بفترة وجيزة ثم تلغى كما حدث في عهد الرشيد والمتوكل والحاكم بأمر الله ولم يكثر ذلك الا في عصور الانحطاط بعد الحروب الصليبية ، على ان حسن المعاملة كانت هي الصفة الدائمة . وقد تمتع بها بصورة خاصة منذ الايام الاولى للحكم الاسلامي ، النصارى من العرب كبني تغلب فكان الاخطل الشاعر يدخل على عبد الملك بن مروان وفي عنقه صليب ذهبي ولحيته تقطر خمراً فلا يمنع من ذلك !

وبالرغم مما تذكره العهود المنقولة من عدم السماح للذميين ببناء الكنائس الجديدة في الاسلام ، فالذي يظهر من استقراء الحوادث التاريخية ان الكنائس ظلت تبنى وظل للذمة بصورة خاصة حق الاحتفاظ بما كان منها قائماً زمن الفتح وحق ترميمها . وقد يبنيها بعض المسلمين كالذي كان من خالد القسري سنة ١٠٥ هـ في إقامة كنيسة لأمه في الكوفة . وليس ثمة من اشارة او قرار لمنع استحداث الكنائس في العهد الاسلامي حتى أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأول من تشدد في ذلك المتوكل (أواسط القرن الثالث هـ) ولم ينتقل الأمر إلى العامة وتبدأ بعض الاعتداءات إلا بعد ذلك وفي فترات الهياج الشعبي فقط .

وقد ذكروا أن عهود الفتح تمنع الذميين من إظهار الشعائر الدينية عامة في أمصار المسلمين ، إلا أنه حتى بعض أئمة الفقهاء لم يتشددوا في ذلك لاسيما في البلاد التي يكثر فيها الذمة . وكانت النواقيس تقرع والمواكب الدينية تسير بالرايات والصلبان والمجامر دون اعتراض إلى أن يبدو للخليفة أو الأمير أو الحاكم المحلي أن يمنع ذلك . بل أن تكرر أعمال المنع

من وقت لآخر دليل على أن العادة جرت بالتسامح في ذلك . ولدينا أوصاف كثيرة لاحتفالات الاعياد النصرانية خاصة في مصر وفي العراق وفارس . وكانت هذه الاعياد أحياناً فرصة لهو لجميع الناس .

على أن الذميين تميزوا في معظم العهود بنوع معين من اللباس وبوضع منطقة أو نحوها ، وقد كانوا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم في العهد الاسلامي الاول ، ولعل أول من بدأ الأمر به عمر بن عبد العزيز ثم سمع الناس عن ملابس الذميين زمن الرشيد ثم المتوكل بغية عدم التشبه بالمسلمين في اللباس والركوب . ثم سمع الناس بذلك في أوامر الحاكم بامر الله الفاطمي وفي عهد السلاجقة وآل زنكي .

وقد تخصص الذميون ببعض الأعمال في المجتمع الإسلامي ، فاذا استثنينا جمهرتهم التي كانت تعمل في جميع الأعمال العادية من زراعة وصناعة وتجارة فان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام والعراق كانوا من اليهود . كما احتكر اليهود تجارة الرقيق والخصيان بين أوروبا والحبشة وتجارة اللؤلؤ في الخليج العربي . أما الطب فكان مهنة نصرانية . والكثرة العظمى من أطباء الخلفاء كانوا من النصارى وكذلك معظم التراجمة في العصر العباسي الأول كما كان منهم الأدباء والشعراء والعلماء .

****

من طبقات

المجتمع العربي الاسلامي

الرقيق

الرق في اللغة الضعف ، وفي اصطلاح الفقهاء « عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر » والرقيق كلمة عامة تطلق على من فقد حريته من الناس وأصبح ملك غيره . ولكنهم كانوا يدعون المسترق الأبيض مملوكاً والأسود عبداً، والنساء البيض جواري ، والسود إماء، وهناك كذلك طائفة الخصيان .

ا) **الرق في الاسلام** : لم يلغ الاسلام نظام الرق الذي عرفته جميع الأمم قبل الاسلام وبعده وظل قائماً في كل مكان حتى ما قبل قرن من الزمن . إلا أنه لم يهمل الارقاء ، فاعتبر حرية الانسان هي الاصل ، والرق أمراً عارضاً، ولهذا حرم استرقاق المسلم المولود من أبوين حرين، واشترط في استرقاق غير المسلم أن يؤسر في حرب شرعية بعد الانذار والاشهار. وعمل على مساعدة الارقاء في التحرر بأوجه كثيرة: ففك الرقاب يأتي كفارة عن اليمين الحانث أو عن الافطار في رمضان أو وفاء بنذر أو تقرباً إلى الله أو تكفيراً عن ذنب أو التماساً للمثوبة .

كما خصص الاسلام ثمن $\frac{1}{8}$ أموال الزكاة لفك الرقاب .

وقد سهل الاسلام سبيل التحرر فمكن للعبد أن يشتري نفسه من سيده على مبلغ من المال يؤديه في أجل محدود (وهذه هي المكاتبة) وقد أجمع الفقهاء على أنها مستحبة ويراها بعضهم واجبة متى دعا العبد سيده اليها . ويمكن تحرير العبد (بالتدبير) وهي أن يوصي السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته .

وأوصى الاسلام أخيراً بحسن معاملة الرقيق وقد جاء في القرآن الكريم : « وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى ... وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » . وجاء في الحديث الشريف : «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » « إخوانكم خولكم (أي خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » . وكانت آخر وصاياه ﷺ « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقد روي عن علي بن أبي طالب قوله : « اني لأستحي أن أستعبد إنساناً يقول ربي الله » . وقد كان من اختصاص القضاة الحكم بتحرير العبد متى ثبت أن سيده يعامله معاملة قاسية بالاضافة الى أن السيد لا يملك بيع جاريته ولا هبتها متى صارت « أم ولد » منه يعترف به . ومتى توفي أضحت حرة . وتتبين قيمة هذه الاحكام اذا قورنت بما كانت عليه أحوال الرقيق لدى جميع الامم في مختلف العصور لاسيما لدى اليونان والرومان ولدى الغرب في القرون الوسطى .

ويقول الدكتور امين الخولي :

– مثالية القرآن تحرم الرق وتعده سوءة من سوءات المجتمع .

– المدنية الحديثة تحرم الرق قولاً وتمارسه فعلاً .

– الاسلام سبق هيئة الامم في تنظيم حقوق الانسان

– لقد كان الرق واقعاً قديماً متأصلا ، رأى العرب من حولهم مارأوا ، وعرف العرب منه في جزيرتهم ما عرفوا . . وسلك القرآن نحوه مسلكه الثابت الواضح من التدبير الواقعي : يعترف بالواقع المشهود الى حد ما . ثم يمضي يلطف قسوته ، ويصلح بالتدريج اخطاءه . . ثم ينبه الى المثال

الراقي ويغري الانسانيـة منه بكل ماتمكنهـا به ظروفهـا ويعينها عليـه تقدمها ورقيها . . .

وفي اطار من نفحات مثالية القرآن ، تتدرج الواقعية في مقاومة الرق ، والضجر به ، والعمل للقضاء عليه ، فبعد الحث الديني على فك الرقاب ، ووعد الثواب الاخروي الكبير عليه ، في معنى يجسم المماثلة البشرية بين السادة والمسودين اذ تقول التوصية الدينية ان من يفك رقبة بالعتق يخلص من العذاب .. ويوجب الدين تحرير الرقاب في اعمال كثيرة يعرض لها الناس في معاملاتهم الحيوية ، وعباداتهم الدينية ، فهو يوجب تحرير الرقبة على انه جزاء متعين ، عنـد الافطار عمداً في رمضان ما دام عنـد المفطر رقاب محكومة .. وهو كذلك جزاء متعين في احوال من عقوبة القتل ، وفي ضرب من الاختلاف بين الزوجين بما يسمى الظهار . . كما ان تحرير الرقبة جزاء تخييري عند الحنث باليمين .. الخ ثم يمتد التدبير العملي لتحرير الرقاب الى نظام عام يلزم الدولة برصد اعتماد في ميزانيتها من مورد ثابت هو الزكاة ، يصرف منها ١٢،٥ ٪ لتحرير الرقاب كما هو نص القرآن ..

وهكذا تدرجت الواقعية المعترفة بالرق الى بث الكراهية لهذا الرق بقوة وعنف .. ثم الى الترغيب في التحرير .. ثم الى الزام الافراد به .. ثم الى الزام الدولة ، في نظام مالي ثابت .. فهيأت بذلك كله الى مثالية تنكر الرق وتحرمه وتبتر جذوره .

ب) احوال الرقيق في العصور الاسلامية :

كان الاسر والشراء ووفاء الدين هي مصادر الرق في العهد الجاهلي ، ثم أصبح الاسر خلال الفتوح الاسلامية هو المصدر الرئيسي وان ظل الشراء مصدراً آخر ، وأضيف اليه أن بعض خراج الولايات كان يرسل عبيـداً !

ولم يكن الرقيق كثير العدد عند العرب الجاهليين ولا في صدر الاسلام ، ولكنه كثر كثرة هائلة أثناء الفتوح الكبرى والفتوح التي تلتها ، فأي أسير وقع في يد المسلمين من الكفار المحاربين صار غنيمة ، واعتبر مالاً يوزع على المحاربين بالتخميس . وقد غالى بعض القواد فكان يستعبد كل من تقع يده عليه من الاعداء محارباً أو غير محارب حتى النساء . وهكذا : عاد موسى بن نصير من الاندلس بثلاثمائة الف رأس من السبي بعث خمسها الى الوليد بن عبد الملك ولم يسمع بسبي كهذا السبي ، وبيع الاسير بدرهم في واقعة بالاندلس سنة ٩١ﻫ بينما بيع البعير بخمسة دراهم . وكان ينادى على الاسري عشرة عشرة بعد معركة عمورية زمن المعتصم وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم . وبلغت غنائم صاحب غزنة (في القرن الخامس ﻫ) مائة الف نفس من الهند ! وكثر الرقيق بهذا الشكل فدخل كل بيت من بلاطات الخلفاء الى بيوت كبراء الدولة وتجارها والى أوساط الناس والجند . وبينما كان لدي الرشيد الف جارية عدا الخدم ومن اليهم جعل المعتصم من مماليكه الاتراك جيشاً يستند اليه . وكذلك فعل الايوبيون . وكان من الامور العادية أن يوجد لدى عامة الجند عبد أو أكثر ولا يعد الرجل غنياً ما لم يقتن بعض العبيد في داره وخدمته .

وكان للنخاسة أسواق خاصة في كل بلد من البلاد الاسلامية تدعى أحياناً دار الرقيق كما في بغداد . وعليها مشرف حكومي هو « قيم الرقيق » واشتهر من اسواق الرقيق الابيض سمرقند . وكان للنخاسين عملاؤهم وشهرتهم وقوافلهم ، كما كانت النخاسة صنعة قائمة بذاتها . وأهم من كان يعمل بها في البحر الابيض المتوسط : اليهود ويدعون الرهدانية . اما اثمان الرقيق فكانت تختلف باختلاف جنسه وعمره ونوعه من ذكر او انثى وقابلياته للعمل وكثرته او قلته .

وقد تنوعت اجناس الرقيق في الاسلام بتنوع البلاد التي كان يؤتى به منها . فهناك الزنوج السودان والحبش ومعظمهم من شرقي افريقيا، واوسطها وهناك الترك من مناطق تركستان ، والصقالبة من روسيا وقد بلغ من شهرتهم في الاندلس ان اضحت كلمة صقلبي تعني العبد ومن هنا دخلت اللغات الاجنبية كلمة Slave و Esclave. هذا عدا الفرس من الارقاء والبربر والروم والهند والشراكسة والارمن وعدا المولدين .

وقد اخذ المسلمون عن البيزنطيين عادة استخدام الخصيان من الرقيق مع أن الشرع الاسلامي في جانب تحريمهم . والخصاء ليست عادة عربية بل هي شرقية . وكانت شائعة في العراق كذلك زمن الآشوريين والبابليين . وقد نهى الرسول عليه السلام عن الخصاء فقال : « خصاء أمتي الصوم . والصوم وجاء » وللخصاء اغراض (البيهقي في المحاسن والمساوىء) ابرزها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الخصيان في دورهم ، وكان معاوية بن ابي سفيان اول من اتخذ الخصيان لخدمته (السيوطي : تاريخ الخلفاء) ويذكر الجاحظ ان الخصي كان منتشراً بين العبيد والاحرار وبين العرب والعجم واغلب الخصيان كانوا من الصقالبة وعمليات الجب كانت تجري لهم في فرنسا غالبا يقوم بها اليهود ليربحوا اثمانهم الغالية .

واشتهر كل نوع من الرقيق بعمل ، فالزنوج كانوا يعملون في اقسى الاعمال وفي الزراعة حتى لقد تجمعت منهم جموع كبرى في السواد ثارت فيما بين سنتي ٢٥٥ — ٢٧٠ ﻫ ثورة الزنج المعروفة وخربت البصرة . واستعمل الترك والصقالبة للخدمة من البيوت لحسن قوامهم وهيئتهم ومن هنا تسرب الترك من بلاطات الخلفاء ، الى الجيش والقيادة واستولوا على

الدولة ، وعرف الهنود بالصناعات ، على ان اهم عمل قام بـه الرقيق وكان له اثره العميق في التاريـخ الاسلامي ، هو دخول الارقاء في العمل العسكري واذا كان اول من استعملهـم في ذلك هو المعتصم فأول من افسـح لهم المجال للجمع بين القيادة والادارة هو الخليفة الواثق فتسلطوا على الكرسي الخلافي واقتتلوا معه ومن اجله ، ولم يقتصر ذلك على الخلافة العباسية بل حدث مثل ذلك في الخلافة الفاطمية وحد ما في الاندلس . واستطاع المماليك عن طريق شجرة الدر المملوكة ، وزوجة آخر سلاطين الأيوبيين ، أن يستأثروا دون بني أيوب بحكم الدولة الاسلامية فيما بين مصر والشام والعراق والحجاز وبقي الأمر في أيديهم ، يتداولونه بنوع غريب من الوراثة ما يزيد عن ثلاثة قرون . حتى انهى السلطان سليم العثماني حكمهم في سنة ١٥١٧ .

ج) **الجواري** : (الاماء ، السراري ، السبايا ، القيان) : هن الاناث من الرقيق وإنما نفرد لهن بعض البحث لما كان لهن من شأن في التاريخ الاسلامي وأثر في الحضارة الاسلامية .

وقد كثرت الجواري في العالم الاسلامي منـذ أيام الفتوح الأولى لأن الفاتحين اعتبروا السبايا من النساء غنيمـــة أيضاً فتقاسموهن ثم شاع شراء الجواري وتهادين و كثر فيهن امهات الاولاد حتى دخلن كل بيت وقال عربي مرة :

إن أولاد السراري كثرت يارب فينا
رب أدخلني بلاداً لا أرى فيها هجينا

غير أن الهجناء كثروا في العصر العباسي حتى إنا لا نجد بين خلفاء بني العباس جميعاً من ولد من أبوين عربيين سوى ثلاثة : السفاح والمهدي والأمين ، وأمهات باقي الخلفاء من الجواري : فأم المنصور سلامة البربرية ، وأم الرشيد الخيزران من خرشنه وأم المأمون فارسيـة تدعى مراجل ، وأم المعتصم تركيـة اسمها

ماردة ، وأم المستعين صقلية وأم المستضيء أرمنية . وبهذا نستطيع أن نقيس مقدار تغلغل الجواري في البيت الاسلامي . على أنهن كن يتمتعن بحريتهن المطلقة في عقيدتهن وتقاليدهن الاجتماعية . وكثير منهن كن يحتفظن برموزهن الدينية على صدورهن ويعيدن في أعيادهن .

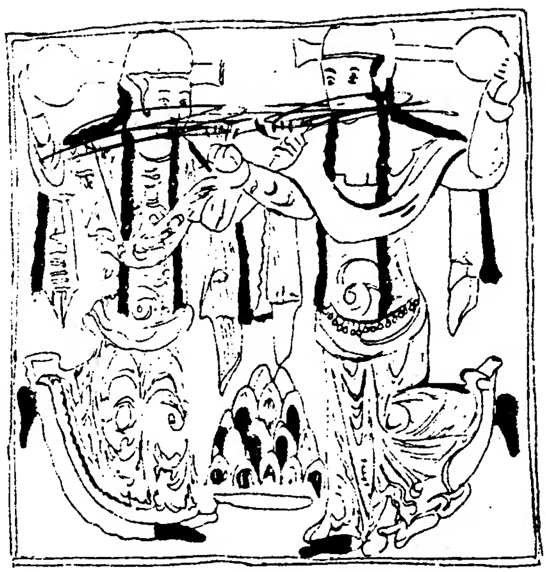
وقد اختلفت أجناس الجواري وتفرد كل جنس بزايا وألفت في ذلك الكتب فالهنديات عرفن بالوداعة ، ومولدات المدينة بالميل للسرور والغناء ، والبربريات بكثرة النسل ، والسودانيات بالرقص ، والشركسيات والروميات بالجمال .. الخ .

واستغل النخاسون ميل الناس لاقتناء الجواري فاخذوا يعنون بهن العناية التي تزيد في قيمتهن أضعافاً مضاعفة : كانوا يعلمونهن فنون الأدب والحديث ورواية الشعر أو تلاوة القرآن وقوله . فان كانت الجارية على شيء من حسن الصوت تعلمت الغناء والضرب على بعض الآلات الموسيقية . فكان هذا باباً من أبواب الكسب الواسعة إذ ذاك ، وممن اشتهر بتعليم الجواري ابراهيم الموصلي المغني الذي ألف شركة لهذا العمل ، فربما ابتاع الجارية بمائة دينار فاذا علمها باعها بألف ، وقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار فلما علمها ابراهيم المهدي الغناء باعها بثلاثة آلاف دينار . واشترى الرشيد جارية بتسعة وثلاثين الف دينار . واشهر هؤلاء القيان عريب المغنية وسلامة ودنانير في الشرق وولادة في الاندلس .

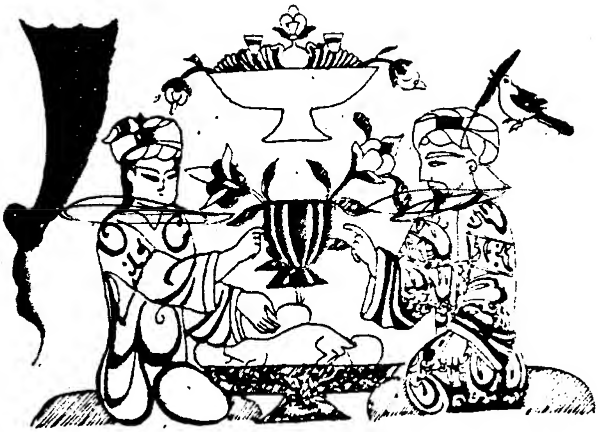
وقد كان للجواري أثرهن الكبير في الحياة الاسلامية : فقد كن ذوات أثر أحياناً في سياسة الدولة فالخيزران أم الهادي غضبت عليه حين أراد الحد من نفوذها وعملت على التخلص منه ، وشغب التركية أم المقتدر كانت المتصرفة بالدولة تصدر المراسيم وتجلس للمظالم حتى عرفت بالسيدة . وأم

المستعين الصقلبية كانت تتصرف مع اثنين من الخدم الاتراك بكل ما يرد لبيت المال !

وقد برز أثر الجواري في مزج الدماء والخلط بين الاجناس المختلفة وبين التقاليد والعادات الاجتماعية المختلفة أيضاً . هذا إلى أنهن نشرن الشعور البديعي في المجتمع الاسلامي وتذوق الجمال والظرف وأنواع البدع (المودة) كالعصائب والزنانير وتجميع الشعر . كما عملن على تقدم فن الغناء ونشره. وكان لهن أثرهن في الايحاء للادباء وفن الانتاج الادبي .



شكل — ٢٧ —
راقصات في صورة على جدار
أحد قصور الامويين.



شكل ــ ٢٨ ــ
رجل وزوجته يجلسان الى الطعام ولم يهملا الورود والفاكهة والطيور المغردة . وهي جزء من رسوم بديعة في نسيج عراقي من القرن السابع الهجري



شكل ــ ٢٩ ــ
مغني يعزف على العود

من طبقات

المجتمع العربي الاسلامي

المرأة في الاسلام

١) **المراة العربية في الجاهلية**: من الخطأ إعطاء حكم مطلق عن المرأة العربية في الجاهلية لأن مكانتها الاجتماعية كانت تختلف باختلاف الزمن ونوع الحياة، والنسب والمواهب.. الخ على انا نستطيع القول ان المرأة كانت تعطى بصورة عامة المكان الثاني في المجتمع البدوي لان القيم الاجتماعية عند الاعراب مبنية على أسس لا يمكن للمرأة بحكم عوامل كثيرة فيزيولوجية واجتماعية أن تحوزها. فكان عمل النساء دوماً الاحتطاب وجمع المال وحوك الثياب والخباء. فاذا كانت الحرب خرجن يشجعن الرجال وينقرن على الدف ويضمدن الجراح. ومتى امتازت امرأة بشيء مما يميز الرجال ارتفعت مكانتها كالرجل وهكذا وجدت بين نساء العرب شاعرات وتاجرات وكاهنات ذوات شرف وسيادة وشهرة كزرقاء اليمامة ... وقد ارتقى مقام المرأة في المجتمع العربي الحضري حتى الى الوصول الى الحكم في الناس كبلقيس ملكة سبأ.

وقد اشتركت عوامل دينية من جهة واقتصادية من جهة أخرى للحط من قيمة المرأة في بعض المجتمعات الجاهلية حتى كان الناس يكرهون ولادة البنات قال تعالى: «واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشربه. أيمسكه على هون أم يدسه في التراب. ألا ساء ما يحكمون». ووصل الامر بهذا الكره الى ظهور «الوأد» عند العرب: وهو ظاهرة لم تكن عامة في القبائل ولكن في

بعضها فقط ولدى فقراء القبيلة وحدهم وفي سني القحط والاملاق فحسب . ويمكن ان نفهم هذا الانحطاط في قيمة المرأة اذا تذكرنا أن بين عقائد الجاهلية ما كان يجعل الانثى من خلق الشيطان – كما يلاحظ ذلك من آيات القرآن الكريم – ولعل سبب اللجوء احياناً نادرة الى الوأد هو تعرض المجتمع الجاهلي تعرضا شديداً للقحط والفقر وضرورة تحديد النسل مع فقر البيئة . وما كان الوأد خوفاً من العار كما يقولون ، ولكن « ... خشية املاق » كما جاء في القرآن الكريم .

وكانت المرأة الجاهلية في بعض القبائل تحرم الارث والمهر وقد قالوا : « لا يرث الا من يحمل السيف » بل قد يرثها الوارث كما يرث المتاع . ولم يكونوا الى هذا كله يسوون بين الرجل والمرأة في الدية والدماء .

ب) **الاسلام والمرأة**: أول ما أعطاه الاسلام للمرأة هو المساواة مع الرجل : قال تعالى « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقال « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » وقد تكررت معاني هذه الآيات في عدة سور .

وحمل الاسلام على من يحزن لولادة الانثى كما حرم الوأد نهائياً « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم أن قتلهم كان خطئاً كبيراً » .

واعطى الاسلام المرأة حصة من الميراث ففرض لها نصيباً فيه هو نصف نصيب الرجل . « وللذكر مثل حظ الانثيين » وجعل المهر حقاً خالصاً لها « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » أمر بحسن معاملة المرأة « وعاشروهن بالمعروف » .

ولعل أهم ما منحه الاسلام للمرأة وسبق به أي تشريع عالمي الى اليوم أنه أعطاها **الشخصية الحقوقية الكاملة : أي حق التصرف بما تملك**

سواء كانت زوجاً أو أماً أوبنتاً : وسوى الشرع بينها وبين الرجل في الولاية على المال والعقود حتى لقد أجاز لها بعض الفقهاء ولاية القضاء أيضاً . وجعل الشرع لها حق قبول الزواج ورفضه كما أعطاها حق الطلاق اذا اشترطته . وأوصى بها وبحسن معاملتها كأم « وبالوالدين احساناً » وكزوج لأنها سكن الرجل ، وكابنة اذ جعل البرّ بها من البر بالله . وأما اباحة الطلاق للمسلم فبالرغم من الضروريات الاجتماعية التي تبرره فمن المعروف شرعاً أنه « أبغض الحلال الى الله الطلاق . » كما وقيده الاسلام بشروط وقيود كثيرة تجعل منه الحل الاخير حين لايكون من الفراق بد . وأما قضية تعدد الزوجات الى أربعة فواضح من منطوق الآية الكريمة التي سمحت بذلك أن المقصود بها المساواة الاجتماعية للايامى ، كما أن هذا التعدد مقيد من جهة أخرى بضرورة « العدل » بين الزوجات ، هذا « العدل » الذي نص القرآن الكريم نفسه على عدم إمكانه . فكأنه جعل ذلك ممنوعاً إلا في حالات وظروف معينة .

ج) **المرأة في صدر الاسلام** : بين الأوضاع الجاهلية التي جاهد الرسول ﷺ جهاداً كبيراً لقلبها : وضع المرأة . ومـا منح الشرع لها من مكانة وحقوق ، بين الرسول ذلك بالمثل الطيب والسنة الملزمة ، فقد عرف عنه بين الصحابة أنه كان لين الجانب مع زوجاته ، سهل المقادة . حتى كن يراجعنه في كثير من أمره وصرن في ذلك قدوة لباقي النساء فاذا انكر زوج حق زوجته في مراجعة — كما فعل مرة عمر بن الخطاب — احتجت عليه بعمل الرسول فانكسر وسكت !

وأثر عن الرسول وصايا كثيرة بالمرأة أماً كانت أم زوجاً أم بنتاً كما أوصى بها جنساً : جاءه رجل يسأله عن أحق الناس بحسن معاملته فقال أمك وكرر ذلك ثلاث مرات . وكان يقول الجنة تحت أقدام الامهات . خيركم

خيركم لأهله . وقال أيضاً : « ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء » كما قال : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً » .

ولقد كان لهذا كله أثره العميق في حسن موقف المرأة في صدر الاسلام مما شجعهن على المطالبة بأجر كأجر الرجل في الجهاد لقاء قيامهن بالبيت . ولقد اجتمعت النساء وانتدبن عنهن إحداهن اسماء بنت يزيد الانصارية فأتت الرسول تسأله عن ذلك فأقر لهن بذلك الاجر ! وأثمر ذلك ثمرته في التسوية بين الرجل والمرأة حتى قالت عائشة ام المؤمنين « إنما النساء شقائق الرجال » فلم ينكر عليها ذلك أحد .

وكانت أمهات المؤمنين زعيمات النساء في المكانة بعد وفاة النبي ، وكانت رعاية الخلفاء الراشدين لهن تعزز من مكانة المرأة في الاسلام كما كانت معرفتهن بالرسول وبالدين تزيد في تلك المكانة . ولقد روت عائشة حديث رسول الله في حياته حتى قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وكانت مرجع الناس بعد وفاته ، رجع اليها أبو بكر وعمر وعثمان في دقائق المسائل. كما هرع الناس الى أمهات المؤمنين أيام الفتنة على عثمان يسألونهن التدخل في السياسة ، وحمل الخليفة على تغيير خطته .

واذا نحن عددنا شهيرات النساء في صدر الاسلام فلاشك أنا نعد في في مقدمتهن أمهات المؤمنين : خديجة الكبرى بنت خويلد الاسدي التي يدين لها الاسلام بالشيء الكثير ، وعائشة الصديقة بنت أبي بكر التي كانت الى علمها وفضلها تتزعم حزباً كبيراً من الصحابة أيام عثمان وعلي . وهناك حفصة بنت عمر الفاروق وزينب بنت خزيمة التي كانت تكنى في الجاهلية بأم المساكين . أما باقي النساء فقد برز منهن أسماء بنت أبي بكر ، ذات النطاقين وأم عبد الله بن الزبير ، وليلى الاخيلية ، فارسة المعارك.

والخنساء الشاعرة التي تنشد النبي شعرها والتي قالت حين بلغها مصرع أولادها الاربعة في الجهاد : « الحمد لله الذي شرفني بشهادتهم » .

د) المرأة في العصر الاموي : احتفظت المرأة العربية أيام الامويين بمكانتها الاجتماعية الفضلى الا في الاماكن التي كثر فيها الجواري وهان السبي ، واختلطت تقاليد العرب فيها بتقاليد الاعاجم كالعراق مثلاً فقد ظهر بعض الهوان في امرها . ولهذا فاننا نظل نعثر في العصر الاموي على نماذج المرأة التي وجدناها في صدر الاسلام وما تتميز به من استقلال في الرأي واختلاط بالناس وعلم وأدب ومجالس حافلة . فميسون زوجة معاوية فضلت على قصر الخضراء في الشام خيمتها في البادية وسكينة بنت الحسين ، كانت دارها (صالوناً) للادباء والشعر . . الخ على أن الغزل الذي انقطع زمن الراشدين وعاقب عليه عمر الفاروق انتشر انتشاراً واسعاً حتى لم يكن كبار العلماء في مدينة الرسول ليجدوا حرجاً في سماعه وروايته. وظهر في الناس ذلك الحب البريء الذي اشتهر في بني عذرة ونسب اليهم . .

ومن مشاهير النساء في العصر الاموي (عقيلتا قريش) سكينة بنت الحسين حفيدة النبي وعائشة بنت طلحة ، الصحابي المعروف ، وكلتاهما كانتا على جمال رائع وأدب غزير ورواية للشعر ودار كل منهما ندوة تجالسان فيها الاجلة من قريش والمبرزين من الشعراء . وهناك أم البنين ، زوجة عبد الملك بن مروان وقد أنبت الحجاج على قسوته ، وأم الخير رابعة العدوية البصرية من أوائل المتصوفات والمتصوفين في الاسلام . هذا عدا عزة وبثينة وليلى ، ممن شبب بهن شعراء الغزل المشهورون في العهد الاموي .

هـ) المرأة في العصر العباسي (الحجاب) : أدى تفشي الترف والمفاسد

في العصور العباسية و كثرة اختلاط الامم وعاداتها و كثرة الجواري والسراري ، الى تدني مكانة المرأة تدنياً مستمراً . ففي مطلع أيام العباسيين لم يكن هناك من فرق بين المرأة الأموية والعباسية فقد استمرت النساء ، من الطبقات العليا أو العامة على ما كان لهن من حرية وقيمة ونفوذ فيناظرون الرجال في الادب والشعر ويرافقنهم الى الحرب ويبارينهم في الموسيقى والغناء والنظم . على أن نظرة الناس الى المرأة كانت تتغير تغيراً مستمراً حتى إذا كانت أيام البويهيين والسلاجقة أضحت نظرة مهينة رافقت أفكار الناس حتى نهاية عصور الانحطاط ومطلع العصر الحديث ، وتعكس لنا قصص الف ليلة وليلة تلك النظرة السيئة إذ تجعل من المرأة مثال المكر والدسائس ومستودع الفساد والافكار السافلة . وقد جاء في رسالة بعث بها صديق (من القرن الرابع الهجري) لصديقه يعزيه بابنته : « انت الى التهنئة أقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكروهات . ونحن في زمن إذا قدم أحدنا فيه على الحرمة فقد استكمل النعمة وإذا زف كريمته الى القبر فقد بلغ أمنيته من الصهر » ! وتمثلت هذه النظرة لدى أبي العلاء المعري مثلاً من المفكرين وفي الامثال والحكم والقصص التي أخذ يتناقلها الناس في التحذير من المرأة وسوء سريرتها في تلك العصور . وكان من لوازم هذه النظرة المنحطة أن عزلت المرأة شيئاً فشيئاً عن المجتمع ونشأ بذلك الحجاب .

والحجاب بمعنى ستر الوجه عادة قديمة في الناس ، عرفها الرومان واليونان وعرفها الغرب في العصور الوسطى . كما عرفها العرب في الجاهلية فكان لديهم « النصيف » الذي يستر نصف الوجه ، والخمار الذي يغطي الوجه ، الا أنه كان من علامات الشرف والنبل ولم يكن عاماً في النساء ، وقد نزل الوحي بحجاب امهات المؤمنين لأنهن لسن « كأحد من النساء » أما المؤمنات فقد أمرن بأن يضربن بخمرهن ولا يبدين زينتهن ، إلا للرجال الذين حددهم

الشرع، وهكذا رسم الدين آداب الظهور في المجتمع . واستمر الامر على ذلك في صدر الاسلام وفي العهد الاموي ، وتحجبت الحرائر من النساء في العهد العباسي تمييزاً لهن عن الجواري ولأنهن أرفع من ان تقتحمهن الاعين ، وتطور هذا الحجاب الى الشكل الذي سارت عليه كثير من المجتمعات الاسلامية إلى عصر متأخر . ولا يزال في بعضها .

أما الحجاب بمعنى عزل النساء عن المجتمع ومنعهن من مخالطة الرجل فانه لم يكن موجوداً في الجاهلية ولا عرفه العرب خلال عهد الراشدين . وأول ظاهرة من هذا النوع ظهرت على يد امير مكة (خالد القسري) في خلافة سليمان بن عبد الملك فقد فرق بين الرجال والنساء في الطواف حول الكعبة . وقد اقتبس العرب هذه العادة عن الفرس وتفشت بين المسلمين في أواخر العهد الاموي ، فلما كانت العصور العباسية وشاعت المفاسد الخلقية وكثرت الأفكار السيئة عن المرأة جعل الناس من الحجاب ضماناً للفتنة وغالوا فيه مع تقدم عصور الانحطاط فمنعت المرأة من العمل حتى كان من الفخر أنها لا تخرج من بيتها إلا إلى القبر وحرمت من العلم للدرجة التي آمنت بها أن حبسها من تعاليم الدين وحتى أضحى الحجاب سجناً حبس نصف المجتمع الاسلامي بطوعه وراء الجدران وحصر عملهن بأمور البيت وتربية الاولاد والعناية بالزوج .

ومن شهيرات النساء في العهد العباسي : الخيزران زوج المهدي وكانت أول امرأة تدخلت في سياسة الدولة . وزبيدة زوج الرشيد وكانت الى علمها وأدبها تتزعم الحزب العربي في البلاط وتبتكر مع علية بنت المهدي البدع (المودة) للنساء . وهناك كذلك (بوران) زوجة المأمون . والسيدة (شغب) أم المقتدر التي جلست للمظالم ، (وقطر الندى) بنت خمارويه التي أفقر جهازها الرائع الدولة الطولونيه . هذا إلى (شهدة) الكاتبة التي برزت في القرن السادس وكانت تحاضر في بغداد بالتاريخ والشعر ومعاصرتها أم المؤيد زينب وهي من أشهر الفقهاء ، وتقية بنت أبي الفرج الشاعرة المحدثة في عصر صلاح الدين الأيوبي .

لبـاس المرأة : تطور لباس المرأة وتنوع وتعددت أشكاله ، واختلفت أثمانه باختلاف العصور الإسلامية ، والبلدان ؛ ووضع النساء الاجتماعي والغنى المادي . وهو أمر طبيعي ، فلا يمكن أن يصلح لباس معين ، لجميع المناطق المناخية ولا لجميع الفصول ، كما لا يمكن توحيد الزي . ونوع القماش والوصف الذي نعطيه هو وصف عام ، يشذ في كثير من الحالات التي لا يمكن أن تحصى . وكانت نساء الجاهلية بشكل عام تلبس قميصاً أو سترة مفتوحة من الصدر . وفي الإسلام ، أوصى الرسول عليه السلام باستعمال العباءة الطويلة عند خروج النساء من بيوتهن ، وصرن يلبسن فوق القميص سترة ضيقة في الشتاء لتساعدهن على مقاومة البرد ، وقد تطورت العباءة الخارجية في العصر العباسي وصارت بأشكال مختلفة ، ووصلت الينا على الشكل الذي نراه عند العراقيات أو عند الشاميات ، أو عند المصريات أو عند المغربيات.

والنساء منذ خلقن يملن إلى الزينة ، وقد أعطاهن الاسلام كل الحرية في اتخاذ الزينة وكن يتباهين بأفخر اللباس وأجمل الزينة وأطيب العطر ، فلقد روي أن أخت الرشيد ابتكرت « موضة » هي اتخاذ غطاء للرأس مرصعاً بالجواهر ومحـلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، وان زبيدة زوجته ، اتخذت المناطق (الزنانير) والنعال المرصعة بالجواهر ، واشترت ثوباً من الحرير الرفيع الموشى بخيوط الذهب ، يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، وإن جهاز قطر الندى ابنة خمارويه حوى « ما لم ير مثله ولا سمع به إلا في وقته » وأفقر هذا الجهاز والحفلات التي أقيمت لها ، خزانة مصر العامة ، وقد وصف لنا أحد الكتاب حفلة من حفلات الوداع قبل سفرها إلى بغداد ، وذكر أنها ارتدت ثوباً من الحرير الابيض ، ووضعت على رأسها اكليل من الذهب وطرحة مرصعة بالجواهر ، وعلى أذنيها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب ، وفي أصابعها الخواتم وفي معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر ،وزينت وجهها بالاصباغ المختلفة فبدت في أحسن زينة . .

الفصل السادس عشر

النظام الاقتصادي

١ - الزراعـة

ان عمل الخلفاء في ري الفرات يشبه أعمال الري في مصر والولايات المتحدة الامريكية واستراليا في هذا العصر .

وليم ويلكوكس (مهندس معاصر)

ان المسلمين استعملوا جميع انواع الزراعة ، وحملوا كثيراً من النباتات الى صقلية واسبانيا ، وربوها في اوروبا ، فاحسنوا تربيتها حتى تظنها متوطنـة ... ومثل ذلك الارز ، والزعفران ، والعنب والمشمش والبرتقال والنخل والهليون والبطيخ الأصفر والعطر والورد الازرق والاصفر والياسمين والقطن والقصب .

سينيوبوس

يهتم المسلمون عند فتح اي بلد بشيئين في وقت معاً هما :

بنـاء المسجـد وتنظيم الحقل ..

قول مأثور عند الكتاب

طبيعة الجزيرة والزراعة في العصر الجاهلي : تدل البحوث والدراسات التي قام بها السياح والعلماء في بلاد العرب على أن تغيراً كبيراً طرأ على جوها ، وان هذا الجفاف الذي يكتنفها في أزماننا لم يكن على النحو الذي نعرفه في العصور التي سبقت الاسلام ، وان ذلك الجفاف كان له تأثير كبير في طبيعة شبه الجزيرة وفي حالة سكانها ، وقسا عليها فقاوم نشوء المجتمعات الكبرى وجعل أكثر بقاعها صحاري وأثر تأثيراً خطيراً في تاريخ الامة العربية وفي حدوث الهجرات .

ويذكر بعض العلماء ان هذه البقاع الصحراوية كانت في شطر من العصر الجليدي خضراء عامرة آهلة بالسكان . ويقول آخرون ومنهم تويتشل Twitchell ان مستوى سطح الماء قد هبط في شبه جزيرة العرب زهاء (٢٧) قدماً في خلال الفي عام . ويرى برترام طوماس الرحالة الشهير ان آثار السكنى على اطراف الاودية والترسبات التي تمثل قيعان الانهار تدفع إلى الاعتقاد أن هذه الاودية كانت في الحقيقة أنهاراً في يوم من الايام ينبض فيها عرق الحياة وانها كانت تغذي عدداً كبيراً من الاحياء . ويؤيد هذا الاستنتاج ماورد في كتب اليونان والرومان من وجود أنهار طويلة في بلاد العرب كالذي ذكره هيرودوت ودعاه (كورس) قال عنه انه من الأنهر العظيمة وانه يصب في البحر الأحمر . كما ذكر بطليموس عن وجود نهر عظيم اسمه (لار) كان ينبع من نجران ويتجه شمالاً حتى يصب في الخليج العربي .

وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ماقبل الاسلام كسد مأرب العظيم والسدود التي قال عنها الشاعر الهمداني :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً تقذف الماء سائلا

على أن العرب وخاصة في اليمن كان لهم علم بتنظيم أمور الارواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار . ويقول الرحالة (دوتي) ان كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية تدل على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء .

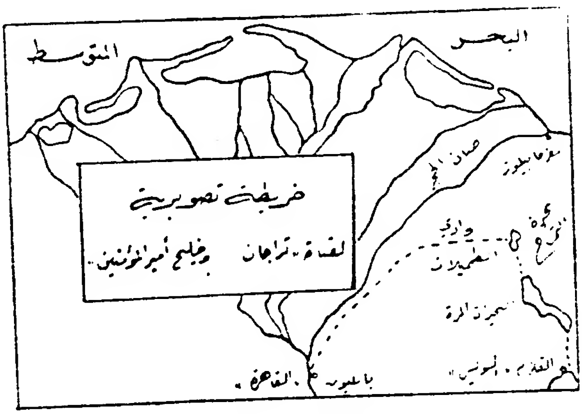
واذا أضفنا إلى ذلك ماورددته التوراة عن جنة عدن وماورد في النصوص القديمة عن وجود الاخشاب الضخمة في شبه جزيرة العرب وأنواع العطريات وأصناف الأثمار الكثيرة . ومن أن اليمانيين استثمروا جبالهم وأوديتهم وكانوا أول من زرع في العالم سفوح الجبال على شكل مدرجات . وما عثرت عليه شركة النفط العربية السعودية الأمريكية حديثاً من صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض لاستسقاء الماء منها في القطيف والاحساء وأواسط نجد وغيرها ، نستنتج من هذا كله أن الجزيرة العربية كانت آهلة بالسكان وان العوامل الطبيعية كانت ملائمة لحياة الانسان وان الزراعة كانت راقية مزدهرة غنية والحاصلات متنوعة متوفرة قبل ان تنتشر فيها الصحارى الحالية .

الزراعة في العصر الاسلامي : أما في العصر الاسلامي فقد بقيت الزراعة مزدهرة في اليمن وبعض المناطق الأخرى ، اما في الحجاز فلم تكن منتشرة لقلة المياه وفقر التربة . إلا أنها ازدهرت حيثما توفر الماء كما هو الحال في الطائف التي شبهت بغوطة دمشق لكثرة اشجارها المثمرة .

وكانت غالبية السكان تعتمد في حياتها على تربية المواشي والتجارة . وفي عهد النبي (ﷺ) رغم أن المسلمين كانوا منهمكين في تعلم مبادىء الدين وفي توطيد الاسلام في نواحي الجزيرة وفي الدفاع عن حياتهم

وعقيدتهم ، فانهم لم يهملوا زراعتهم وكان الرسول عليه السلام يشجع الزراعة ويقطع الأراضي غير المزروعة لمن يتعهدها بالري والاستثمار ودعا ذلك « إحياء الموات » .

هذا في الحجاز وقبل التوسع والفتوحات ، ولكن بعد ان انتشر العرب في الشام والعراق وفارس ومصر خاف عمر بن الخطاب عليهم الميل إلى الرخاء والتقاعد عن الحرب والرغبة في الزراعة والاستقرار بعد أن رأوا خصب الأرض واعتدال المناخ فأمر مناديه أن يذيع على الجنود ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعوا . ويقول ابن خلدون انه اعتمد في ذلك على الحديث القائل : « السكة (أي المحراث) ما دخلت دار قوم إلا دخله الذل » إلا أننا نشك في صحة هذا الحديث لانه يتنافى مع المبدأ الذي سار عليه النبي ﷺ في تشجيع الزراعة واحياء الموات .



الشكل ــ ٣٠

مخطط يبين القناة التي كانت تصل بين النيل والبحر الاحمر وعفا عليها الزمن قبل الفتح الاسلامي لمصر ، فلما دخل المسلمون مصر ، كان من اعمالهم العمرانية أن اعادوا حفر القناة واعادوا وصل النيل بالبحر ، وعن طريق هذه القناة نقلت الميرة والمؤن لمساعدة الحجاز في عام الرمادة ــ عام المجاعة ــ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب

والعرب الفاتحون وان لم يتعاطوا الزراعة والصناعة ولكن هذا لايعني انهم اهملوهما . لأن الحياة الاقتصادية ما لبثت ان عادت إلى أفضل مما كانت عليه سابقاً بفضل رعايتهم واهتامهم وانتشار الأمن وتنظيم الري وحماية التجارة . نضرب مثالاً على ذلك ما قام به معاوية في الشام وعمرو بن العاص في مصر من اصلاح الترع والأقنية وتأمين تصدير الفائض من المحصولات .

ولما أفضت الخلافة إلى الامويين واستقروا في الشام وطاب لهم المقام فيها وفي سائر الامصار وفضلوها عن الحجاز أغفل العرب وصية عمر فاقتنوا الاراضي والضياع . ويروى ان بعضهم ذكر في احد المجالس جود وكرم طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة وكان في المجلس سعيد بن العاص . فاجاب هذا : « ان من له مثل النشاستج (وهي ضيعة في الكوفة لطلحة عظيمة كثيرة الدخل) لحقيق ان يكونَ جواداً ولو كان لي مثله لاعاشكم الله به عيشاً رغداً » واهتم الامويون باصلاح وترميم شبكات الري التي وجدوها في البلاد المفتوحة وخاصة في الشام ويؤثر عن الخليفة يزيد أنه أمر بحفر مجرى نهر يزيد في دمشق لارواء الاراضي المرتفعة التي لم تصلها مياه بردى .

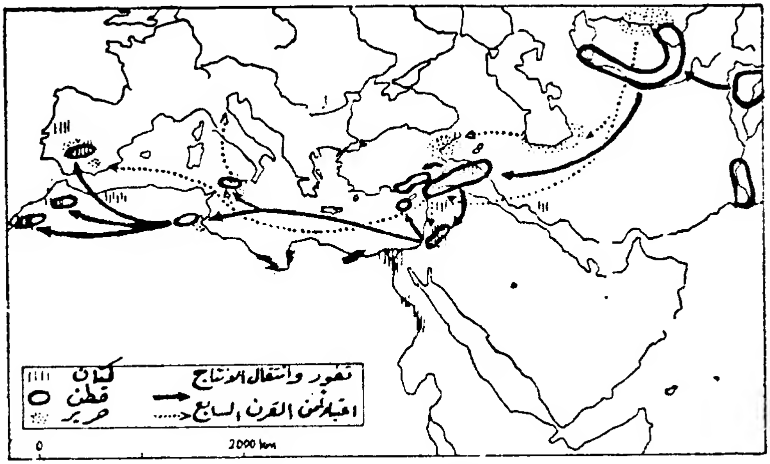
كما انهم اهتموا بتجفيف المستنقعات ، وقد فعلوا ذلك في البطائح وهي مستنقعات في أسفل العراق بين البصرة والكوفة . وقد روى قدامة بن جعفر (توفي سنة ٣٣٧ هـ) الكاتب البغدادي في كتابه المسمى (كتاب الخراج) : « ان مساحة المستنقعات قد اتسعت في زمن الحجاج فكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبر ذلك وانه قدر على اصلاحها مبلغ (٣٠٠٠٠٠٠) درهم فاستكثرها الوليد فقال له اخوه مسلمة : « انا انفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على ايدي ثقاتك » فرضي الوليد بذلك فحصلت لمسلمة بذلك ارضون وضياع ، وحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الاكرة والمزارعين وعمر

تلك الأرضين واستُخرج للوليد أيضاً من البطائح ثم لهشام بعده مال كثير ثم جرى الناس على ذلك إلى أواخر بني امية » .

إلا أن العمال في أواخر عهد الأمويين أخذوا يسيئون إلى أصحاب الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها فتشاغل الناس عن الزرع فأهملت الأرض وزادها اهمالاً نشوب الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر انحاء المملكة الاسلامية ونقم الناس على الحكومة وابطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها فأصبح معظم البلاد خراباً من الاهمال .

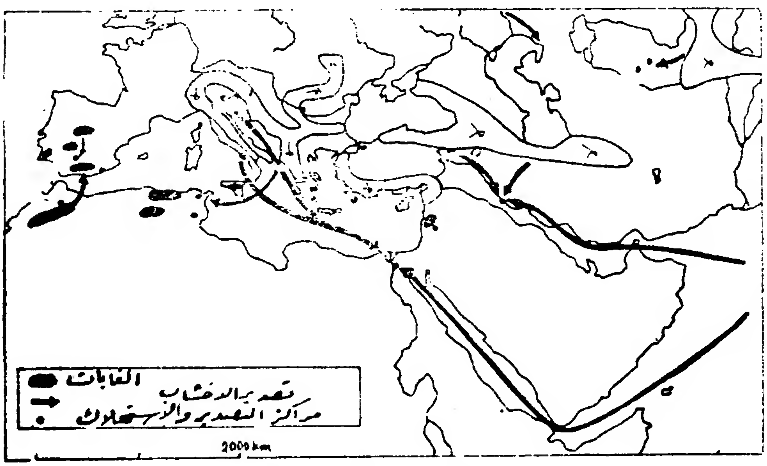
وفي العهد العباسي لما هدأت حماة الحروب والفتن وانتشر لواء العدل بين الناس واحسنت معاملة اهل الذمة والموالي وامنوا على حقوقهم وأموالهم وأرواحهم عاد الناس إلى الاشتغال بالزراعة . وبذل العباسيون اقصى عنايتهم في كل ما يتعلق بشؤون الزراعة وراقبوا امورها مراقبة دقيقة واشرفوا على تشييد الجداول وترميمها وعلى جميع أعمال الري التي تتوقف عليها الحاصلات الزراعية . وقد كتب أبو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد كتاباً عنونه إلى الخليفة يبين فيه ان من واجب الحكومة تشييد الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة لتحسين الزراعة وتنظيف الجداول الحالية وترميمها والاشتراك في التعاون مع الشعب في تحمل نفقات صيانتها وتوزيع المياه . كما يوصي بتشكيل شرطة نهرية ذات كفاءة ممتازة .

وبلغ اهتمامهم بالري ان اوجدوا له ديواناً خاصاً عرف بديوان الماء بلغ عدد المشتغلين فيه عدة آلاف . وقد امتازت منطقة العراق بخصبها وكثرة جداولها واتقان الري فيها وقد نالت حظاً وافراً من العناية لوجود



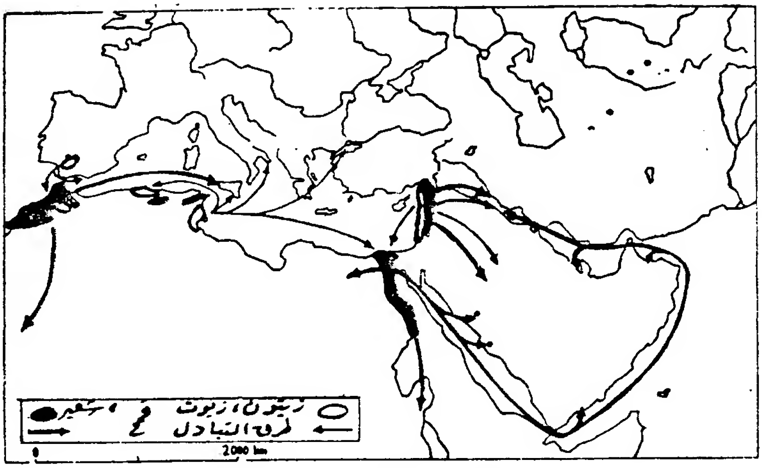
الشكل ــ ٣١

مناطق زراعة النباتات النسيجية (القطن والكتان) ومناطق تربية دود القز وانتاج الحرير في الدولة العربية الاسلامية



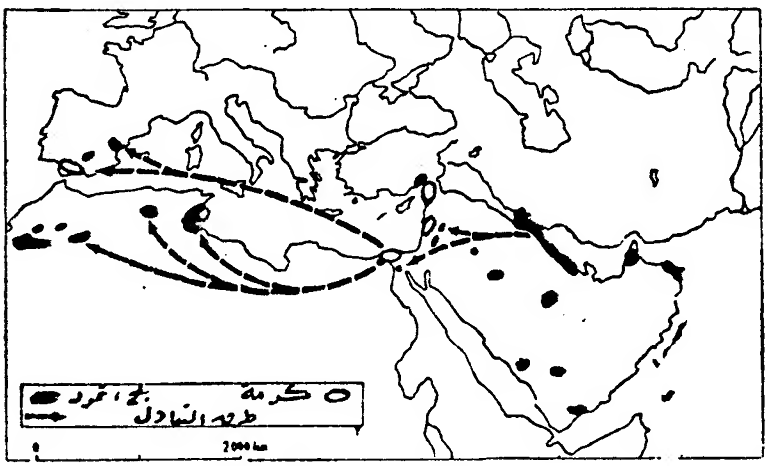
الشكل ــ ٣٢

مناطق الغابات وانتاج الاخشاب في الدولة العربية الاسلامية



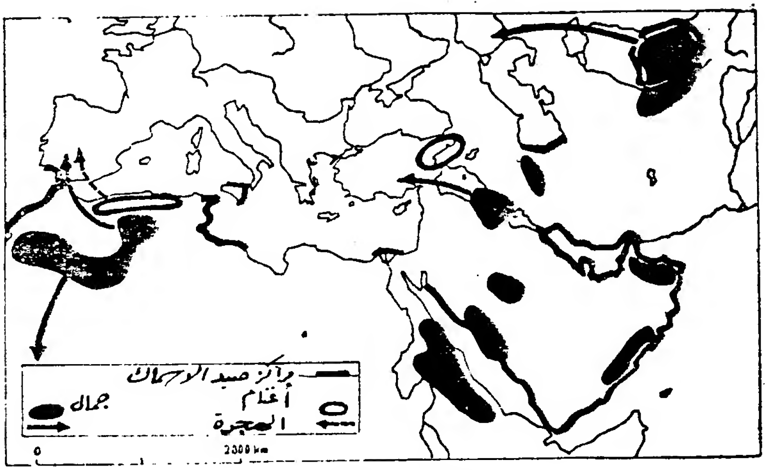
شكل – ٣٣ –

المناطق الرئيسية لزراعة الحبوب والزيتون في الدولـــة العربيـــة – الاسلاميـــة

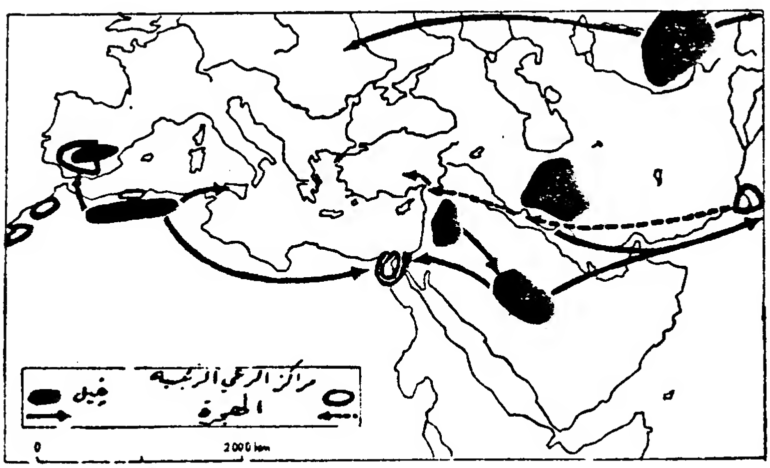


شكل – ٣٤ –

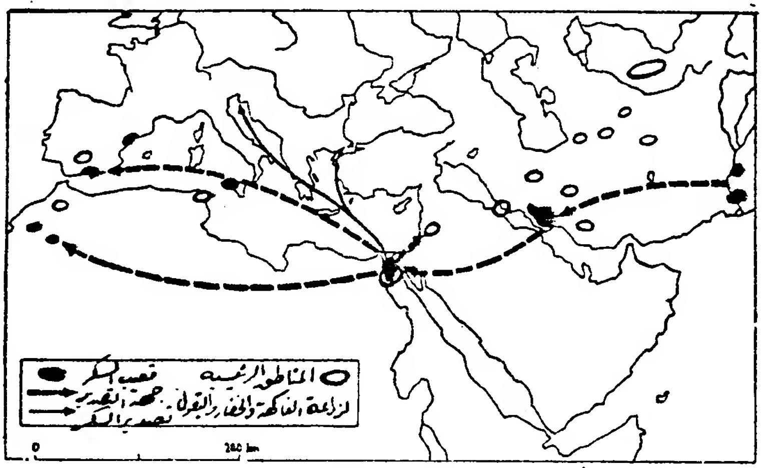
مناطق زراعة الكروم والتمور في الدولة العربية الاسلامية



شكل ــ ٣٥ ــ
مراكز الرعي وتنقل الرعاة مع مراكز صيد السمك
في الــدولــة العربية الاسلامية

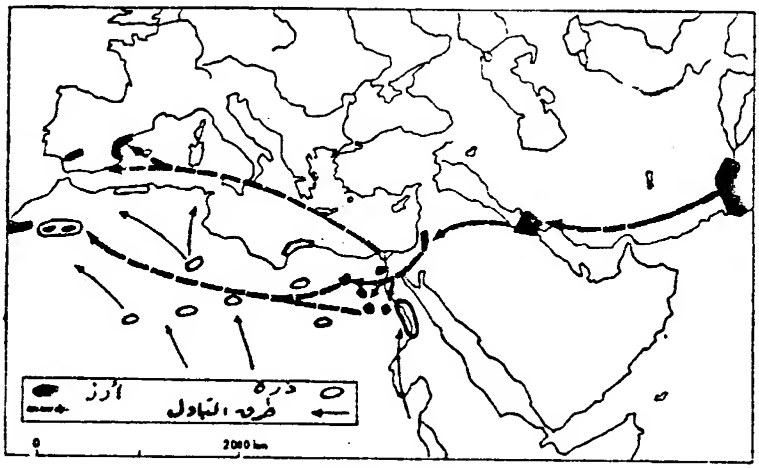


شكل ــ ٣٦ ــ
مراكز تربية الخيول والبقر الرئيسية في الدولة العربية في العهد العباسي



شكل – ٣٧ –

مناطق زراعة الخضار والفواكه والبقول مع مناطق زراعة قصب السكر واستخراجه في الدولة العربية الاسلاميــة



شكل – ٣٨ –

المناطق الرئيسية لزراعة الذرة والارز في الدولة العربية الاسلامية

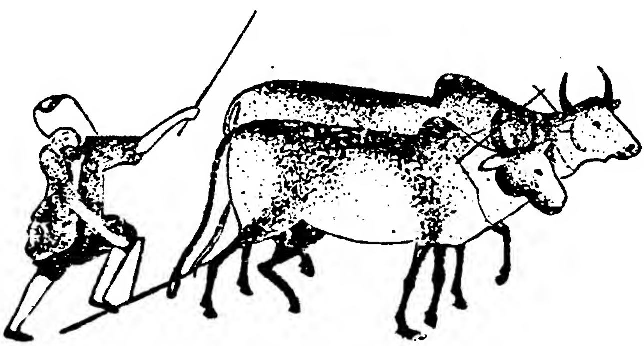
العاصمة فيها . كما أن الخلفاء عمدوا إلى تجفيف المستنقعات في البطائح حيث رشحت بنظام ترشيح دقيق . واستثمرت في الزراعة وكثرت حاصلاتها . وقد قال الاصطخري : « اصبح مابين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز » . وقال غيره : « كان العراق وجنوب فارس يبدوان في ذلك العهد روضة غناء » . ومما يؤكد ذلك ان جباية السواد ، وهو جزء من العراق ، بلغت زمن المعتصم (١١٤ ٥٠٠ ٠٠٠) درهم حسب رواية قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، أي ما يعادل ثلث خراج الدولة بكاملها . ونستطيع ان نقدر قيمة هذا المبلغ إذا علمنا ان خراج مصر والاسكندرية حسب رواية قدامة ابن جعفر بلغ (٢٥٠٠ ٠٠٠) دينار أي (٣٧ ٥٠٠ ٠٠٠) درهم .

ومن أشهر المناطق الزراعية عدا سهول المغرب ومصر والشام والرافدين ، منطقة خراسان وبلاد ماوراء النهر . وهي كثيرة الخصب جداً قال عنها ابن حوقل : « لم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارى لانك إذا علوت مرتفعاتها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء ، مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطية أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من أراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة » كما قال أيضاً : « والمشار اليه من منتزهات الأرض سغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق » .

استثمار الارض : ومن أساليبهم في استثمار الارض الايجار . او أن تبذر الأرض من قبل صاحبها ثم تعهد إلى فلاح بالمزارعة . أو تبذر ويشرف عليها صاحبها وتحصد من قبل الفلاح وهذا ما يدعي بالمخابرة . والفلاح يحتفظ لنفسه في الحالين بجزء معين من المحصول . وهناك أيضاً المغارسة وهي أن

يعطي صاحب الارض أرضه إلى فلاح يغرسها بالاشجار ويستفيد منها خلال سنوات معدودة وينال نصف الأرض المغروسة عند انتهاء مدة العقد . أما المساقاة فهي أن يعطي المالك بستاناً للنخيل ليروى ويسمد ويصان ويحمى من الطيور أو اللصوص مقابل حصة من الثمار بعد جنيها وتجفيفها . ويطبق نفس النظام على الكروم . وفي رأي أغلب الفقهاء أنه لا يمكن أن يطبق النظام على البساتين المكونة من أشجار أخرى . والمالك يقدم الآلات ودواب الحمل وغير ذلك .

أما عن أدواتهم الزراعية فلا يوجد عنها شيء يذكر في المصادر التاريخية . ويوجد كتاب نادر غير مطبوع بعد وهو « كتاب الفلاحة النبطية » لابن وحشية لعل فيه ما يزيد معلوماتنا عن الزراعة وأصولها وأدواتها . وربما تكون أدواتهم شبيهة بالأدوات البسيطة المعروفة الآن في البلاد العربية . نستنتج ذلك من بعض النقوش التي وجدت في اليمن ويبدو في احدها صورة رجل من أهل اليمن يحرث الارض بالثيران وفوق الصورة كتابة بالمسند . ويلاحظ فيها أن المحراث لا يختلف كثيراً عن المحراث البسيط المستعمل في وقتنا الحاضر .



شكل — ٣٩ —
صورة اسلامية مرسومة في القرن العاشر الميلادي
تمثل فلاحاً يحرث الارض

الحاصلات الزراعية : اشتهرت بلاد الامبراطورية العربيـــة بكثرة حاصلاتها وتنوع منتجاتها وجودة أصنافها ويرجع ذلك إلى تعدد أقاليمها واختلاف جوها .

ومن أشهر حاصلات الحبوب فيها : القمح والشعير والأرز والحبوب العلفية ومن **الاشجار المثمرة والفواكه :** النخيل والبن والكرمة والتين والزيتون والخوخ والكمثرى والمشمش والجوز والسفرجل والرمان والكوز والبطيخ . ومن **المزروعات الصناعية :** القطن وقصب السكر والكتان والنباتات التي يستخرج منهـــا مواد الصباغ كالنيلة والقرمز والزعفران والعصفر . كما يزرع أيضاً في فارس والشام الورد لاستخراج ماء الورد .

وبلاد الامبراطورية العربية الاسلامية على العموم فقيرة باحراجها واخشابها إلا أن بعض المناطق اشتهرت باحراجها كالشام وصعيد مصر والمغرب وخراسان .

تربية المواشي : كان يعنى بتربية المواشي عناية كبرى لانها مصدر رئيسي من مصادر ثروة سكان الامبراطورية . ويعتمدون عليها في غذائهم وتنقلهم وصناعاتهم النسيجية . وكان أهمها : الإبل وهي أكثر المواشي نفعاً لسكان الجزيرة والمغرب وفارس إذ لا يقوم مقامها حيوان في الركوب وحمل الاثقال في مناطق قليلة العشب نادرة الماء واسعة الارجاء . وأنواعها كثيرة يشتهر منها نوع سريع الجري لا يقل عن الخيل خفة وسرعة . أما **الخيول العربية** فهي ذات شهرة عالمية وصفها أحد الرحالة المستشرقين (بلغراف) بقوله : « هي عصبية رشيقة مثال الاناقة في شكلها وهي برؤوسها الصغيرة وأحداقها الوهاجة وجوانبها المثلثة القصيرة وذيولها المتموجة وقوائمها الدقيقة المتينة عنوان الجمال ... » . واكثر ما تربى في سهول العراق والشام ونجد . وفي نجد أعزّ الخيول العربية وارشقها . **الحمير** وهي من الدواب

الشائعة للركوب بين الحضر وأهل المدن. **البغال** وهي كثيرة في اسبانية والمغرب والمناطق الجبلية . **الغنم** (ضأن وماعز) تربى بكثرة في جميع المناطق وتعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر ثروة البلاد . **البقر** ويربى في المناطق الغزيرة المياه الكثيرة الأعشاب كما في الشام والعراق . **الجاموس** جيء به من الهند ويربى في الأماكن التي تكثر فيها المياه والمستنقعات كما في مصر والشام والعراق .

الزراعة في الاندلس : اشتهرت بلاد الأندلس بخصب تربتها وجود اقليمها وقابليتها العظيمة للزراعة . إلا أن اضطراب الأمن قبل الفتح العربي وانتشار الفوضى وضعف الحكومة واستبداد رجال الاقطاع وتطاحنهم وتأخر حالة الفلاحين الاقنان اي عبيد الارض ، أدى كل ذلك الى تقهقر البلاد وانحطاطها اداريا واقتصاديا . مما سهل مهمة العرب الذين حملوا اليها الحضارة الفكرية والمادية .

التحسينات التي أدخلها العرب على الزراعة في الاندلس : ادخل العرب والبربر الى الأندلس كل خبرتهم الزراعية ومهارتهم الفنية التي جلبوها معهم من الشام وشمال افريقيا . ولم يكتفوا بذلك بل درسوا امكانية الارض وملاءمة التربة والطقس لزرع النباتات المختلفة . كما ادخلوا نظام زراعة المدرجات في الجبال . وحسنوا وسائل الري اذ وجدوا المياه تزخر وتفيض في بعض الاوقات وتقل حتى تجف في أوقات اخرى . فحفروا الترع والمصارف العديدة لاستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية . ولا نزال حتى الآن نجد في أسبانيا آثار الاقنية والقناطر والجسور الاسلامية . كما نجد مفردات ومصطلحات عربية كثيرة في لغة الاسبان تتعلق بالري مثل: الناعورة والساقية والسد والبركة والجب والوادي . عدا اسماء النباتات الكثيرة التي ادخلها العرب الى الاندلس ولا يزال بعضها

يعرف باسمائه العربية مثل الارز والقطن وقصب السكر والزعفران والارضي شوكي وكثير من الاشجار المثمرة كالمشمش والرمان . وعنها اخذت بقية بلاد اوروبا هذه المزروعات .

الحاصلات الزراعية : كانت اهم حاصلات الاندلس :

الحبوب : القمح والشعير والارز .

الاشجار المثمرة : الكرمة والنخيل والزيتون والرمان والبرتقال والليمون والآس واللوز والتوت .

المزروعات الصناعية :قصب السكر والكتان والقطن والقنب والزعفران

وكانت **احراجها** كثيرة تشبه احراج بلاد الشام الساحلية وخاصة في منطقة غرناطة .

تربية المواشي : كانت تربى في الاندلس جميع أنواع المواشي المعروفة في المشرق عدا الابل . ولكثرة المراعي في وديان الانهار الكثيرة مثل نهر وادي الكبير ونهر شينيل (شنجيل والدورو) (الحدارة) ربيت الابقار والخيول والاغنام . أما في المناطق الجبلية فقد اعتنوا بتربية الماعز والبغال .



شكل — ٤٠ —
فارس عربي مرسوم على صحن خزفي



٢ – المعادن والصناعة

تمهيد – ثروة شبه جزيرة العرب قبل الاسلام : اشتهرت شبه جزيرة العرب عند القدماء بكثرة معادنها . وقد جاء خبر ذلك في التوراة في قصص داوود وسليمان وبلقيس وفي مواضع متعددة من الحكايات الواردة في اسفار التوراة . وأهم معدن يرد ذكره هو الذهب وتشير الروايات الى أماكنه في الحجاز واليمن وغيرهما . وورد في التوراة أن الاسماعيليين كانوا يستعملون اقراص الذهب . كما ورد ذكر الفضة ومعادن أخرى .

ويظهر من المؤلفات اليونانية ومن الكتب العربية ان منطقة قنفذة كانت تشتهر بوجود التبر فيها . كما ان الهمداني خصص ابحاثاً كاملة لمعادن الجزيرة وخاصة اليمن . فقد ذكر وجود الذهب والفضة والعقيق والحديد فيها . ويكثر وجود الصخور الملحية في الحجاز وعسير وجيزان وفي اليمن التي كانت تصدر كميات كثيرة منه الى الهند . وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافية كانها بلور . والى جودة هذه الصخور الملحية في كثير من انحاء الجزيرة يجب ان يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التاريخ والادب .

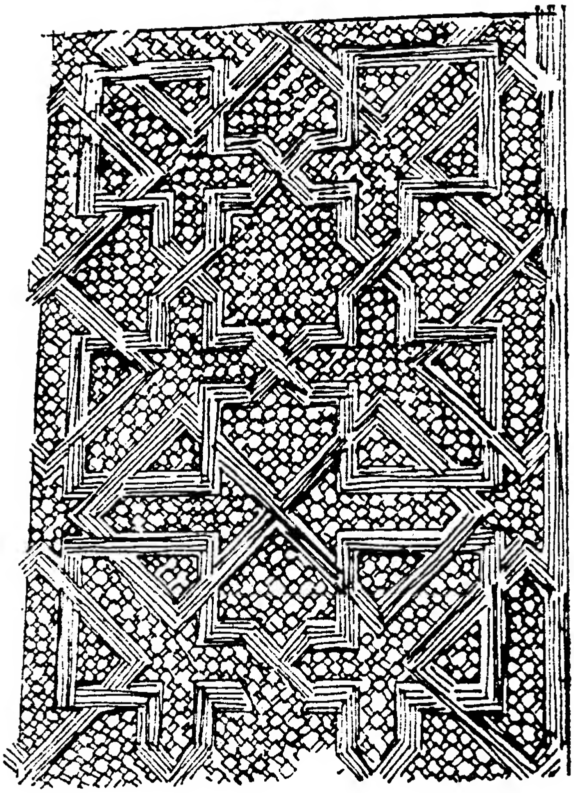
ويوجد في اليمن صخور متبلورة استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل

في النوافذ لتقوم مقام الزجاج. كما أن المناطق المطلة على خليج البصرة كانت تشتهر بمغاص اللؤلؤ.

المعادن واشهر اماكنها في العصر العباسي : هذا قبل الاسلام وفي شبه الجزيرة اما بعد الاسلام وخاصة في العصر العباسي فان سكان الدولة أخذوا يستثمرون المعادن من شبه الجزيرة ومن بقية انحاء الامبراطورية في الاندلس والمغرب والشام والعراق وفارس.

وسنعدد الآن أشهر المناطق التي اشتهرت بثروتها المعدنية مع ذكر أنواعها متجهين من الغرب الى الشرق :

١ـ المغرب العربي	:	الذهب والفضة ومغاص المرجان.
٢ـ مصر والسودان	:	الذهب والفضة والزبرجد والشب والنطرون
٣ـ الشام	:	الحديد (حلب ولبنان) الحمّر. الرخام (فلسطين) الكبريت (الغور).
٤ـ الكويت والبحرين وعُمان	:	اللؤلؤ.
٥ـ الحجاز	:	الذهب
٦ـ اليمن	:	العقيق والعنبر
٧ـ كرمان	:	الذهب والفضة والحديد والنحاس والنشادر
٨ـ فارس	:	الفضة والحديد والرصاص والكبريت والنفط والقير والزئبق والكحل والملح.
٩ بلاد ما وراء النهر	:	الذهب والفضة والزئبق والفحم الحجري.
١٠ ـ خراسان	:	الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنشادر والزئبق.



شكل – ٤١ –
نموذج من صناعة الابواب الخشبية بحشوات من الخشب
ترتب بأشكال هندسية بديعة . وهذه القطعة من أحد
ابواب مدرسة العطارين من فاس – المغرب



اناء من الخزف من صناعة دمشق محفوظة في متحف برلين ـ دالم ومصنوع في القرن الرابع عشر الميلادي وهو اناء خاص بالصيدليات . وقد برغ هذا الاطار الفني للمرة الاولى في الاندلس ثم انتشر في بقية البلاد الاسلامية ومن بعد ذلك انتقلت صناعته الى الغرب

شكل ـ ٤٢ ـ



شكل ـ ٤٣ ـ

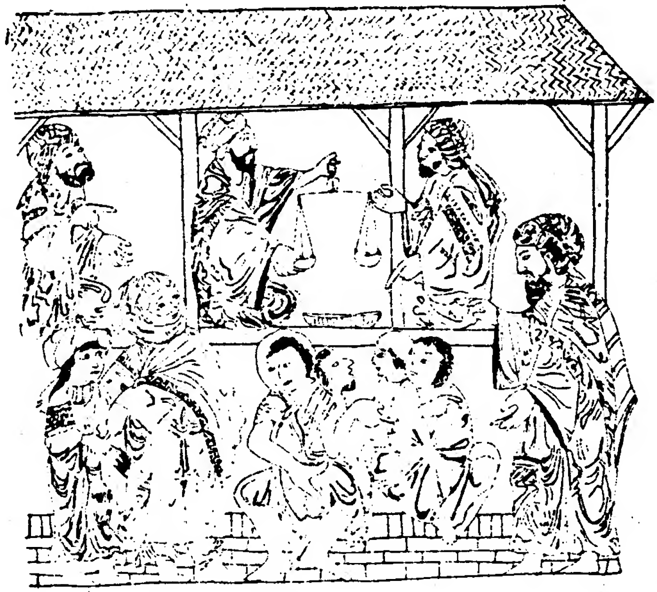
تزيينات ذات بريق معدني ، على كاس من الخزف مصنوعة في الاندلس في عهد بني نصر (القرن الرابع عشر الميلادي) وكانت الاندلس والجزر البحرية التابعة لها ، مركز فن البريق المعدني في العصور الوسطى ، انتقل منها الى بلدان اوروبا الغربية وخاصة المانيا وايطاليا . وهذه الكاس محفوظة بمدينة بايون

هذه أشهر المعادن المعروفة ذكرتها المصادر العربية باعتبار انه كان يجبي خمسها لبيت المال . وكانت الحكومة تقطع هذه المعادن اقطاعاً او تضمنها تضميناً بمـال معين وقد يكون ذلك المبلغ كثيراً . اذ يذكر المقدسي ان ضمان معادن الفيروز في نيسابور (خراسان) بلغ في اواسط القرن الرابع للهجرة (٧٦٠٠٠٠) درهم تقريباً .

وكانت جباية الدولة تتألف معظم الاحيان من الاموال ومن المنتوجات التي تشتهر بها كل منطقة . يذكر ابن خلدون مثلاً انه كان يؤخذ من السودان في عصر المأمون عدا الاموال (٢٠٠) حلة من الثياب و (٢٤٠) رطلاً من طين الختم . ومن خراسان الفضة والثياب والرقيق .

اهم الصناعات ومراكزها : لم يهتم سكان شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بالصناعة فقد اعتمدوا في حياتهم بالدرجة الاولى على التجارة وتربية المواشي ومن بعدهما على الزراعة ومن ثم على الصناعة . ولا تزال صناعتها حتى الآن ضعيفة بسيطة . واسباب ذلك : فقر بيئتهم من المواد الضرورية للصناعات ، وبساطة معيشتهم ، ونظام حياتهم القبلي . وكانوا ينتجون ما يحتاجون اليه من مواد نسيجية (ثياب وخيام) واسلحة وغيرها من الصناعات المعدنية البسيطة . وقد اشتهروا ببعض الصناعات كما هو الحال في اليمن التي عرفت بسيوفها في الجاهلية والاسلام .

أما في صدر الاسلام فقد شغل العرب بالفتوحات . ولما هدأت حماة الحروب تملكوا الضياع واعتنوا بشؤون الزراعة واهملوا الصناعة لأن العربي كان يأنف أول عهده من العمل الصناعي ويميل الى الاشتغال بوظائف الدولة أو التجارة أو تملك الضياع والأراضي وترك المهن لأبناء البلاد الأصليين . من الامثال المتداولة « ان الحمق في أصحاب المهن والصناعات » .



شكل ـ ٤٤ ـ
صورة تزين نسخة من مخطوطة كتاب « مقامات الحريري » محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ويشاهد فيها بائع وشاري في الاعلى ورجال ونساء في الاسفل ، وتظهر ملابس الرجال والنساء بوضوح

ولكن العرب لما أبعدوا عن الجيش والأعمال الادارية في العهد العباسي اضطروا إلى تعلم مختلف الصناعات والارتزاق منها . وقد نشطت الصناعة وازدهرت وكان من أسباب ذلك ارتفاع مستوى المعيشة، وحياة الترف والبذخ، وكثرة الأموال ، ونشاط التجارة ، واكتمال رقي الدولة العربية بعد أن بلغت دور القوة والنضوج . وبذلك يقول ابن خلدون : « وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع .... ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ... والصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يكون للكماليات . »

وارتقت الصناعة بتوالي الأجيال ، وامتـــازت كل منطقة اسلامية بصناعات خاصة بها . واهم الصناعات التي اشتهرت بهـا البلاد الاسلامية .

١ ـ **الصناعات النسيجية** : على اختلاف أنواعهـــا الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية . وامتازت كل منطقة بنوع خاص . ففارس والعراق والشـام اشتهرت **بالانسجة الحريرية المشجرة** . وكان العرب ينشئون المصانع الجديدة اينما ذهبوا حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير في العالم خلال القرون الوسطى . وقد نسب بعض المنسوجات الى المدن التي تصنع فيها وعرفت بها كذلك لدى الشرقيين والغربيين فالفستان Fustian للفسطاط والداماسك لدمشق والموصلين للموصل والكوفيات للكوفة . وامتازت بلاد فارس بنوع يدعى السحل (التفتة) Taftah . واشتهرت بغداد بنوع من النسيج الحريري يدعى بالعتابي نسبة الى حي العتابية الذي كانت تقطنه سلالة عتاب حفيد أحد الصحابة . وانتقل الى اسبانيا وعرفه الفرنسيون والايطاليون باسم Tapis .

واشتهرت مصر بالانسجة الكتانية كما اشتهرت به بلاد فارس . وامتازت خراسان والعراق بالاقمشة القطنية . اما النسيج الصوفي فكان يصنع في كل مكان ويعتمد عليه بصورة خاصة في بلاد فـارس اصنع السجاد الـتي اشتهرت بانواع عديدة منه شهرة عالمية . يضاف الى كل ذلك صناعة البسط (أرمينيا وبخارى) والستور والاغطية . وجاء في الاغاني : « انهم كانوا يزركشون البسط والطنافس ويرسمون في اواسطها اشكالاً ورسوماً مما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب او القصب ابياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط بقصيدة ... وكان لأم المستعين بساط عليه صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت

وجواهر انفقت في صنعه (١٣٠٠٠٠٠٠٠) درهم .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر ذكر الارانب . والابريسم وهو حرير خالص . والديباج وهو نسيج حريري موشى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها . والبز وهو نسيج قطني ثمين . وكانوا يصنعون من هذه المنسوجات الثمينة : الاقبية والدرايع والطيالسة والجبب والعمائم والابراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات وغيرها .

٢ - **الصناعات المعدنية :** برع سكان الامبراطورية العربية بالصياغة وتكفيت المعادن (التطعيم) كتكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة لخلق رسوم عليها موضوعات زخرفية مختلفة . وعرفت هذه الصناعة الدمشقية (Damascening) . كما عرفت دمشق بصناعة الاسلحة من الحديد والصلب . كما اشتهرت به اليمن ايضاً . وامتازت الموصل بصنع الادوات النحاسية التي تختص بالمائدة .

٣ - **الصناعات الغذائية :** اشهرها صناعة **السكر** نقلوه من مواطنه في الهند الى بلاد فارس ومصر وانشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل . وكانت منطقة الاهواز تدفع في عهد المأمون مع الجباية (٣٠٠٠٠) رطل سكر . وامتازت الشام بزيتها كما كان يصنع بها ماء الورد الذي اشتهرت به ايضاً بلاد فارس التي كانت تقدم مع جبايتها (٣٠٠٠٠) قارورة من ماء الورد . كما كانت انواع الشراب من الفواكه والخمور تصنع في كل مكان . واشتهرت بصنع العطور مثل الشام وفارس لكثرة انواع الزهور فيها .

٤ - **الصناعات المختلفة :** وهنالك صناعات كثيرة كانت موضع

اعجاب الاوربيين قرونا عديدة مثل صناعة الورق الذي اشتهرت به الشام . وازدهرت صناعته في عهد المعتصم اذ أسس المصانع وجلب لها العمال من مصر . واشتهرت البصرة في عهده بصناعة الزجاج والصابون وقد عرفت بها بلاد الشام التي كانت تصدر في مطلع القرن الثاني الهجري الزجاج الملون المطلي بالميناء الى كافة انحاء العالم . وكان يضرب بزجاج الشام المثل بالرقة والصفاء فيقال أرق من زجاج الشام . ومن الصناعات الراقية في فارس ومصر صناعة الفخار والخزف . وقد اقتبس الصناع المسلمون صناعة الخزف من الصين ثم تميزوا بأنواع خاصة بهم وهو الخزف ذو اللون الازرق الممتاز . وعرفت الشام والعراق ومصر والمغرب خاصة بصناعة الجلود وصناعة الاحذية والوسائد والسروج وجلود الكتب المزخرفة وغيرها. كما كان لصناعة المجوهرات اهمية كبرى لما تتطلبه حياة الترف والبذخ من كثرة استعماله واقتنائه . ومن الصناعات ايضاً صناعة القوارب والمراكب التي كانت تستعمل للنقل ولصيد الاسماك . وقد اشتهرت البلاد البحرية والنهرية بصيد الاسماك . وكان يجبى من ارمينيا عدا الاموال (١٠،٠٠٠) رطل من السونج وهو نوع من الاسماك البحرية .

معادن الاندلس وصناعاتها

المعادن : كانت الاندلس من أغنى بلاد الدولة العربية في المعادن من حيث وفرتها وكثرة انواعها وسهولة استخراجها . وقد استثمرت منذ أقدم العصور الا انها اهملت في فترة الفوضى والاضطرابات في عهد القوط. وبعد ان استتب الامر للعرب واستقروا نشطوا في استثمار معادنها المختلفة.

ولا تزال تعتبر اسبانيا في عصرنا الحاضر من البلاد الاوروبية الغنية بمناجمها تستهلك ما تحتاجه وتصدر الباقي وخاصة الحديد .

وأهم المعادن التي كانت معروفة زمن العرب هي :

الحديد والذهب والفضة والرصاص والنحاس والكبريت والياقوت والبلور والاثمد أو الكحل .

اشهر صناعات الاندلس : يقول المستشرق الاستاذ J . R . Trend « لما كانت أوربا ترزح تحت نير الجهل والفساد كان المسلمون الاسبان قد أقاموا حضارة زاهرة وحياة اقتصادية منظمة » .

كانت صناعة الأندلس لا تقل عن صناعة المناطق الشرقية للامبراطورية العربية ، في اتقانها وتنوعها وجودتها . فقد أقيم في غرناطة وطليطلة **معامل الصب والحديد** الكبيرة . وكان صنع الفولاذ الاندلسي مشهوراً في كافة انحاء العالم . وسيوف غرناطة كانت تفضل على غيرها لحسن صنعها واتقانها . وكان يصنع في مرسية **وشيا مذهباً** في غاية الاتقان وفيها أيضاً معمل **للبسط** لم يكن له نظير وآخر **للأسرّة** المرصعة . وكان **للحرير** الاسباني شهرة عظيمة ولم يكن له مثيل في تعقيده ودقة صنعه . ويقال إن العرب هم الذين ادخلوا الى اسبانيا صناعة الحرير والقطن والمصنوعات الصوفية .

وتتجلى صناعة العرب في اسمى مراتبها في **الفخار** الاسباني العربي ذي البريق المعدني الذي يعتبر بعد الخزف الصيني مباشرة في الجمال والقيمة . وهذا البريق المعدني متألق كالذهب يتراوح لونه بين الياقوتي وبين عرق اللؤلؤ والاصفر المخضر ، مع نقوش وزخرفة باللغة العربية وكان يكثر استعمال كلمة (العافية) على الأواني وبقيت تعرف بالاسبانية Alafia .

ولا يجب أن ننسى صناعة **النجارة** وخاصة الدقيقة الفنية وقد لاحظ بعض المستشرقين أنه لا يزال كثير من المصلحات الفنية للتجارة في اسبانيا عربية .

وكان في مالقة معامل **للزجاج** ونوع من **الفسيفساء** المفضضة على شكل خاص ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم فذكروا أن أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة هو عباس بن فرناس حكيم الأندلس .

كذلك كانوا مشهورين على الأخص **بدباغة الجلود والصياغة** وتزيين الجلود بالنقوش البارزة . وقد قضي على هذه الصناعة في اسبانيا منذ خروج العرب ، ونقلت منها إلى فاس ثم إلى انكلترا حيث اطلق عليها الموروكو كما ادخلوا في اسبانيا **صناعة البارود والسكر والورق** .

ويقول ابن خلدون عن صناعة الاندلس : « ... فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد امصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين واقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم اقوم عليها وابصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار ... » .

* * *

٣ ــ التجارة وطرق المواصلات

تجارة العرب قبل الاسلام : كنا ذكرنا أن سكان الجزيرة العربية كانوا يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على التجارة بالدرجة الأولى لأن العوامل الطبيعية والاجتماعية كانت غير ملائمة للزراعة والصناعة . لذلك ركز السكان جهودهم في استثمار موقع بلادهم التجاري الممتاز . فالجزيرة تحتل مركز القلب من العالم القديم ولا يمكن أن يتم اتصال في البر والبحر إلا عن طريقها وبواسطة سكانها .

والمصادر القديمة كالمصرية والعربية واليونانية والرومانية والتوراة وغيرها تبين أهمية العرب في التجارة في تلك العصور وتعدد المواد الضرورية التي كانوا ينقلونها على قوافلهم وفي سفنهم . وهي تشير إلى أن تجارة اليمن بقيت مزدهرة طيلة قرون عديدة . وكان أكثر اشتغال ملوك اليمن بالتجارة لتوسط بلادهم بين الهند والحبشة والصومال ومصر والشام والعراق فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد بعد دخولها إلى جزيرة العرب في طرق خاصة . ولم يكن عالم التجارة يستغني عنهم فزهت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتدت سيادتهم إلى أطراف الجزيرة شمالاً وشرقاً . وبذلك لم يكن تمدنهم حربياً كتمدن الاشوريين والفرس والمصريين بل كان تجارياً كتمدن الفينيقيين فكانوا واسطة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . وتوالت أجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار العالم كما كان اخوانهم الفينيقيون في

أجيال أخرى . بقيت الحال كذلك إلى أن سيطرت الامبراطورية الرومانية الشرقية على تدمر وبلاد الانباط وذهب تجار الروم وتدمر من الخليج العربي والبحر الأحمر فحملوا بضاعة الهند إلى الحبشة ثم إلى مصر وغيرهما .

وكان لعرب الحجاز ، وخاصة بعد سيطرة قريش على مكة ، نصيب وافر من تلك التجارة التي حمل اليمانيون لواءها . ونظموا رحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام عدا الرحلات إلى الحيرة . وعقدوا اتفاقات تجارية مع الحبشة واليمن والفرس والمناذرة والغساسنة والرومان .

تطور التجارة بعد الاسلام : لم تنقطع تجارة قريش ولم تتوقف قوافلها إلا بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حيث قوي أمره فيها وأخذ يضعف من شأن أعدائه بتهديد تجارتهم ومورد رزقهم وثرائهم وقوتهم . ثم ضعفت حركة التجارة وتوقف نشاطها في دور التوسع والفتوحات ولكنها لم تتعطل تماماً ولم ينقطع سير القوافل من وقت إلى آخر في فترات متباعدة . استمرت الحال كذلك حتى استتب الامن للعرب المسلمين في كافة انحاء الجزيرة ودانت لهم الشام والعراق وفارس ومصر . وبخضوع هذه البلاد جميعها لسلطة واحدة وهي غنية ذات موارد كثيرة منوعة ، عادت التجارة شيئاً فشيئاً إلى سابق عهدها ثم نمت واتسعت باتساع الفتوحات وازدياد رقعة الامبراطورية حتى بلغت أوجها في العصر العباسي .

وكانت أهم أسباب ازدهار التجارة في العالم الاسلامي هي :

١ — اتساع مساحة البلاد الخاضعة لسلطة العرب وكانت تقدر مساحتها بثلاثة ملايين ونصف المليون ميل مربع أي نحو مساحة أوروبا كلها .

٢ — وحدة النقد مما سهل التعامل التجاري بين مختلف أنحاء الامبراطورية .

٣ – رقي الصناعة وتقدمها وكثرة انتاجها مما دفع التجار إلى تصريف الفائض .

٤ – ارتفاع مستوى المعيشة وحياة الرخاء والبذخ والترف .

٥ – كثرة الأموال واتساع الثروات .

٦ – نشوء الدويلات المستقلة وسعي كل منها إلى التشبه بالدولة الأم من حيث البلاط والحاشية والابهة والبذخ والعطاء .

إلى هذه الاسباب الظاهرة وغيرها من العوامل الخفيـة الثانوية يرجع السبب في ازدهار التجارة العربية واتساع محيطها . وقد اتقن التجار العرب التجارة علماً وعملاً حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . فقـــد وضع أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة كتاباً عنوانـــه « الاشارة إلى محاسن التجارة » فيه شرح لبعض الفوائد الاقتصادية لم يسبقه أحد إليها . كما يحوي أبحاثاً في معنى النقود والسلع والعروض وتحقيق أثمان الأشياء ، وهي أبحاث قيمة لا تقل عما بلغ إليـه علماء الاقتصاد في هذا العصر .

وقد دفعت كثرة الأرباح التجار العرب إلى أن يطوفوا في الدنيا بشجاعة ويغامروا بقوة فكانوا رواد العالم الأول في البر القديم فقد عرفوا سواحل افريقيا الشرقية ومناطقها الوسطى النائيـة والهنـد والملايو والصين وجزر سرنديب وسومطرا وجاوا وبورنيو . وجابت قوافلهم قارة أوربا ووصلوا إلى البلطيق وروسيا وألمانيا وانكلترا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان . فلم تردهم عقبة ولم يمنعهم خطر .

وكانت لرحلاتهم وأسفارهم التجارية الفضل الكبير على تقدم علم الجغرافية

وذلك لاتساع مداها وبعد آفاقها . اذ أن غاية الرحلات الأولى كانت تجارية بحتــة كما كانت من بعد رحلات فاسكو دوغاما و كريستوف كولومبوس . واثرت قصص التجار عن عجائب وغرائب المناطق التي شاهدوها في نفوس بعض العلماء فنشطوا للقيام برحلات غايتها علمية ولكنها لم تتم الا بواسطة سفن تجارية .

التبادل التجاري والمنتجات المتبادلة : التجارة نوعان داخلية وخارجية . فالداخلية هي التي تكون فيها المبادلات بين مختلف أجزاء الدولة الواحدة . أما الخارجية فهي التي تجري فيها المبادلات بين دولة وأخرى . الا ان اتساع البلاد الخاضعة للنفوذ العربي وامتدادها على ثلاث قارات من الاطلسي حتى مشارف الهنـــد والصين ومن المتوسط وقزوين حتى الهندي ، يجعل امكانيات التجارة الداخلية فيها جد واسعة ويمكن أن تشبه في الوقت الحاضر بتجارة الاتحاد السوفيتي أو تجارة الولايات المتحدة الاميركية .

أما التجارة الخارجية فكانت بين بلاد الدولة الاسلامية من جهة وبين أوروبا والهند والصين وجزر جاوا وما يجاورها وسواحل افريقيا الشرقيـة وأواسطها والحبشة من جهة ثانية . ونلاحظ من ذلك أن ميدان التجـارة الداخلية والخارجية كان واسعاً جـداً يكاد يصعبُ تصديقه بالنسبـة لذلك العصر لضعف النقل البري والبحري وبساطة وسائله .

وسنعدد الآن أهم السلع والمنتجـات التي كان يُتاجر بها مع ذكر مراكزها :

من الهنـــد : الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعــــاج وخشب الصندل والتوابل والافاوية كالبهار والفلفل ونحوهما والقطن .

من الصين : المسك والكافور والعود والحجارة الكريمة والخزف .



الشكل ـ ٤١

طبق من الخزف من صناعة الفسطاط من صنع الخزاف المصري علي البيطار محفوظ في متحف برلين ــ دالم . وهو نموذج من الفن الفاطمي في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي وتلاحظ فيه صورة ارنب في الوسط يحيط به اربع جامات متقابلة ، فيها زخارف نباتية تتألف من وردتين متقابلتين ، ويخرج منهما نصف مروحة نخيلية . وللزخارف بريق معدني في لون الذهب



الشكل ــ ٤٢

كأس محفوظة في متحف برلين ــ دالم . يغطيها طلاء معدني وهي مزينة بزخارف على صورة انصاف مراوح نخيلية ، وزخارف خطية تشبه الكتابة الكوفية . وهنا الزخارف ، قد رسمت فوق الطلاء بالوان ذات بريق معدني لا تكتسب هذه الخاصية الا بعد عملية تحريقها للمرة الثانية حيث يتحول اوكسيد المعدن الى معدن خالص . وهذا يعطينا فكرة عن ابتداء الاسلوب الاسلامي الذي تطور في العراق اثناء القرن التاسع الميلادي .

من روسيا : السمور الاسود وجلود الخز والثعالب السود والرقيق .

من بلاد ما وراء النهر : الورق والنوشادر والاوبار والسمور والسنجاب والثعالب والمسك .

من بلاد فارس : الادهان . الزيوت العطرية . نسيج الكتان والقطن والصوف والحرير . سبائك الفضة . الخفاف . السمور . الامشاط . البسط .

من الحبشة : العقيق والعاج والجلود المدبوغة .

من سواحل افريقيا الشرقية : العطور. الأطياب . خشب الابنوس . ريش النعام . الذهب والعاج والرقيق .

من ارمينيا : أحسن أصناف البسط والوسائد والمقاعد .

هذا عدا ما تنتجه بلاد الرافدين والشام ومصر والمغرب العربي والاندلس .

وكانت تجارة الرقيق جد رائجة في البلاد الاسلاميـــة . وله في كل مدينة كبيرة سوق خاصة تعرض فيهـا مختلف أنواعـه . فالرقيق الأسود كان يجلب من السودان ، والابيض كان يحمل من بلاد ما وراء النهر وأصله من الصقالبة أو من الخزر الاتراك ، كما يجلب أيضاً من الأندلس . ومنهم صنف كان يرد من خراسان غال جداً وربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار .

وأفضل الأنواع وأكثرها رواجا هم الصقالبـة يحملهم النخاسون الافرنج من شمالي اوروبا باعداد كبيرة . وسبب ذلك ان قبائل السلاف (روس صرب بوهيم دلمات وغيرهم) نزحوا من المناطق الشرقيـة في اوروبا نحو أواسطهـــا فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم فتكاثر الاسرى على الجانبين . وكانت العادة أن يباع الاسرى بيع الرقيق فأخذ التجار الافرنج يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمـان ويحملونهم إلى الأندلس حيث يشتريهم التجـار العرب

ويبيعونهم في مختلف أنحاء البلاد العربية . وبما أن معظم اولئك الارقاء هم من السلاف وكانت تلفظ عندهم سكلاف صار العرب يطلقون هذه الكلمة على الرقيق الأبيض اجمالاً . ولكنهم عربوها إلى صقلب ومنها صقلبي وصقالبة . وقد انتقل المعنى إلى اللغات الأجنبية فصار يعرف الرقيق عندهم باسم Slave او Esclave .

الموازين والمكاييل : تعددت الوحدات القياسية للوزن والمكيال في الدولة الاسلامية ، واختلفت اعيرتها ، رغم وحدتها بالاسم ، بين مختلف مناطق الدولة ، والعهود المتعاقبة .. واشهر الموازين التي استعملت في العصور الاسلامية هي :

الاوزان :

١ – الحبة : تساوي وزن حبتين من الشعير

٢ – القيراط : يساوي اربع حبات . (اي ثماني حبات شعير) والكلمة من اصل يوناني .

٣ – الدانق : يزن قيراطين ونصف . والكلمة من اصل فارسي

٤ – المثقال : يعادل ٨٦ حبة (١٧٢ حبة شعير) . وهو وزن الدينار الذهبي . والدينار يزن ١ $\frac{٧}{٣}$ درهماً . وكل درهم يزن ستة دوانيق

(وكل مثقالين يعادلان وزن الليرة (الجنيه) الانكليزية الذهب المستعملة اليوم)

٥ – الاوقية : كلمة يونانية الاصل . واختلفت زنتها باختلاف الاقطار

٦ – الرطل : ويعادل عدة اوقيات تختلف باختلاف الأقطار

٧ – المن ، يساوي رطلين

٨ ـ النواة : تزن ٢٠ اوقية ، (تستخدم في وزن عروض الذهب والفضة والمعادن الثمينة)

٩ ـ القنطار : اصل الكلمة يونانية وتدل على المائة . ويزن ١٠٠ رطل

١٠ ـ البهار : فارسية معوبة . تزن ٣٠٠ رطل أي ثلاثة قناطير (في المخصص لابن سيده ذكر للبهار بأنه ٤٠٠ أو ٦٠٠ رطل) .

ب ـ المكاييل :

١ ـ المدّ : يونانية الاصل ، واختلفت كميته .

٢ ـ الصاع : أربعة امداد

٣ ـ القفيز : ١٢ صاعاً

٤ ـ الوسق : خمسة اقفزة (جمع قفيز) ويعادل ٦٠ صاعاً وهو في الاصل ما يعادل حمل حمار .

٥ ـ الكرّ : ستة اوساق

٦ ـ الجريب ٤٠ قفيزاً

حـ ـ المقاييس

١ ـ الاصبع : تعادل البوصة الانكليزية وتساوي ٦ حبات شعير مرصوصة الواحدة وراء الأخرى بعرضها .

٢ ـ الشبر : يعادل الفرجة بين طرفي الابهام والخنصر ممتدين ليد رجل متوسط .

٣ ـ الذراع : ٢٤ اصبعاً

٤ ـ الباع : قامة رجل متوسط

٥ ـ الميل : ٤٠٠ ذراع

٦ ـ الفرسخ نفس طول الفرسخ الفارسي (حوالي ٣ أميال)
٧ ـ الجريب : وحدة لقياس المساحات

اشهر المراكز التجارية : ادى ازدهار التجارة الى نمو بعض المدن نمواً كبيراً وخاصة تلك التي كانت ذات موقع هام وعلى مفترق طرق رئيسية تضطر القوافل ان تمر بها وتستريح فيها . وقد اشتهرت قبل الاسلام بعض المراكز في شبه الجزيرة وهي أسواق حولية لم تكن للتجارة فحسب بل كان يقضى فيها كثير من الشئون الاجتماعية والسياسية كما كان يعرض فيها نتائج القرائح من شعر وخطب . أشهرها :

دومة الجندل وعمان وعدن وحضرموت وعكاظ وخيبر وبصرى ودرعا وغيرها ، هذا اذا استثنينا كبريات المدن كصنعاء والطائف ومكة والمدينة والبتراء وتدمر التي كانت ذات أهمية تجارية كبرى .

اما بعد الاسلام وخاصة بعد انتهاء الفتوحات فقد ازدهرت مدن اعتبرت مراكز عظيمة للتجار العرب الذين حملوا لواء التجارة العالمية في القرون الوسطى . منها **دمشق** عاصمة الامويين ومركز التقاء القوافل بين آسيا الصغرى وما بين النهرين ومصر وبلاد العرب . وكانت سوقاً تجارية هامة وخاصة زمن الامويين تتجمع فيها مختلف انواع السلع والبضائع وتوزع على مدن الساحل لتصدر عبر البحار او تنقل الى سائر انحاء البلاد العربية . وكانت **حلب** مركزاً هاماً بين خليج البصرة والبحر المتوسط ، وبين سوريا والعراق وآسيا الصغرى . وبقيت محافظة على مركزها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى لما جزأ الاجنبي البلاد العربية وفصلها عن بعضها بحواجز اقتصادية وسياسية منيعة لا يزال اثرهـا باقيا حتى الآن . اما **بغداد** فكانت اشهر مدينة عالمية وقلب الامبراطورية الاسلامية والسوق

التجارية فيها ونقطة مواصلات رئيسية للقوافل بين الأقسام الشرقية والغربية للعالم الاسلامي . اما **البصرة** فكانت اكبر ميناء عربي تتفرع منها طرق بحرية ونهرية وبرية الى مختلف انحاء العالم وخاصة الى الهند والصين وسواحل افريقيا الشرقية .

وفي مصر والاندلس والمغرب العربي وفارس مدن كثيرة كانت اسواقاً كبرى للتجارة مثل : القاهرة والاسكندرية وطرابلس والقيروان وسلجماسة وطليطلة وقرطبة وغرناطة وسيراف وبخارى وسمرقند .

أساليب التعامل التجاري : كانت العادة في تلك العصور ان يتجمع أصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد في حي أو عدد من الاحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقاً ولا تزال بقايا هذه العادة موجودة حتى الآن في كثير من المدن الشرقية والغربية .

وكانت تقام للتجار الاغراب خانات او فنادق . وهي ابنية واسعة لها صحن واسع اقيمت حوله اصطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوي غرفاً تتفتح على الفناء فقط وتتصل ببعضها عن طريق ممر دائري . وقد انشأ التجار في كل مركز تجاري هام نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش والتدليس . وكان رئيسها ينتخب من بين الاعضاء الممتازين ويسمى برئيس التجار كما كان يسمى اعضاء النقابة بالامناء .

اهتم الدين بالشروط التي تتحكم بالمبيعات معتبراً عقد البيع هو النموذج . ويجب أن يتوفر شرطان حتى يتم عقد البيع بصورة قانونية . اولها موافقة الطرفين والجهر بذلك (اما تدوينه كتابة فهو اختياري) . وتنتهي عملية البيع حين يتصافح المشتري والبائع باليد اليمنى متبادلين الايجاب والقبول (هل تشتري هذا مني ؟ اجل اشتريه) . اما الشرط الثاني

للعقد فهو ان يكون موضوعه شيئاً نافعاً . فالقانون يحرم بيع شي لا يستطيع الشخص تسليمه كطير طائر او اشياء غير نافعة أو غير طاهرة كالخنزير او النبيذ . ويتم البيع بتسليم البضاعة ودفع السعر وللمشتري حق الخيار.

وقد عرف نظام الرهون والودائع . وهما ضروريان في مجتمع يتغيب فيه التجار طويلا عن وطنهم . فالرهن يكفل للدائن دينه على تاجر سافر لايعرف عن اخباره شيئاً . اما نظام الودائع فهو تأمين للبضائع التي التي لا يستطيع التاجر أن يحملها معه أو لا يكون امينا عليها في مخزنه الخاص . والشخص الذي يحافظ عليها يقوم بعمل من اعمال التقوى سيثاب عليه في الحياة الاخرى . ويفضل ان يوجد شهود في كلتا الحالتين .

سادت بين قريش قبل الاسلام عادة التسليف بفائدة . وقد اعتادوا في حالة عدم دفع الدين وفائدته منح المدين مهلة ومضاعفة المبلغ وهو شرط قاس من شأنه ان يقضي على المدين من صغار التجار وعلى ذوي الاموال المحدودة . فلما جاء الاسلام حرم الربا ومنع الدائن ان يجني اي ربح من دينه . ويكون عمله عمل خير سيثاب عليه في الحياة المقبلة .

وكان استعمال الكمبيالة والسند (اي الحوالات او السفاتج) منتشرين في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه . ونستنتج من كثرة استعمال السفاتج (جمع سفتجة . وهي ان تعطي مالاً لرجل فيعطيك خطاً يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له في مكان آخر) على اتساع اعمال التجار .

اغتناء التجار : كانت التجارة مورد رزق واسع منذ القرن الثاني للهجرة وخاصة لاصحاب المواهب التجارية . ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من اهل البلاط . وتجاوزت ثروة بعض التجار الملايين من الدنانير . نضرب مثلا

على ذلك اثراء الحسن بن عبد الله الجصاص . وسببه أن قهرمانة مغفلة في قصر أحمد بن طولون اعطته عقد جوهر فيه مائة حبة كل حبة تساوي مائة الف دينار وطلبت منه أن يخرطها حتى تصغر لتجعل في آذان اللعب وفي قلائدها . فاستبدلها بأخرى صغيرة واحتفظ بالعقد الذي كان سبب اغتناء آل الجصاص . وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات صودر في عهد المقتدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة لأنه أخفى عنده عبد الله بن المعتز الذي كان يطلبه الخليفة . وقد صودر منه (١٦) مليون دينار وبقي له رغم ذلك شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع .

واستفاد تجار البصرة من موقع مدينتهم التجاري العظيم التي يقول فيها الجاحظ : « هي باب بغداد ومدخل دجلتها المتدفق بضروب والمتاع الأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا . اذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى ... » وتضخمت ثروة تجارها . ويذكر ابن الاثير أن شخصاً اسمه الشريف عمر كان دخله (٢٥٠٠ ٠٠٠) درهم في السنة . كما بلغت ثروة أحد أصحاب السفن (٢٠) مليون دينار . وكان آخر يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار فاذا اعتبرناها ربع عشر ماله كان دخله اربعة آلاف دينار في اليوم . وقد ذكر ابن حوقل خبر تاجر من البصرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى أقصى بـــلاد الهند والصين بلغ مايتحصل من ضرائبها (١٠٠٠٠٠) دينار في العام .

العلاقات مع الصين والهند :

جاء في كتب الرحالة والجغرافيين أمثال البلخي والاصطخري والمسعودي

وابن حوقل والمقدسي وابن بطوطـة قصص وحوادث كثيرة عن مغامرات التجار وتكبدهم المشاق والاخطار . وقد ظن الناس طويلا أن أخبـارهم هي وليدة الخيال الى ان جاءتنا مصادر صينية تشير الى كثير من الحوادث التي ذكرها الرحالة العرب . ومما جاء فيها خبر وفد أرسله المنصور الى امبراطور الصين سنة (٧٥٦ م) كما جاء ذكر سفن تجارية عربية كانت ترسو على شواطىء الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغير ذلك . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ماكانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم .

كما أن العلائق التجارية كانت متينة مع الهند . وكانت المهاداة بين العباسيين وملوك الهند متواصلة . وكانت الوفود تؤم بغداد وتقوي أواصر الصداقة بين الطرفين .

تجارة الاندلس وطرق مواصلاتها

كانت تجارة الاندلس أكثر ماتكون وثوقاً مع أوروبا والمغرب العربي بسبب موقعها وكونها صلة الوصل بين أوروبا وافريقيا العربية . كما أن الصلاة كانت قوية مع بلاد الامبراطورية الرومانية الشرقية لمتانة العلاقات بين قياصرة القسطنطينية والخلفاء الامويين في الاندلس للعداء المشترك بينهما ضد العباسيين .

ومما ساعد أيضاً على تقوية المبادلات التجارية ضعف الصناعة في اوروبا ورقيها في الاندلس .. وخاصة في النسيج والوشي والخزف وتكفيت المعادن والجلود . وكانت دول اوروبا تستوردها بكثرة من الاندلس . وقد سيطرت هذه اقتصادياً على كل شبه جزيرة اسبانيا . وظلت الممالك المسيحية الاسبانية

تستعمل النقود العربية طوال أربعة قرون تقريباً . ولبث ملوك قشتالة قرنين آخرين دون أن يسكوا عملة ذهبية باسمهم .

ظلت كثير من الاصطلاحات العربية التجارية في لغة الاسبان وبعض اللغات الاوربية . منها : فندق Fonda . تعريف Tariffa . الديوان (الجمرك) Aduana البرهان (مذكرة أو اشعار) Alboran . مخزن Almacén . عوار (خسارة) Averia . طاقة (محل صرف التذاكر) Toquilla . الرطل Arratel .

ولتنظيم شئون التجارة كان يتألف في كل مدينة كما هو الحال في سائر البلاد الاسلامية نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية كما كانت الدولة تعين مراقباً للاشراف على التجار والصناع .

وكان مثلها مثل المناطق الشرقية أيضاً فيما يتعلق بالفنادق أو الخانات وتجمع كل فئة من التجار بسوق خاصة بها .

ومن أهم صادرات الاندلس إلى البلاد المجاورة المنتجات التالية : الذهب والفضة والنحـــاس والحرير الخام والمصنوع والزئبق والحديد والزيتون والمصنوعات الصوفية والعنبر وحجر المغناطيس والاثمـــد والبلور والزيت والسكر والكبريت والزعفران والجلود واليـاقوت والجمشت (حجر كريم أزرق) المستخرج من مناجم مالقة وبيجا . وغير ذلك من الصناعات الفرعية الدقيقة التي تكلمنا عنها في الفصل السابق .

وكانت أهم وارداتها الرقيق الذي كان يأتي به تجار من الافرنج وقد فصلنا ذلك في بحث تجارة الصقالبة . وبقيت سجلات سوق الرقيق محفوظة في قرطبة وقد درسها احد العلماء فاستبان منها ان شراء العبد أو الجارية

لم يكن بالعملية البسيطة التي نتصورها بل كان من الواجبات أن تتم بحضور كاتب عقود . وكانت الأسباب التي يطلب من أجلها الرقيق تبين وتسجل في العقد .

. وأعظم المراكز التجارية في الاندلس كانت **قرطبة** التي كانت في القرن العاشر الميلادي أكثر المدن الاوربية حضارة ومثار اعجاب العالم . وكان الرحالة القادمون من الشمال يتسامعون بين الخشوع والرهبة بأخبار المدينة التي كان فيها سبعون داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور . ثم يأتي بعدها **اشبيلية** كمركز هام وخاصة بعد أن أفل نجم قرطبة في عهد ملوك الطوائف . ومن المرافىء الهامة المرية ودانية وطريفة .

طرق المواصلات في الاندلس : كانت قرطبة عقدة مواصلات برية هامة تتجه منها شبكة طرق واسعة بلغ عددها أربعة عشر طريقاً نحو مختلف أنحاء الأندلس : إلى سواحل المتوسط والاطلسي وجبال البرانس ومنها إلى فرنسا .

أما المواصلات البحرية فكانت تؤمن من مرافيء عديدة أهمها : ملقة وطريفة مع شمالي مراكش . ودانية والمرية مع السواحل الشرقية والشمالية وكانت المرية مركزاً رئيسياً لبناء السفن في الأندلس .

وكانت المواصلات النهرية ضعيفة لقلة الأنهار الصالحة للملاحة بسبب انحدارها وقلة مياهها صيفاً . هذا عدا نهر الوادي الكبير الذي كانت الملاحة فيه دائمة . وكانت اشبيلية أكبر ثغر عليه تؤمن المواصلات بين المناطق الداخلية والمحيط الاطلسي .

طرق المواصلات البرية والمائية

اشهر طرق الجزيرة قبل الاسلام :

١ ـ البريـة : لا بد لتلك التجارة الراقية المزدهرة التي تكلمنا عنها من شبكة كاملة للمواصلات البرية والمائية . إذ لا تجارة بدون مواصلات فهذه شرط ضروري أساسي لتلك . وكانت أشهر الطرق البرية المعروفة قبل الاسلام في شبه الجزيرة والهلال الخصيب هي : الطريق بين عدن وساحل الشام وكانت قوافل قريش تؤمن غالباً نقل البضائع ذهاباً واياباً برحلتيها في الصيف والشتاء . ويتفرع من هذا الطريق طريق آخر إلى مصر عبر سيناء . ثم ضعف شأن هذا الخط لما تحولت التجارة إلى الخليج العربي حيث كانت القوافل تمر بتدمر إلى ساحل الشام ثم حولها الفرس بعد ذلك إلى شمالي الجزيرة متجنبة البادية ومماشية الرافدين إلى سورية الشمالية ومنها إلى الساحل .

وثم طريق بري آخر هو الذي يتجه من حضرموت أو عمـان شمالاً إلى الدهناء فيقطعها ثم ينعطف غرباً إلى نجد ومنها إلى الحجاز فيسير شمالاً ماراً بمكـة والمدينة ومـدائن صالح إلى بطرا . ومنهـا يسير إلى الشام أو إلى مصر .

٢ ـ المائية : أما الطرق المائية فكانت عـبر الخليج العربي والبحر ومنها إلى سواحل أفريقيـا الشرقيـــة والهند وبالعكس . وقد ازدهرت المواصلات المائية بسبب الاخطار التي تتعرض لها القوافل عبر بوادي جزيرة العرب . وقد شعر المصريون القدماء بأهمية الطرق المائية ورخص تكاليفها

منذ عهد رعمسيس الثالث فصارت السفن ترسو في القصير على البحر الأحمر وتنقل البضائع منها براً إلى قفط على النيل . ثم لما تولى سيتي الأول العرش احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر أي بين قفط والقصير . إلا أن القناة اهملت بعده وبطلت الملاحة المصرية وصارت سفن سليمان وحيرام ملك صور ترسو في ايلة (العقبة) ومنها تسير القوافل إلى الشام ومصر .

طرق المواصلات بعد الاسلام :

١ ـ **البرية** : إلى جانب تلك الطرق البرية التي ذكرناها آنفاً والتي كانت مطروقة أيضاً بعد الاسلام ، احدثت طرق أخرى أوجبها اتساع رقعة الدولة العربية وازدياد المبادلات التجارية زيادة كبرى . وكانت أهم الطرق تلك التي تتجه من دمشق زمن الامويين ومن بغداد أيام العباسيين ، وهما عقدتا مواصلات هامة في تلك العصور .

كانت بغداد مرتبطة بالشام عن طريقين أحدهما يتجه نحو الفرات فحلب إلى انطاكية أو إلى الجنوب ماراً بدمشق وفلسطين فمصر . والثاني يصل بغداد بدمشق رأساً ثم يسير جنوباً إلى مصر . ومنها يتجه إلى طرابلس فالقيروان ماشيا الساحل ثم إلى بقية أنحاء المغرب العربي . وكان يتفرع من هذا الطريق طرق أخرى عديدة تسير نحو الداخل وبعضها يستمر حتى أفريقيا الاستوائية .

هذا نحو الغرب ، أما نحو الشرق فكان يمتد طريق يصل بغداد بالهند والصين عبر خراسان ماراً بكرمنشاه والري ونيسابور وطوس ومرو . ومن مرو يتفرع الطريق إلى فرعين رئيسيين أحدهما إلى بخارى وسمرقند فالصين وثانيهما إلى بلخ وكابل فالهند .

واقيمت على طول الطرق في العالم الاسلامي خانات للمسافرين ودوابهم

وبضائعهم . يرتاح فيها التجار ، ويتبادلون البضائع ، ويعقدون الصفقات ، فقد كان في كل خان رئيسي ، عند ملتقى الطرق ، مكان يسكن فيه « الكاتب بالعدل » لتحرير عقود البيع والايجار والقيام بتسجيل مايحتاجه التجار لضمان حقوقهم وواجباتهم ، كما فيه سماسرة يقومون بالوساطات بين البائع والشاري ، ومنادون يعلنون عن البضائع بأصوات مرتفعة لجلب نظر زوار الخان ، كما هو الحال في الاسواق التجارية تماماً ، يضاف إلى ذلك وجود مختصين بتسعير وتقييم البضائع المعروضة ، والتأكد من سلامتها منعاً للغش . وفي الخانات الواقعة على الثغور وأطراف البلاد ، او الموانىء البحرية وجد مترجمون ليسهلوا عملية التبادل التجاري بين العرب والوافدين من التجار الاجانب براً او بحراً او عن طريق الانهار الكبرى .

هذا إلى جانب وجود محلات لتأمين حاجات المسافرين ، وتأمين عربات النقل وخيول ودواب النقل (كالبرادعي والبيطار) ومطاعم وغرف المنامة لجميع هؤلاء .

٢ ـ **المائية** : وهي تنقسم الى قسمين بحرية ونهرية وكل منها متمم للآخر . وكانت البحار التي تمخر فيها مراكب العرب هي الاطلسي والمتوسط والاحمر وخليج البصرة والهندي وبحر العرب . أما الانهار فكان النيل ودجلة والفرات وهي قليلة كما يلاحظ بالنسبة الى اتساع الامبراطورية العربية وطول المواصلات البرية والبحرية .

فالمواصلات البحرية في الاطلسي كانت أهمها بين سواحل مراكش والبرتغال والاندلس وجزر الخالدات (قناريا) . أما البحر المتوسط فكانت أغلب المواصلات فيه هي بين شرقه وغربه وبالعكس . وكانت تقطعه السفن بمدة (٣٦) يوما بين المرية وسواحل الشام . وقيل إن الرشيد فكر

في قناة تصل بين المتوسط والاحمر (قناة السويس) إلا أنه عدل عن ذلك لخوفه أن يستفيد منها أعداؤه البيزنطيون فيهددوا الاراضي المقدسة .

أما في البحار الجنوبية والشرقية فكانت السفن تقطع البحر الاحمر من العقبة أو من سواحل مصر الى اليمن ثم تجتاز مضيق باب المندب الى المحيط الهندي . كما تتجه المراكب موازية لها في الخليج العربي منطلقة من البصرة وسيراف وعمان وهرمز الى المحيط الهندي . ومن ثم تتابع السفن سيرها من هذين الطريقين اما الى سواحل افريقيا الشرقية أو الى الهند فشبه جزيرة ملقا (الملايو) مارة من سرنديب ومنها الى الصين .

أما الملاحة النهرية فقد كان للنيل أهمية كبرى إذ انه يصل المتوسط بالاحمر وقد مر معنا كيف أن سيتي الاول احتفر قناة بين قفط والقصير إلا أنها أهملت من بعده . ولكن المواصلات بقيت مستمرة في العهد الاسلامي وكانت القوافل تؤمن نقل البضائع بين النيل والبحر . أما دجلة والفرات فالمواصلات فيها كانت قوية والمراكب لاينقطع سيرها فيهما وخاصة بين بغداد والبحر . وقد حفر العباسيون قناة وصلت دجلة بالفرات عند بغداد . وكما كان النيل يؤمن المواصلات المائية بين البحرين الاحمر والمتوسط كذلك كان الفرات يؤمن المواصلات بين خليج البصرة والمتوسط . وذلك أن السفن الآتية الى البصرة تنقل بضائعها عبر الفرات شمالاً حتى الرقة أو قرب بلدة مسكنة الحالية ومنها تنقل البضائع براً الى ساحل البحر المتوسط.

وفي كتب الرحالة والجغرافيين العرب يوجد أمتع القصص وأغرب الابحاث وأدقها عن الرحلات البحرية مع وصف مسهب للمناطق التي زاروها والاخطار التي تعرضوا لها وأنواع السلع التي كانت تنقل من منطقة الى أخرى .

الفصل السابع عشر

الفنون

١ - ميزات الفن العربي الاسلامي

الفن الاسلامي : هل للاسلام فن ؟ اوليس الاسلام ديناً ؟ والفن فناً ؟ فما علاقة هذا بذاك ؟ ...

ان الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن . فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال ... وكلاهما ثورة على آلية الحياة .

والفن الاسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الاسلام . فليس هو الوعظ والارشاد ، وانما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الاسلامي لهذا الوجود ... هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والانسان من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان . هو الفن الذي يهيء اللقاء الكامل بين « الجمال » و « الحق » ، فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال ، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود [١] اذن ماذا نعني بالفن الاسلامي ؟ هل هو فن عربي ؟ ام فن اسلامي ؟ الم يكن في الوطن العربي في عصوره القديمة فنون مميزة ؟ اليست فنون ما بين النهرين ووادي النيل وبلاد الشام

---

(١) من مقدمة كتاب منهج الفن الاسلامي لمحمد قطب .

واليمن من ارقى انواع الفنون القديمة وأكثرها ديمومة وحيوية ؟ وعدلها الاسلام وادخل عليها تطورات جديدة ؟ اليس من المنطق ان تكون فنوناً عربية اسلامية ، فيها اصالة الفن العربي وذوق وروح الاسلام ؟ ولكن ، هل اكتفى الاسلام في الانتشار فوق ربوع الوطن العربي الكبير ؟ أم رفرف بجناحيه بعيداً ، في شرق وغرب ، وشمال وجنوب ، فدخل في حوزته فرس وهنود وصينيون وترك وصغد ، ومغاربة وزنوج ، وقوط وفاندال وغيرهم ؟ او لم ينضو تحت لواء « حكومة الاسلام » مسلمون وغير مسلمين ، عاشوا في ظل دولة واحدة ؟ ألم يكن لهؤلاء جميعاً في امصارهم المتباعدة تقاليد فنية وتأثرت بالعرب والمسلمين واستمرت هذه التقاليد خلال العهود الاسلامية المختلفة ؟

الواقع ، ان الفن الاسلامي يعني جميع الجهود التي بذلها العالم الاسلامي خلال عشرة قرون على الاقل في التعبير عن الجمال وصنع الاشياء الفنية . والفن الاسلامي أوسع الفنون العالمية انتشاراً على الاطلاق إذ تمتد آثاره من خليج البنغال في الهند حتى ايبريا . كما أنه أطول فنون العالم عمراً باستثناء الفن الصيني فقد ولد في القرن السابع الميلادي (الاول الهجري) وبلغ عنفوانه الفني في القرنين الثالث عشر والرابع عشر (٧ – ٨ هجري) ثم هرم منذ القرن الثامن عشر (١٢ هـ) وهو الى جانب هذا وذاك ، آخر فنون العالم ظهوراً قبل ظهور الفنون الغربية الحديثة منذ عصر النهضة الاوربية ؛ وأخيراً فالفن الاسلامي ذو شخصية قائمة بذاتها ، ذات تاريخ خاص وميزات معينة واضحة . وقد اعطاه الاسلام طابعه الخاص ، اعطاه – كما يقول جورج مارسه – :

« وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على اصولها . وقد كفى هذا الفن أن يمر عليه مائة عام من الزمان لكي يتوسع في أعمال لم يعد بالامكان نسبتها

للفنون القديمة التي أغنته . وعبر القرون كان يبتعـــد أكثر فأكثر عن المؤثرات التي أحاطت بقدمه إلى العالم . ففي القرن التاسع الميلادي كان يمكن بسهولة اعتبار تاج عمود في مسجد دمشق أو القاهرة بلطف سلته وأوراق الاكانتوس التي تغلفه مستوحى من الطراز الكلاسيكي الكورنثي . وفي القرن الحادي عشر الميلادي يصبح تحديـد هوية الأصل نوعاً ما أكثر صعوبة ».

كما يمتاز هذا الفن الاسلامي بتنوعـه العظيم ، تنـوع أصاب نواحيـه وأشكاله وجماعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله . تنوع بلغ من الشدة حـداً يصعب فيه كثيراً أن نجد فيه تحفتين متماثلتين . ومع ذلك فانه يمتـــاز بوحدته . فلو أنك عرضت على أي شخص – كما يقول ديماندر – تقتصر معرفته بالفنون على المبـادىء العامة والبسيطـة ، صوراً متنوعـة ، لتحف مصنوعة في العصور الاسلامية ، منها مثلاً صورة لقطعة من العاج الاندلسي واخرى لقطعة من النسيج المصري وثالثة من الزجاج الدمشقي ، فلا شك أنه يشعر بوحدة أساليبها ، ولا يتردد في الحكم بانتمائها جميعاً الى الفـن الاسلامي .

تطور الفن العربي – الاسلامي : بدأ الفن الاسلامي ، مـع بـدء الدعوة ، فقد لفت القرآن الكريم الانظـار إلى ناحيتي الجمال والزينة في المخلوقات إلى جانب مالها من النفع فقال تعالى : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ... » (سورة النحل) وأشار القرآن الكريم إلى الوسيلة التي توصل الانسان المؤمن إلى تهذيب الخلق حتى يصل إلى حب الخير ، وتهذيب الذوق حتى يصل إلى حب الجمال ، فاقسم ببعض المظاهر

الطبيعية لندرك ما فيها من أسرار الجمال الفني ، من تكوين محكم وتنسيق بديع وألوان رائعة ، وتناسب ، وتقابل ، وتكرار ، وظلال وأضواء – كما يقول د . محمد عبد العزيز رزوق – دون أن يحرم القرآن على اتباعه متع الحياة المشروعة : « يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (سورة الاعراف) .

وبنى النبي عليه السلام مسجد المدينة ، واتخذ المسلمون المساجد في كل بلد انتشر فيه الاسلام . ولئن نشأ فن عمارة المساجد تلبية لحاجة دينية فارتبط المسجد بالدين ، كما ارتبطت المعابد في دنيا العالم بالعقائد الدينية، فان الفن الاسلامي مالبث أن ارتبط كثيراً أو قليلاً بالحاكم أو حاشيته المباشرة وبالطبقة الغنية . فالعمار شيد المساجد والقصور ، من أجل الخليفة أو الأمير ، وكذلك فعل عند بناء المدارس والأضرحة ، ونقش النقاشون الرخام وصور الرسامون المخطوطات المستمدة من النباتات أو الأشكال الهندسية ، وحاك العمال البسط والسجاد ، وصنع الفنانون مختلف الأثاث وأدوات الاستعمال الفنية ، فكانت المنشآت المعمارية وصناعة الرياش والحلي وأدوات الزينة تزدهر تبعاً لحالة السلم الذي تتمتع به البلاد وتبعاً لغزارة الموارد التي تغذي بيت المال يتداولها التجار والحكام وذوي الثروة والجاه. وقد امتد مجال الفن الاسلامي حيث انتشر الاسلام ، على شريط عريض يمتد من شرق الارض الى مغربها ، من خليج البنغال وتخوم الصين الى اقصى المغرب وعبر أوربا الى الاندلس وجنوب غرب فرنسا ، وتوغل في القارة الافريقية وماوراء النهر وبخارى وتركستان، فجمع العالم المتمدن في العصور

الوسطى ، ومزج بين تقاليد شعوب العالم القديم والوسيط - عدا اوربا - .. ولكي نفهم تطور الفن الاسلامي لابد أن نربطه بالخطوط العريضة لتاريخ العرب المسلمين .

ففي زمن بني أمية بدأ ظهور الفن الذي يمكن ان نسميه الفن العربي الاسلامي . ولم يكن في مطلع أمره بسيطاً ، كما قد يخيل إلينا . لأن العرب بدأوا باقتباس الفنون التي سبقتهم لانعدام التقاليد الفنية لديهم ، كما هو الحال لدى جميع الأمم . فاقتبس الأمويون الفنون البيزنطية التي وجدوها في سورية والشرق الادنى وأوجدوا منها طرازاً فنياً خاصاً ، هو مرحلة انتقال بين الفنون البيزنطية والطراز العباسي . وقد نقل ولاتهم وقوادهم أساليب ذلك الطراز إلى سائر الأقاليم الاسلامية على يد الصناع الذين كانوا يستقدمونهم من الشام ومصر ، وقد حدث أن بقي ملك بني أمية في المغرب بعد زواله في المشرق ، فبقي الطراز الأموي قائماً وتطور ليظهر منه طراز أموي غربي يشمل أجمل آثار الأندلس .

ولما آل الحكم للعباسيين (منذ سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م) وانتقل مركز الخلافة الى العراق تأثرت جميع نواحي الحياة والدولة بالتقاليد الساسانية ومن ذلك الفن أيضاً الذي اتخذ اتجاهاً جديداً واضح التأثر بالأساليب الفنية الفارسية ، فلم يعد فناً عربياً اسلامياً بل غلبت عليه صفة الفن الاسلامي وبلغ هذا الفن أوج عظمته في سامراء (القرن الثالث هـ) . ونجح العباسيون كالأمويين في فرض اساليبه على الامبراطورية الاسلامية كلها وأصابوا في ذلك توفيقاً لا يعدله إلا توفيق الاسكندر وخلفائه في نشر الأساليب الهيلينية في الشرق الأدنى والاوسط .

وما انحطت السلطة المركزية العباسية (أول القرن الثالث هـ) حتى

انحط معها الفن الاسلامي الموحد . ومع نشوء السلطات المحلية المستقلة في الأقاليم الاسلامية ، بدأ نشوء أساليب محلية مستقلة في الفن : وهكذا حاول الطولونيون بعث طراز إسلامي خاص بهم في مصر ، فنقلوا من العراق كثيراً من التحف الفنية التي مهدت لانتاج محلي مقتبس مما وجد في بغداد مع تعديل مازال ينمو ويظهر حتى جاء الفاطميون ، فبعث خلفاؤهم وامراؤهم واغنياء الشعب في مصر روح فن جديد فيه ترف عظيم ،ووصل الفنانون المصريون الى طراز فني مستقل ،غني بالرونق والجمال ، وفق رجاله في صدق التعبير عن الحالة النفسية ، وفي دقة تصوير الحركة بدرجة لم يبلغها الفنانون في مصر قبلهم ، فكان عصر ثورة ملموسة في الفن ، تتمثل فيما خلفه هذا العصر من تحف خزفية مزينة بزخارف مرسومة بالبريق المعدني او محفورة تحت الطلاء الزجاجي ، او تحف زجاجية ومعدنية جميلة الصنع دقيقة الزخرفة ، وما خلفه هذا العصر ايضاً من اخشاب مزخرفة محفورة زينت القصور والمساجد ، واقمشة من الكتان والحرير والصوف موشاة بكتابات تاريخية هامة وزخارف عربية نباتية وهندسية .

فلما كان عصر الايوبيين والمماليك الذي ظهر في مصر والشام ، وازدادت ثروة البلاد ، ومال امراء المماليك الى حياة الترف ، وملء القصور بالاثاث النفيس واسباب الراحة والتنعيم والتسابق ببناء القصور والمساجد والمدارس والاضرحة ، واقتناء كل ما هو جميل ونادر فتحسنت صناعة التحف النحاسية المكفتة بالذهب والفضة ، والمشاكاوات من الزجاج المموه بالمينا ، وانواع الخزف والفخار المطلي بالمينا ايضاً والاخشاب المطعمة بالعاج والابنوس ، والمشربيات وغيرهما من الصناعات الفنية التي تشهد بطابع فني محلي يمثل هذا العصر ، ويدل على ذوق رفيع ، ومهارة يد ظاهرة .

أما في العراق والشرق الايراني فقد قام على انقاض الطراز العباسي طراز جديد هو الطراز السلجوقي الذي اتيح له السيطرة في عهد السلاجقة بالقرن الخامس على القسم الشرقي من العالم الاسلامي . ثم قامت في ايران ، من بعده ، وبعد تمزق الامبراطورية السلجوقية الى دويلات ، اساليب قومية ايرانية اولها الطراز المغولي الذي ازدهر منذ وطد المغول حكمهم هناك في القرن السابع الهجري حتى سقط خلفاء تيمور وقامت الدولة الصفوية (في مطلع القرن التاسع) فازدهر الطراز الصفوي وسيطر حتى بداية القرن الثاني عشر الهجري . ثم فقد تألقه مع سيطرة الفنون الاوروبية .

ويمكن اخيراً ان نضيف ان الفن الاسلامي غزا الهند منذ القرن العاشر الهجري ؛ ولكنه كان متأثراً بالطراز الايراني . كما ان العثمانيين اوجدوا منذ القرنين التاسع والعاشر طرازاً تركياً تأثر بالاسلوب البيزنطي أولاً وبالاساليب العربية كما تأثر في القرون الاخيرة بالطرز الفنية الاوروبية .

عصور الفن الاسلامي :

قلنا إن لازدهار الفن العربي الاسلامي علاقة واضحة بالاستقرار السياسي وبميول الحكام الشخصية ، وإن بامكاننا أن ننسب الطرز الفنية إلى الدول الحاكمة ، ولهذا رأينا أن نعتمد لحد كبير على التقسيمات السياسية في التاريخ الاسلامي ، في تحديد عصور الحياة الفنية . على أن نتذكر أنه إذا كان من الممكن معرفة التاريخ الذي بدأ فيه حكم الأسرة الحاكمة أو زوالها فاننا لا نستطيع أن نعرف بالدقة أو بالتحديد نفسه تاريخ قيام أي طراز فني أو زواله . لأن الطرز تتطور تدريجياً ويأخذ بعضها من بعض وتستمر بعد زوال أصحابها . وعلى هذا الاساس يمكن تقسيم الحياة الفنية في الاسلام إلى العصور التالية :

١ - عصر العالم الاسلامي الموحد : ويمتد من اواسط القرن السابع الميلادي حتى نهاية القرن التاسع الميلادي ، أي فترة الفتح وانتشار الاسلام في العالم القديم . ومن العاصمتين دمشق ثم بغداد وأخيراً سامراء تألق الفن العربي الاسلامي الوليد ، ولم يكن هذا الفن جديداً جدة واضحة لأنه لم يكن قد تكشف بعد عن شخصيته المستقلة ، حتى لقد يعده بعض الكتاب ازدهاراً متأخراً لعبقرية شعوب الشرق العربي القديمة وأطراف الجزيرة وشعوب البلاد التي ضمت إلى الدولة العربية .

في هذا العصر ، استطاع الاسلام وهو خلو من أي تقليد فني ، أن يتوضع في بقعة من اقدم البقاع المتحضرة ويستفيد في وقت واحد من عالم البحر المتوسط والعالم الآسيوي ، فمنحه عالم البحر الأبيض المتوسط الفن الهلينستي ، والعالم الآسيوي الفن الايراني ، فتأثر بهذين الطرازين اللذين تعاقبا أو تزاحما أو اشتركا في طابعهما على آثار العصر الأموي والعصر العباسي الأول ولكن التأثير الايراني لا يظهر إلا حين ينتقل مركز الحكم إلى العراق ويحل خلفاء بني العباس في بغداد وسامراء محل ملوك الساسانيين في المدائن ، إذا ذاك يظهر استعمال الآجر في تركيب الجدران والكوى ، ويظهر استعمال الجص وغيره في نقشها وزخرفتها ويظهر « الايوان » هذا في نفس الوقت الذي تحتفظ فيه سامراء مثلاً بزخارف هيلينية !

ومعظم الذين قاموا بهذه الأعمال الفنية الأولى في الاسلام كانوا بالطبع من سكان البلاد الأصليين : من السوريين والعراقيين والقبط والبربر ، وهم من العرب وغير العرب وقد وضعوا الأسس الأولى للفن العربي - الإسلامي وحددوا أهم ميزاته الباقية .

٢ - عصر الخلافات الثلاث : وتمتد بين القرن العاشر حتى أواسط القرن الثاني عشر الميلادي : وفي هذه الفترة التي امتدت كالسابقة ، قرنين ونصف

القرن تفككت الامبراطورية العربية بوضوح وظهر فيها ثلاثة مراكز كبرى : الخلافة العباسية في بغداد والشرق . والخلافة الفاطمية في الوسط ، وتحكم من القاهرة ما بين ليبيا إلى الشام . والخلافة الأموية في الغرب (الأندلس) . وقد خرج الفن الاسلامي برعاية هــذه الخلافات الثلاث من عصر التقليد والتلمس وبدأ يتميز بشخصية متشابهة الملامح في مراكزه المختلفة ؛ بغداد والقاهرة وقرطبة ، في الوقت الذي كانت فيه التأثيرات المحلية تظهر أيضاً وتفرض نفسها وتميز بين الأساليب في الشرق والغرب . وهكذا استطاعت وحدة العقيدة ، والحاجات الدينية والأسس الفكرية والمصالح الاقتصادية الواسعة وحرية الانتقال والتبادل التي وحــدت العالم الاسلامي أن تؤثر بدورهــا على الحياة الفنيــة وتحفظ لها الطابــع الاسلامي الخاص ، سواء كان الاثر العربي هو الغالب ، أم الأثر الأعجمي الاسلامي . ولكنها سمحت مع ذلك للمراكز المختلفة من الشرق والوسط والغرب أن تحتفظ بإبداعها الخاص . ومقارنة سريعة بين المسجد الأكبر السلجوقي في أصفهان ، ومسجد الحاكم الفاطمي في القاهرة ومسجد قرطبة في الأندلس ، ترينا بوضوح الطوابــع المحلية الخاصة . وهكذا ظهر الفن السلجوقي في الشرق ، والفن الفاطمي في مصر والشام ، والفن الأندلسي – المغربي في أقصى المغرب .

وفي هـذه الفترة ظهرت بعض العناصر الزخرفيـة في الفن الاسلامي كالمقرنصات ، والنقش البارز بالعناصر النباتيــة المحورة وغيرهــا . ومن المدهش أنها انتشرت بسرعة وظهرت في أوقات متقاربة في مراكز جد متباعدة من العالم الاسلامي ، بل إنا لنرى فوق هذا أن فنون المسلمين في هذه الفترة قد تجاوزت المملكة الاسلامية إلى الغرب على أيدي الصليبيين ونجد آثارها في ما بقي من فنون العصور الوسطى الغربية ، كما أن الاماكن

التي جلا عنها الاسلام إذ ذاك ظلت في عهد حكامها الجدد تشع بالفن الاسلامي ، كصقلية مثلاً في عهد النورمانديين .

٣ - عصر ما بعد الخلافات : ويمتد ثلاثة قرون أيضاً (منذ نهاية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر-م) انهارت منذ مطلعها الخلافات الثلاث وحل محلها حكومات الأتابكة والمماليك المغتصبين الذي تعرض العالم الاسلامي في عهدهم إلى أخطار خارجية هائلة : ففي الشرق غزوات المغول (جنكيز خان) ثم التتر (تيمور) عدا الخطر الصليبي الفرنجي ، وفي الغرب كان الحكم العربي يخسر الاندلس قطعة قطعة . ومع هذا فإن تقسيم العالم الاسلامي إلى دول صغرى وتعدد مراكز الحكم فيه شجع الفنون على نطاق ضيق . والأخطار الخارجية زادت في الحماس الديني وخلقت فيه التصوف وانعكس ذلك بشكل مساجد ومدارس وأربطة وأوقاف كثيرة ملأت البلاد الاسلامية ، ولكن مجال الابداع في ذلك كله كان محدوداً . بمعنى أن العصر الذهبي قد انتهى وانطوى العالم الاسلامي على نفسه يتغذى من ذاته فلم يتصل بفنون الغرب التي كانت بدأت عصر النهضة إذ ذاك ، ودفع ذلك انحطاطاً وجموداً متصلاً في كل تقاليده الفنية .

في هذه الفترة ازدادت المدارس الفنية الاسلامية تميزاً رغم تشابهها ، وبدأ كل قطر يخلق أشكاله الفنية الخاصة ، ومعظمها من الأبنية ، واضعاً في مخططها وألوانها وهندستها وزخرفتها شخصيته المحلية المستقلة ، فبنى الفرس الجوامع ذات الباحات الواسعة والأواوين المزينة بالمقرنصات ، والمآذن المتعددة . والقباب البصلية الشكل المزينة الظاهر . وأما في الشام ومصر فكانت أحجام الأبنية أقل ضخامة ، والالوان أقل وضوحاً والقباب أكثر

استدارة والمآذن ذات شرفات . وأما في الاندلس والمغرب فكانت مخططات الأبنية بسيطة والأبراج مربعة والسقوف محدبة والزخرفة واضحة تغشى كل شيء .

على أنا مع هذا نجد كثيراً من الملامح المتشابهة في فنون البلاد المختلفة بسبب هجرة الفنانين وتنقل الناس ونقل فكرة المؤسسات المختلفة من قطر إلى قطر : كالمدارس مثلاً التي انتشر بناؤها من بغداد وسمرقند إلى غرناطة وفاس على نمط واحد من الهندسة .

٤ - الفن المغربي - الاندلسي : ولعل من المفيد ان نفرد لهاتين المنطقتين الاسلاميتين فقرة تشرح اساليبها الفنية المتشابهة والتي يتم بعضها بعضاً ... واذا كان الفن الاسلامي بمجموعه يتميز بانه فن يجمع بين الفن العربي الاصيل وبين فن كل قطر انتشر فيه الاسلام او ضمه الحكم العربي ، فإن هذه الميزة ايضاً تظهر في المغرب والاندلس بتمازج الفنين الشرقي والبربري .

والبربر قبل الإسلام اتبعوا اساليب معمارية تتلاءم مع طبيعة بلادهم الجبلية ، فاتخذوا « التغرمت » اي الدار المحصنة وتتألف من بناء مربع تقوم في أركانه الأربعة أبراج ولسورها مدخل واحد . كما اتخذوا « الايغرم » أي المخازن المحصنة وهي عبارة عن أجنحة منفصلة تنفتح على ساحة داخلية ، وتقع في أعالي الجبال ، في نقط استراتيجية ، تتخذ مستودعاً للخزن وقلعة يلجأ إليها سكان المناطق المجاورة عند الخطر . واتخذوا أيضاً « الاجدير » وهي دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدي إلى ساحة مركزية فيها عدة طبقات من الغرف ، وصاروا بعد الاسلام يضيفون إليها مسجداً ، وتتخذ لحفظ المؤن كما تحوي صهاريج خاصة لحفظ المياه ..

والأبواب البربرية تصنع عادة من أخشاب مسمرة في إطار فوق عوارض عمودية ، تنقش عليها رسوم بدائية وتتوسطها مطرقة من حديد على أنماط شتى .

وأول من ادخل الفن الاسلامي إلى أفريقيا هم الأغالبة ، ووضعوا اسس الفن الجديد في القيروان حين جددوا مسجد عقبة بن نافع على نمط مساجد دمشق والقاهرة ثم بدأ الاقتباس في مدينة فاس ... ولما جاء المرابطون والموحدون ، ومن بعدهم بنو مرين وبنو زيان (في تلمسان) والحفصيون (في تونس) زادوا في اغناء الفن المغربي الاندلسي ، وتميزه بالنقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه والرمر المفصص وترصيع المنارات بالزليج[1] .

٥ - العصر العثماني الايراني : ويبدأ منذ القرن السادس عشر ونستطيع أن نسجل انتهاءه مع نهاية القرن الثامن عشر وقد عاد إلى العالم الاسلامي الشرقي والأوسط خلال هذه القرون نوع من الوحدة بظهور الامبراطورية العثمانية على البحر الأبيض المتوسط وشاهات الصفويين في إيران .

وقد نشر العثمانيون في البلاد التي حكموها نوعاً خاصاً من الأبنية الدينية ذات قباب كبيرة مفلطحة ومآذن رشيقة نرى أجمل آثارها في عاصمتهم (اسلام بول) ونرى منها في البلقان والشام أيضاً .

---

(١) الزليج نوع من الترصيع الخزفي ، اصله من الاندلس ، يشبه الفسيفساء ويعرف بالمفضض . والترصيع هو التكفيت وتعرف في بعض البلدان باسم التلبيس والترسيب والتنزيل واطلق عليها في مشرق العالم الاسلامي في العصر العباسي : التطبيق . وقد دخل الترصيع بلاد المغرب عن طريق سورية ، ولا يزال يسمى هذا الفن في اسبانيا واوربا باسم الفن الدمشقي ولا يزال يقلد في صنع الاواني والحلي .

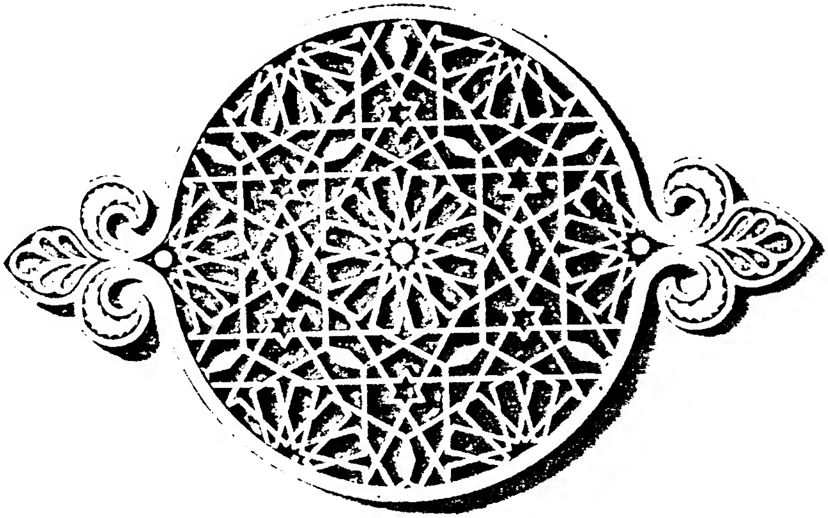
أما ايران فقد حافظت على كثير من تقاليدها الفنية : وترينا أصفهان في عهد الشاه عباس الكبير في مخططها العام وابنيتها الدينية نموذجاً فريداً من مدن الاسلام . وقد استطاع الطراز الايراني أن يغزو الهند ويخرج فيها التحفة الفنية المشهورة : تاج محل في آكرا . ويضاف إلى هذا أن ايران عرفت رسم الكائنات الحية وسجات فيها وفي الزخرفة تقدماً هو الوحيد من نوعه في الاسلام .

ميزات الفن العربي الاسلامي :

تختلف ميزات الفن العربي الاسلامي باختلاف نوع الفن والعصر والمكان . ومع ذلك فيمكن أن نرى فيها صفات مشتركة عامة :

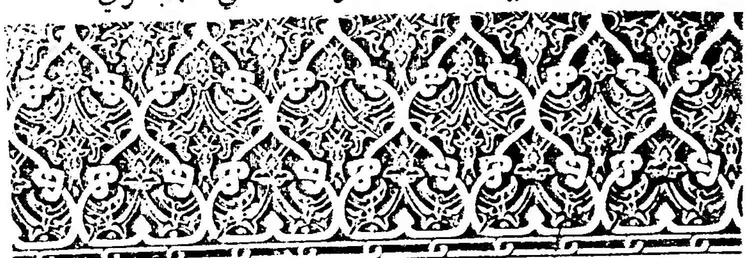
١ ـ إنه ذو شخصية واحدة رغم تعدد مراكزه وتباعد أقطاره وظهور التأثيرات المحلية فيه وقد حاول الباحثون تعليل هذه الوحدة في الفن العربي الاسلامي بأنها ترجع أولاً لتأثير العامل الجغرافي المتشابهة في مختلف الاقطار الاسلامية منذ إيران إلى مراكش ، فهناك دوماً مناطق جبلية من حولها سهول وصحارى ، ومناخها جميعاً معتدل وأكثر ميلاً للجفاف ، كما أن نوع الحياة الحضرية والزراعية واحد . وترجع الوحدة ثانياً لتأثير العامل التاريخي فمجموع العناصر التي كانت تشكل القاعدة البشرية في الشام ومصر والعراق هي من بقايا العرب القدماء وكانت على صلة بشعوب آسيا وأفريقيا التي انطوت تحت لواء الدولة الجديدة التي جاءها الاسلام ، فوحّد الناس فيها في لغة واحدة ودين واحد وحكم متشابه الأسس . ومن هذا وذلك مشت الأساليب الفنية متشابهة في كل مكان .

٢ ـ إنه فن ديني بمعنى أنه تأثر بروح الاسلام وانصبت أنواعه المختلفة على المواضيع الدينية في الدرجة الأولى : من بناء للمساجد والمدارس



شكل ـ ٤٣ ـ

زخرفة موجودة في واجهة مسجد شمس الدين صنقر في القاهرة صنعت عام ٧١٥ هـ . وتعد نموذجا من الزخرفة الاسلامية في مصر في أوائل القرن الثاني الهجري



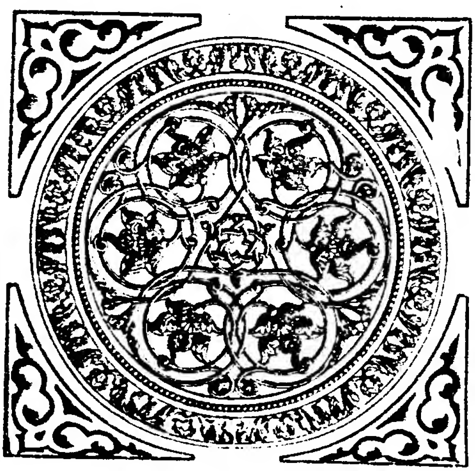
شكل ـ ٤٤ ـ

زخرفة موجودة الان في المسجد الذي بناه خاير بك احد امراء المماليك في عهد السلطان الغوري اول حاكم من المماليك عينه العثمانيون بعد فتح مصر، والمسجد في القاهرة، بني عام ٩٠٨ هـ وفي الزخرفة اسلوب التوشيح العربي . ويعني التوشيح تكرار عنصرين زخرفيين او اكثر متشابكين تشابكا هندسيا ، متماثلا او منتظما ، تتباين فيهما الحركة تباينا توقيعيا (انظر دائرة المعارف الاسلامية . مقال آرابسك)



شكل ـ ٤٥ ـ

جزء من كتابة كوفية مزخرفة معقودة على هيئة قنديل ، من الطراز الايوبي . موجودة على ضريح في القاهرة اقيم في القرن السابع الهجري وينص هذا الجزء على كلمة : خالـدين



شكل ـ ٤٦ ـ

نموذج لزخارف اسلامية نباتية موجودة في مسجد الامير سيف الدين صغرتمش المملوكي في القاهرة صنعت عام ٧٥٧ هـ

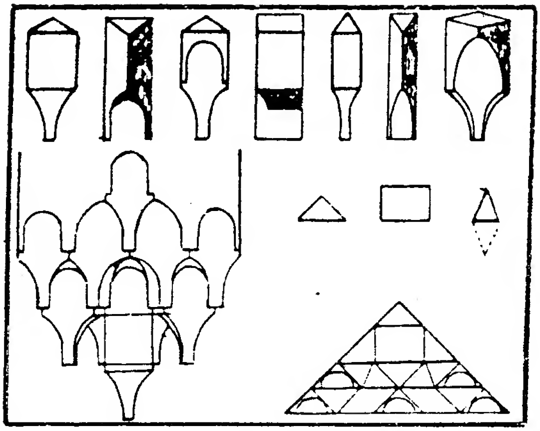
والتكايا ومن زخرفة بالآيات القرآنية ، وكثيراً ما كان الباعث على الأعمال الفنية باعثاً دينياً . ويكفي أن نستعرض الآثار الاسلامية من الكؤوس والمصابيح والأباريق في المتاحف إلى الأبنية الضخمة لنرى الدور الكبير الذي قام به الدين في الانتاج الفني .

٣ – إنه فن كثير الزخرفة : وملء القطعة الفنية بالزخارف عنصر رئيسي في الفن الاسلامي . نجد ذلك على الجدران والمنابر والسقوف كما نجده في المنسوجات والبسط والزجاجيات ، وفي التوابيت والشواهد وجلود الكتب . وقد اعتمد العرب على عنصرين اثنين في الزخرفة : الأشكال الهندسية التي برعوا فيها براعـــة مدهشة اقتبسها عنهم الغربيون من مضلعات مختلفة وأشكال نجمية متداخلة ودوائر مزجت خطوطها بالكتابة .. الخ . والأشكال النباتية التي تفننوا في تصويرها ولكن على طريقة التكرار كما في القاشاني والسجاد . ولم ترسم الأزهار مع ذلك بشكلها الطبيعي إلا في فارس وسورية . أما في غيرها ، ولا سيما في العصر الفاطمي فقد كان النبات والحيوان معه يحوّر إلى شكل زخرفي خالص .

واستخدم العرب الخط العربي ، بأنواعه المختلفة في التزيين ، وتفننوا في اختيار الآيات والحكم والاشعار للزخرفة بها ، ومن العبارات التي اشتهرت بها الزخرفة الاندلسية : « ولاغالب إلا الله » .

وبلغ الشغف بالتزيين في البلاد العربية والاسلامية أن غشيت أعالي المداخل والابواب والاواوين في الابنية بأشكال هندسية صغيرة متدلية عرفت بالمقرنصات .

٤ – إن الفن الاسلامي أهمل رسم الأشكال الانسانية والحيوانية وخاصة في أماكن العبادة . وليس معنى ذلك أن المسلمين لم يعرفوها



شكل – ٤٧ –

يرى الفنيون المعماريون ان المقرنصات الاسلامية تتالف من سبعة عناصر تشاهد في اعلى الشكل ومن اضافات تشاهد في الوسط ومن تنسيقها مع بعضها يحصل المعماري الفنان على المقرنصات البديعة الصنع التي تاثرت بها العمائر الاسلامية

إطلاقاً فقد أثبتت رسوم « قصر الحير » وتماثيله (وهي في متحف دمشق) وأشعار بعض الشعراء أن رسم الانسان والحيوان كان معروفاً ، ولكن أتقياء المسلمين كرهوا ما حاربه الرسول وكرهه أيام حارب الأصنام والشرك ، فبقي هذا العنصر الفني ضعيفاً مهملاً . واحتال بعض الفنانين على الأشكال الحيوانية فحوّرها حتى صارت أشبه بالزخرفة كما في صحن وجد في سامراء وعليه رسم نسر يظهر وكأنه ورقة مسننة مغطاة بالزخارف حتى ما يكاد يبين . وأهم مظاهر الفن العربي الاسلامي يتمثل في المدن والعمران والفنون الجميلة .

الفهرس